دراسات
فى
تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

الجزء الأول

الأستاذة الدكتورة
إسمت غنيم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم العلوم الاجتماعية
جامعة الاسكندرية

١٩٩٨



دراسـات
فى
تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

الجزء الأول

الأستاذة الدكتورة

إسمت غنيم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

جامعة الاسكندرية

١٩٩٨



بسم الله الرحمن الرحيم

، هذا الكتاب على ستة أبحاث مختلفة فى الموضوع وفى الفترة الزمنية ،
ا كلها تشترك فى شىء واحد هو أنها تبحث جميعها فى تاريخ العصور
ى .

، الأول يتناول عصر الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥ م والإنجازات التى
ى عصره .

، الثانى يتناول عنصر الآفار وما سببوه من متاعب فى منطقة البلقان ووسط
حتى تم لشارلمان القضاء عليهم .

، الثالث فيبحث فى وضع المرأة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ،
سة مقارنة مع مركزها فى الإسلام .

، الرابع يتناول معركة هامة كانت لها نتائج خطيرة وهى معركة منزيكرت
١٠٦ م وجرت هذه المعركة بين الإمبراطورية البزنطية والأتراك السلاجقة
٢ وإنتهت بإنتصار حاسم للسلاجقة وتم أسر الإمبراطور البيزنطى رومانوس
نيس .

أما البحث الخامس وهو (معركة بلاجونيا ونهاية الصراع بين نيقيه وأبيروس حـ
القسطنطينية) ، والبحث السادس عن شارل دانجو ، فهذين البحثين يتناولان أحـد
هامة جرت أثناء القرن الثالث عشر الميلادى .

أرجو ان تكون هذه الأبحاث كلها ذات فائدة علمية للباحثين والدارسين فى تا
العصور الوسطى .

والله الموفق ،

أ.د. إسمت غنيم

لوران

أغسطس ١٩٩٨




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امبراطورية جستنيان

الدكتور
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف



المحتويات



المقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

لعل أنسب اسم يطلق على الدولة الرومانية الشرقية فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٢٧ — ٥٦٥ م. هو الامبراطورية جستنيان ، لأن هذه الامبراطورية لم تكن هى نفسها الامبراطورية الرومانية القديمة ، كما أنها لم تكن كذلك الامبراطورية البيزنطية بحدودها التى عرفت بها خلال الشطر الاكبر من العصور الوسطى ، بل انه لم تمضى على وفاة جستنيان اكثر من ثلاث سنوات حتى تغيرت حدود هذه الامبراطورية بالفتح اللومباردى لشمال ايطاليا .

فهذه الامبراطورية امتدت بفضل جهود جستنيان واستمرت قائمة فى عهده ، وبدأت حدودها تتغير بعد وفاته .

والواقع ان جستنيان يحتل مكانة خاصة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فهو الامبراطور الرومانى الشرقى ، ذو الافكار والميول اللاتينية الغربية ، ومن ثم فقد اختلف المؤرخون المعاصرون والمتأخرون زمنيا ، فى تقييم هذا الامبراطور بأفكاره ومبادئه السياسية وما بذله فى سبيل الامبراطورية من جهود ، أنصفه فريق منهم وهم قليلون ، واتهمه الفريق الآخر وهم الاغلبية ، رفعه بعضهم الى القمة ، وهوى به البعض منهم الى الحضيض .

وفى هذا البحث نحاول ان نصل الى الحقيقة التاريخية المجردة عن هذا الامبراطور والانجازات التى حققها للامبراطورية خلال حكمه .

ويمكن القول ان عصر امبراطور عظيم مثل جستنيان ، استحوذ من

التاريخ البيزنطى على فترة امتدت لأكثر من ثمانية وثلاثين عاماً (١) ، انجز خلالها العديد من الاعمال والمشروعات فى الداخل والخارج ، يصح ان يؤرخ له فى مجلد وليس فى بحث صغير مثل هذا البحث ، والجزء الثانى من كتاب المؤرخ الانجليزى بيورى Bury وعنوانه :

History cf the later Roman Empire

يقع فى ٤٩٤ صفحة ، خصصها كلها للكلام عن عصر جستنيان وحده وهناك كتاب للمؤرخ باركر Barker عن عصر جستنيان أيضا وعنوانه :

Just inian and the later Roman Empire.

ويقع هو الآخر فى ٣١٣ صفحة ، وغيرهم ممن تناولوا عصر هذا الامبراطور بتفصيلات وافية ويستطيع أى باحث فى عصر جستنيان ان يرجع الى كتبهم للاستفادة منها .

اما بالنسبة لبحثى هذا ، فأننى لست بصدد معالجة عصر جستنيان فى حد ذاته بقدر ما أنا حريصة على ان أوضح الحقائق التاريخية للرد على النقد الذى وجه إليه من جانب الغالبية العظمى من المؤرخين ، أى أننى اتناول الخطوط العريضة فى أعمال هذا الامبراطور ، دون الدخول فى التفاصيل الدقيقة ، بشكل يخدم الهدف الذى اسعى إليه .

---

(١) حكم جستنيان منذ ارتقائه العرش وحتى وفاته مدة ثمانية وثلاثين عاما وسبعة شهور ، وثلاثة عشر يوما ، راجع :

Gilbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1976, vol 4, p. 151.

ويرجع الفضل فى تسجيل الأحداث التاريخية الخاصة بعصر جستنيان إلى اثنين من المؤرخين المعاصرين ، هما بروكوبيوس Procopius وأجاثياس Agathias . وينتمى بروكوبيوس فى الأصل إلى مدينة قيصريه فى فلسطين ، وقد رافق القائد بلزاريوس أثناء حملاته العسكرية ، وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التى رواها فى مؤلفه الذى يعرف باسم «التاريخ السرى» Historia Arcana ؛ ويعطى فيه تفصيلا لحروب جستنيان ضد الفرس ، الواندال ، القوط ، ومختلف الأحداث حتى سنة ٥٥٤ م . كما ضمنه كذلك قذفا على جستنيان وثيودورا وبلزاريوس وزوجته . ولذلك لم ينشر هذا الكتاب أثناء حياته . ويقول المؤرخ رانسيمان «بروكوبيوس وإن كان كتابه المعنون « التاريخ السرى » انما هو مجموعة شتى من الخوض فى السير و الاعراض إلا أنه ينبغى أن يوضع بسبب ما دونه عن حروب الأمبراطور ، فى مصاف عظماء المؤرخين فى جميع العصور ، فقد كانت لغته قوية ، وحكمه واضحا ، ووصفه للاشياء حيا» (١) .

ولبروكوبيوس كتاب آخر عن المبانى والحصون يسمى De Aedificiis الغالب أنه كتبه فى الفترة من ٥٥٣ – ٥٥٥ م . وقد أثنى فيه على

---

(1) Runciman, S. : Byzantine Civilisation, Seventh impression, 1975, p. 243.
Dolger, F. : Byzantine Literature, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, 1967, p. 228.

الإمبراطورر جستنيان لانشائه العديد من المبانى اللازمة لكل الأغراض من الكنائس حتى القنـاطر والتحصينات (١) .

أما معـاصرة المتـأخر اجاثياس الذى ولد فى عـام ٥٣٦م وتوفى فى عام ٥٨٢ م ، فهو كذلك مؤرخ مرموق ، ولكنه كـان على نقيض بروكوبيوس فقد كان شاعرا ، وكثيراً ما كان استعماله للاسلوب البلاغى يطغى على كتابته ، ويغلف معانيه بغشاوة كالضباب أحيانا (٢) .

وتاريخه الذى يعرف باسم Historiarum دون فيه الأحداث التى وقعت فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٥٢ — ٥٥٨ م ، ثم أكمل الأحـداث من عام ٥٥٨ — ٥٨٢ م . وقد نشر مؤلفه هذا فى مجموعـة بون البيزنطيـة التى نشرت فى عـام Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. ١٨٢٨ م فى ألمانيا .

كذلك كانت الاسفادة كبيرة من الطبعة الجديدة للجزء الرابع من مجموعة كمبردج للعصور الوسطى Cambridge Medieval History التى أشرفت على نشره الأستاذة جوان هسى Joan Hussey أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة لندن ، وظهرت هذه الطبعة الجديدة فى عامى ١٩٦٦ — ١٩٦٧ . وينقسم هـذا الجزء إلى مجلدين ، الاول خاص بالتاريـخ السياسى ، والثانى خاص بالتاريخ الحضاوى للدولة البيزنطية .

---

(1) Dolger : op. cit,. p. 228.
Runciman : op. cit., p. 243.
(2) Dolger : op. cit., p. 228.

الفصل الأول

المؤثرات المحيطة بجستنيان

- آراء بعض المؤرخين فى جستنيان .
- أهم مستشارى ومعاونى الامبراطور :
  - ثيودورا
  - نارسيس
  - بليزاريوس
  - تريبونيان
  - يوحنا القبدوقى
- المشاكل الداخلية التى واجهته فى بداية عهده .



هذا بالاضافة لمؤلفات فازيلييف Vasiliev ، واستروجورسكى Ostrogorsky ، وجيبون Gibbon . وبيورى Bury ورانسيمان Runciman ، وغيرهم من المؤرخين الذين تناولوا عصر جستنيان سواء فى كتب مستقلة أو فى فصول داخل كتب تبحث فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية بصفة عامة .

ولعلنى بهذا البحث أكون قد أضفت شيئا جديدا الى المكتبة العربية يمكن ان يقدم الفائدة العلمية للباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

والله الموفق ،

اسمت غنيم

لوران

٩ مارس ١٩٨٢ م



يقول المؤرخ فيشر عن جستنيان : « إن امبراطوراً طفحت دخيلته بالغيرة وامتلأ رأسه بالغرور، واتصفت أخلاقه بالتردد وهو مع ذلك لايتهيب الدخول فى مشروع مهما عظم ولايستصغر عملامن أعمال الإدارة مهما صغر، ولايستهين طيرة مهما هانت ؛ ولايعتبر أمراً بعيد المنال مهما بعد ، لا يستطيع أن يثير الإعجاب فى نفس أحد ».(١)

ولم يكن هذا هو النقد الوحيد الذى تعرض له جستنيان من جانب المؤرخين فقد تعرض هذا الامبراطور للكثير من النقد . وخاصة فيما يتعلق بأفكاره السياسية الخاصة باستعادة السيادة الرومانية على الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان واعتبروا سياسته فى هذا الميدان وهما عسير التحقيق ؛ باهظ التكاليف ، وأنها كانت ترفاًوضرراً ،وإن ضررها كان أكثر من نفعها ، وأن جهوده العسكرية فى الغرب كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية، وأنه رغم أن حروبه فى الغرب قد كلفت الإمبراطورية الكثير من المال والرجال ، إلا أن نتائجها لم تكن دائمة وأن فتوحاته هذه قد انهارت بعد وفاته.(٢)

وقبل أن نناقش هذه الآراء . ونوضح مدى صحتها ، يجب أن نستعرض

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، الجزء الأول ، ص ٥٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال المراجع التالية :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, (324 - 1453) Wisconsin press, U.S.A. 1973, vol I, pp. 141 - 142.

Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, paris, 1928, 0 p. 8.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٥٢ – ٥٣ .

عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ص ٦٠ .

العرينى : الدولة البيزنطية ، (٣٢٣ – ١٠٨١) القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٩ .

نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ٧٦ .

عصر هذا الإمبراطور ، وجهوده فى الداخل والخارج والانجازات التى حققتها للامبراطورية ، حتى يكون حكمنا صحيحا مبنيا على الحقائق التاريخية الواضحة .

يرجع الفضل فى ظهور جستنيان على مسرح الأحداث السياسية إلى عمه جستين الذى تختلف الآراء فيما يتعلق بأصله . فالبعض ينسبه إلى الأصل الصقلبي والبعض يقول أنه من أصل رومانى أو ألبانى . على أن الأرجح أن أصله يرجع إلى جماعة من المتبربرين الذين كانوا يقطنون رقعة موحشة منعزلة اطلق عليها تباعا اسم داردانيا ثم داكيا ثم بلغاريا . وقد بقيت اللغة اللاتينية فى هذا الإقليم لغة التخاطب بين الناس دون سائر أقاليم البلقان الأخرى. (١)

وكان جستين وضيع الأصل ، وكان يعمل فى فلاحة الارض فى بلدة ، ثم فكر فى ان يجرب حظه فى العاصمة القسطنطينية ، فهاجر اليها مع بعض اصدقائه ، والتحق بالخدمة فى الجيش حيث اظهر كفاءته كجندى باسل ، فألحق بالحرس الإمبراطورى ، وظل يتقدم حتى أصبح قومس Comes إحدى فرق الحرس ، وكانت كل مؤهلات جستين محصورة فى كونه جندياً باسلا وجاهلا ماعداها من صفات ، فقد كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، متطفلا

---

(1) Barker : Justinian and the later Roman Empire, london, 1966, pp. 64 - 65.

Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, london, 1976, 4, pp. 146 - 147.

فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٤٦ .

اسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) القومس هو الرائد الذى يقود الفرقة العسكرية المكونة من ثلاثمائة إلى أربعمائة جندى أنظر Runciman; Byzantine civilisation p. 139.

على السياسة جاهلا علم اللاهوت . كما كان مسناً حين وقع عليه الاختيار بتدبير لايزال غامضاً ، ليتولى العرش بعد وفاة الأمبراطور أنستاسيوس فى عام ٥١٨ م.

وقد عاش جستين حتى صار أمبراطوراً دون أن ينجب ولداً ، لذا فقد تبنى إبن أخ له من نفس موطنه . وأطلق عليه إسم رومانى هو جوستنيانوس Justinianus وهو ريفى الأصل مثله إستقدمه فى حداثته إلى القسطنطينية ، وعنى بتثقيفه وتهذيبه وكانت اللغة الأصلية لجستنيان هى اللاتينيـة ؛ لكنه كان يتكلم اليونانية بلهجة رديئة وحين تولى جستين العرش كان جستنيان قد أنهى دراسته وأصبح على دراية كبيرة بالسياسة وكافة الشئون اللازمة لمن يعمل فى الحكم ، وصار المساعد الأيمن لعمه جستين ، وفى عام ٥٢٥ أضفى عليه لقب قيصر Caesar وفى إبريل ٥٢٧ منحه لقب Augustus وأعلنه خليفته على العرش البيزنطى(١)

وبعد أن توفى جستين فى أول أغسطس ٥٢٧ . تولى جستنيان الحكم . وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، صهرته الخبرة ، وحنكته التجارب ، وكان يفتح بابه لكل الناس ، وينصت إلى شكاواهم ، وكان مهذباً بشوشاً ، قادراً على التحكم فى انفعالاته . ومما عرف عنه أنه كان عزوفاً عن الطعـام ، وكثيراً ما كان يقضى يومين دون أن يتناول طعاماً ، وفى فترات الصوم الرسمية كان يقنع بالماء والخضراوات ، ولم يكن تحكمه فى نومه أقل صرامـة من تحكمه فى طعامه . فقد كان لايستريح إلا ساعة واحدة وكان أشد مايدهش أمناء القصر أن يرونه سائراً فى أرجائه وسط الليل أو مكباً على دراسة التقـارير التى يرفعها

---

(1) Barker : Justinian and the later Roman Empire. p. 66.
Bréhier : Vie et mort de Byzance. paris, 1969. pp. 30 - 31.
Gibbon : The decline and Fall of the Roman Empire, vol. 4, pp. 146 - 148.

اليه الموظفون بالدولة حتى يلوح ضوء النهار ، وكان من نتيجة ذلك أن لقبوه « بالإمبراطور الساهر» (١).

وكان جستنيان شديدالإعجاب بمواهبه ومؤهلاته ، شديد الثقة فى عظمته ، ولكنه رغم هذا كان يحترم آراء مساعديه ومستشاريه ؛ وأهمهم زوجته الأمبراطورة ثيودورا ، والقائدان اللامعان بليزاريوس ونارسيس اللذان حقق جستنيان عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات للامبراطورية وتريبونيان المساعد الأيمن للامبراطور فى مجال التشريع ويوحنا القبدوقى الذى كان مسئولا عن الشئون الإدارية والمالية .

فيما يتعلق بثيودورا فهى إبنة لأحد القبارصة ، وكان يعمل مروضاً للدببة بالسيرك وقد إكتسب شهرة كبيرة فى هذا الميدان حتى أطلق عليه إسم (سيد الدببة) The master of the bear وقد ولدت ثيودورا بالقسطنطينية فى عام ٥٠٠م وكانت الإبنة الوسطى لوالديها ، وكانت أختها الكبرى تدعى كوميتو Comito والأخت الصغرى تدعى أنسطاسيا Anastasia ولم يمتد الأجل بوالدهن طويلا فتوفى تاركاً بناته الثلاثه وأمهن دون مورد رزق ، وكانت كبراهن لا تتعدى سنها وقتذاك السابعة من العمر. ورغم حداثة سنهن إلا أن أمهن دفعتهن للعمل على المسرح لكسب العيش ، وقد نالت الشقيقات الثلاث تعاطف شعب القسطنطينية بعد أن أدخلن السرور إلى قلبه.

ولم تكن ثيودورا تتقن الرقص أو الغناء أو العزف على الناى مثل شقيقتاها

---

(1) Procopius : Historia Arcana, ed. Haury, leipzig, 1906. pp. 80 - 81.
Barker : op. cit., p. 67.
Gibbion : op. cit., pp. 365-366.

. أنظر كذلك الصورة رقم (١) للأمبراطور جستنيان .

ولكنها برعت فى فن آخر يعرف حـاليا باسم البـانتوميم The Pantomime وهو فن التمثيل الصامت ، فكانت تقوم بتأدية حركات معينة دون أن تنطق بكلمة واحدة واختارت لنفسها تمثيل دور المهرج (البلياتشو) . وكلما انتفخت أوداج الممثلة الصغيرة وشكت فى حركات مضحكة من الضربات التى كانت تكال لها ، ضج مسرح القسطنطينية بالضحك ودوى بالتصفيق والاستحسان . وكان جمال ثيودورا مصدر اطراء وثناء دائماً ، وكانت قسمات وجهها رقيقة ومتناسقة ، كما كانت بشرتها رغم شحوبها نوعاً ما ، مشربه بلون طبيعى وكان أهم ما يميز وجهها عيناها الممتلئتان بالحيوية ، واللتان تعبران على الفور عما يدور فى نفسها من احساس(١) .

وهكذا عرف عن ثيودورا الجمال والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر ، وقد دفعها الفقر والجو الملىء بالإنحلال والفساد الذى عاشت فيه ، إلى الإنحراف ، ويسرد المؤرخ المعاصر بروكوبيوس العديد من القصص والحكايات عن صولات وجولات ثيودورا فى هذا الميدان ، ويقول انها كانت مصدر التسلية بالقسطنطينية كما كانت مصدر العار لها كذلك ، وأنه كان يتنحى عن طريقها ويتفادى لقاءها كل من يرغب فى تجنب الفضيحة أو الإغراء(٢) .

على أن ثيودورا لم تلبث ان هجرت العاصمة البيزنطية ، وصاحبت Ecebolis حاكم ولاية شمال افريقية إلى مقر عمله ، حيث أمضت هناك بضع سنوات ، ثم عادت من جديد إلى العاصمة عن طريق مصر ثم سورية وآسيا الصغرى ، ويقول بروكوبيوس ان كل مدينة مرت بها فى طريق

---

(١) أنظر الصورة رقم (٢) للامبراطورة ثيودورا .

(2) Procopins : Historia Arcana, ed. Haury, pp. CC - 61.

عودتها قد أعجبت واستمتعت بالقبرصية الجميلة ذات المواهب المتعددة(١).
المهم انها ما أن وصلت للعاصمة حتى غيرت من مسار حياتها : فقد ابتعدت
عن المسرح واعتزلت الناس وأمضت وقتها فى غزل الصوف ، وأبدت
اهتماماً كبيراً بالمسائل الدينية واتصفت بالتعقل والإتزان .

ولعل المرء يتساءل عن السبب فى هذا التغيير الشامل الذى طرأ على
حياة ثيودورا . ان بروكوبيوس يدعى بأن السبب فى ذلك يرجع إلى أنها
فى طريق عودتها لبيزنطة رأت فيما يرى النائم انها ستكون زوجة لملك ثرى .
ووعياً منها بما ينتظرها من عظمة وجلال عادت من آسيا الصغرى إلى
القسطنطينية واصطنعت بما لها من قدرة فائقة على التمثيل هذه الشخصية
الأكثر حشمة ووقاراً .

وإن كنت أرجح أن تكون ثيودورا قد تأثرت واقتنعت بالتعاليم
الدينية بعد اختلاطها بالرهبان ورجال الدين الذين حفلت بهم الولايات
الشرقية من الامبراطورية أثناء عودتها إلى القسطنطينية ،وفى اعتناقها لمذهب
الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، ودفاعها عن هذا المذهب وهو المذهب الذى ساد
فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ما يؤيد ذلك .

وقد رآها جستنيان وهى على هذه الصورة فبهره جمالها ، ولم يكن
جستنيان قد وصل للعرش الامبراطورى بعد ، وقد أراد الزواج بها .
ولكن حالت عقبات دون اتمام هذا الزواج . ذلك أن القوانين الرومانية
كانت تحرم صراحة زواج عضو مجلس السناتو (الشيوخ) من أية إمرأة
ذات أصل وضيع ، كما أن الإمبراطورة Euphemia زوجة عمة الإمبراطور

(1) Procopins : op. cit., pp. 27 - 28.

جستين ، وهى من أصل ريفى ومتمسكة بالتقاليد الصارمة ، رفضت تماماً أن يتزوج ابن أخ زوجها ووريثه فى العرش الإمبراطورى من هذه المرأة ذات التاريخ الحافل بالرذيلة . كما أن والدة جستنيان وتدعى Vigilantia عارضت هى الأخرى هذا الزواج بشدة .

لكن جستنيان لم ييأس وقد ساعده القدر على ذلك حين توفيت الإمبراطورة Euphemia فزالت بذلك أكبر العقبات أمام زواجه من ثيودورا . فسن جستنيان قانوناً باسم الإمبراطور جستين الثانى أبطل به القانون القديم ، ونص هذا القانون الجديد على « فتح باب التوبة الصادقة أمام النساء التعيسات اللاتى دنسن أنفسهن على المسرح ، وأجيز لهن عقد القران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية » .

وهكذا أتيح لجستنيان على طريق هذا القانون الجديـــد الزواج من ثيودورا وتم ذلك فى عام ٥٢٢م .

ومنذ تزوجها جستنيان وحتى وفاتها فى عام ٥٤٨م . وهى تمارس نفوذاً كبيراً على زوجها ، وحين آل العرش إلى جستنيان فى عام ٥٢٧م بعد وفاة جستين الثانى ، توجها بطريرك القسطنطينية كإمبراطورة مثلما توج جستنيان إمبراطوراً ، وقد أجلسها جستنيان على العرش شريكاً متكافئاً مستقلا فى السيادة على الإمبراطورية ، وفرض على حكام الولايات والموظفين الإداريين تأدية يمين الولاء لجستنيان وثيودورا معاً على النحو التالى : « إمبراطورينا المقدسين الورعين جستنيان وثيودورا شريكته فى العرش » .

وفى كثير من الأحيان كانت تستقبل السفراء الأجانب وتنعم عليهم

بالهدايا « كما لو كانت تحكم الإمبراطورية الرومانية » على حد تعبير بروكوبيوس »(١) .

وكان لثيودورا مصادر مالية عديدة منها ضياع كثيرة فى آسيا الصغرى يديرها مشرف كبير يعرف باسم : Curator divinae domus serenissimae Augustae وكان جستنيان حريصاً على أن يزيد من أملاك ثيودورا فمنحها هبات ضخمة بمناسبة زواجهما وكان ضمن هذه الهبات القصر الذى كان يقيم فيه جستنيان قبل اعتلائه العرش والمعروف بقصر هورميسداس Hormisdas .

وإن كان بروكوبيوس متبعاً نفس الأسلوب الذى سار عليه فى مهاجمة ثيودورا يقول بأنها كان لها اهتماماً خاصاً بكل ما له صلة بالإتجار فى اعراض النساء ، الا ان الثابت انها قومت الكثير من الاخطاء ، ويرجع إليها الفضل فى إصدار القانون الصارم الذى يحظر الإتجار فى الفتيات الصغيرات هذا الأمر الذى كان يعد من أكثر الأعمال رواجاً آنذاك . ذلك أن الوكلاء كانوا يجوبون ولايات الإمبراطورية يجمعون الفتيات الصغيرات تحت سن العاشرة ، بعد أن يغروهن بالحياة الرغدة والملابس الأنيقة ، ويدفعون إلى ذويهن القليل من المال تعويضاً لهم عن بناتهم ، وبعد أن يصلوا بهن إلى العاصمة يجبرونهن على الإشتغال فى بيوت الدعارة . وقد بذلت ثيودورا جهدها من أجل العمل على إنقاذ أولئك الفتيات من أيدى هؤلاء التجار ، بعد أن دفعت إليهم الكثير من مالها الخاص .

---

(1) Procopius : Historia Arcana, pp. 24, 30.
Bury : History of the later Roman Empire, vol 2, p. 30.
Barker : op. cit, pp. 69 - 70.
Gibbon : the Decline and Fall of the Roman Empire, vol 4, pp. 153 - 157.

أما المومسات التائبات ، فقد خصصت لهن ثيودورا قصراً على الشاطىء الآسيوى للبوسفور غير بعيد عن ساحل البحر الأسود ليكون مأوى يكفل لهن الحياة الشريفة وعرف هذا القصر باسم Metanoia or Repentance ويحاول بروكوبيوس أن يبخس من قدر هذا العمل النبيل الذى قامت به ثيودورا فيدعى أنهـا قـد نزلت إلى سوق القسطنطينية مـع مجموعة كبيرة من الحرس وأمرتهم بجمع النساء الساقطات . فجمعوا حوالى خمسمائة منهن وأرسلتهن إلى قصر Metanoia وأجبرتهن على تغيير طريق حياتهن بالقوة . وقد ألقت بعضهن بأنفسهن من النوافذ المرتفعة فلقين حتفهن ، ولهذا فهو يحملها مسئولية موتهن(١) .

وهكذا يتضح التناقض فى أقوال بروكوبيوس ، ففى الوقت الذى يتهمها فيه بالإتجار فى أعراض النساء ، يوضح انها تحاول ابعاد النساء الساقطات بالقوة عن ممارسة هذه المهنة وارسالهن إلى قصر التائبات .

والواقع أننى اتفق مع المؤرخ فازيلييف Vasiliev الذى يؤكد أن بروكوبيوس كان حريصاً على أن يسىء إلى سمعة جستنيان وثيودورا ولهذا فهو راو مغرض يجب أن نتقبل روايته بشىء من الحذر(٢) .

وقد أتاح لها الدخل الضخم الخاص بها ، اعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، وبلغ بها الأمر أحياناً انها كانت تخبط أعمال وكلاء الإمبراطور ، ثم لا يفوتها بعد ذلك أن تسترضى جستنيان . وكان ذووا الحظوة لديها هم وحدهم الذين تولوا مناصب ولاة المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات ،

---

(1) Procopuis, Historia Arcana, P 17.
Bury : History of the later Roman Empire, pp. 21 - 32.

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol, 1, p. 132.

أما أعداؤها فكانوا يعزلون أو يقضى عليهم . ويقول المؤرخ شارل ديل إن ثيودورا اتصفت بالتطرف الشديد فى علاقاتها فكانت لا تعرف الحد الوسط . فهى إما شديدة العداء أو شديدة الود .(١) أما المؤرخ موص فيقول إن إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم الإمبراطورية . وفى الوقاحة المتعمدة التى كانت توجهها إليهم . تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التى لقيتها من أبناء طبقتهم(٢) .

وقد برز نفوذها الهائل فى المسائل الدينية . وقد سبق أن أوضحت أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزيتية الآخذة بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وكان جستنيان يدين بمذهب الطبيعتين ، ويوم تعرضت الكنيسة المونوفيزيتية للإضطهاد على يده ، هرع إلى ثيودورا رجال الدين والرهبان من أصحاب هذا المذهب المونوفيزيتى وقد بذلت لهم ثيودورا الحماية ، وعملت جاهدة على إخفائهم بشتى الوسائل ، ومن طريف ما يذكر فى هذا المجال ؛ أن أحد هؤلاء وهو البطريرك انثيموس بحث عنه جستنيان فى كل مكان لمحاكمته على هرطقته دون أن يعثر له على أثر وبعد وفاة ثيودورا فى عام ٥٤٨م ، دخل جستنيان إلى جناحها بالقصر الإمبراطورى لأمر ما ، وإذا به وجهاً لوجه أمام البطريرك انثيموس ، واتضح أن ثيودورا قد خبأته فى إحدى الغرف الداخلية بجناحها الخاص بالقصر الإمبراطورى لمدة اثنى عشرة سنة(٣) .

---

(1) Diehl : justinian's Government in the East, in C.M.H. ed. Bury. great Britain, 1976, vol II, p. 26.

(٢) موص : ميلاد العصور الوسطى ، ص ١٧٢ .

(3) Diehl : justinian's Government in the East, p. 45.
Runciman : Byzantine Civilisation. p. 191

ومهما يكن ، فإنه مما لا جدال فيه أن ثيودورا كانت أبعد نظراً وأكثر إدراكاً من جستنيان للخطر السياسى الذى تتعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها الدينية . وبفضل مشورة ثيودورا انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات سياسة التسامح وتقديم التنازلات التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

وهكذا أثبتت ثيودورا كفاءة ممتازة ومقدرة كبيرة فى تصريف شئون الإمبراطورية . ويعود إليها الفضل فى احتفاظ جستنيان بعرشه بعد أن وقفت بحزم وصمود أمام تلك الزوبعة التى كادت أن تقضى عليه والتى تمثلت فى الفتنة المعروفة باسم نيقا Nika كما سيتضح من عرضنا للأحداث المقبلة .

أما عن نارسيس (٤٧٨ — ٥٧٣م) فقد ولد فى إرمينيا . وكان طواشياً ضئيل الحجم . ولكنه لطيف وأنيق المظهر ، وكان فى البداية رئيساً للطواشية Sacellarius فى الحرس الإمبراطورى ، ثم أصبح كبير الحجاب :
Praepositus Sacri Culiculi
ونظراً لأنه كان طواشياً ، فقد كان لا يطمع فى العرش الإمبراطورى ، وكان ذلك سبباً فى حسن العلاقات بينه وبين جستنيان .

وقد شارك نارسيس فى القضاء على فتنة نيقا فى ٥٣٢ . كما شارك فى الحروب التى قام بها جستنيان فى إيطاليا ضد القوط الشرقيين مع زميله بليزاريوس . وفى عام ٥٣٩ استدعى نارسيس إلى القسطنطينية ، ثم غادرها فى صيف ٥٥١ على رأس القوات التى ذهبت إلى البلقان لمقاتلة قبائل الهون والجبيد واللومبارد . وفى نفس العام ذهب إلى إيطاليا لمواصلة القتال ضد

القوط الشرقيين بقيادة زعيمهم توتيلا Totila الذى هزمه نارسيس ، ثم واصل حروبه فى شمال إيطاليا ضد الألمان والفرنجة والبرجنديين الذين هاجموا شمال إيطاليا ، وأقر السيادة الإمبراطورية هناك ، وحكم إيطاليا وأبدى الكثير من العنت والظلم تجاه الأهالى ، كما تشدد فى جمع الضرائب منهم ، وفى عام ٥٧٦ استدعاه الإمبراطور جستين الثانى . الذى عاقبه بعد أن اتهمه بأنه السبب فى إغراء اللومبارد على مهاجمة شمال إيطاليا. على أن ما مر به من أحداث فى أواخر حياته لم يحجب عن الأنظار ما بذله من جهود فى خدمة الإمبراطورية وخاصة أثناء حياة الإمبراطور جستنيان(١) .

وبالنسبة لبليزاريوس ، فهو يعتبر من أشهر القادة فى التاريخ البيزنطى كله ، ولد فى عام ٥٠٥م . وكان صديقاً للإمبراطور جستنيان ، كما أن زوجته أنتونينا Antonina كانت صديقة للإمبراطورة ثيودورا . وقد بدأ بليزاريوس يلمع فى ميدان العسكرية فى موقعة دارا عام ٥٣٠م . ثم عين قائداً للشرق ، وفى عام ٥٣٢ تمكن بالتعاون مع نارسيس من القضاء على فتنة نيقا ، ثم أرسله جستنيان فى عام ٥٣٣ إلى شمال إفريقية حيث تم له القضاء على مملكة الواندال بها ، وأسر زعيمهم وعاد به إلى القسطنطينية ، وبعد الاحتفال بانتصاره ، أرسل إلى إيطاليا فى محاولة استعادتها للإمبراطورية من يد القوط الشرقيين على أن العلاقات لم تلبث أن ساءت بينه وبين الإمبراطور جستنيان بعد أن علم أن القوط الشرقيين فى إيطاليا يرغبون فى تتويج بليزاريوس امبراطوراً عليهم ، فاستدعاه جستنيان إلى القسطنطينية

(١) Vasiliev : op. cit., vol. I. pp. 137, 173.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 70 — 73.
J. M Hy. : Narses, Encyclopedia Britannica, 1965, U. S. A., vol. 16, p. 35.

بحجة الحاجة إليه لقتال الفرس الذين هاجموا الحدود الشرقية للإمبراطورية على أن معاودة القوط الشرقيين للحرب ضد النفوذ الإمبراطورى اضطر الإمبراطور جستنيان لإرساله من جديد لإيطاليا ، ثم استدعاه فى عام ٥٤٩ . وفى عام ٥٥٩ قاتل بليزاريوس البلغار الذين هاجموا أسوار العاصمة البيزنطية وأجلاهم عنها .

ونظراً لشجاعة بليزاريوس فى القتال وسيطرته التامة على الجنود رغم تعدد عناصرهم ، ولكرمه وإنسانيته ؛ فقد تعلق به الجنود لدرجة كبيرة أثارت مخاوف جستنيان ، مما جعله لا يطمئن إليه ولا يثق به . ومن ثمة فقد اتهمه بالتآمر ضده وتم القبض عليه وسجنه فى عام ٥٦٢ م .

ويقال إن بليزاريوس قضى الفترة الأخيرة من حياته فى فقر وبؤس ، حتى اضطر للتسول بعد أن فقد بصره . ولكن هذه الرواية غير حقيقية ؛ لأن الثابت أن جستنيان عفى عنه فى عام ٥٦٣ م وقربه إليه حتى وفاة الإمبراطور فى ٥٦٥(١) .

وبخصوص تريبونيان Tribonianus ، فقد ولد فى إقليم بامفيليه ، على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وفى البداية اشتغل بمهنة المحاماة فى القسطنطينية . وكان نبوغه ومهارته فى المحاماة مما لفت نظر جستنيان إليه ، فقربه وصار تريبونيان يتمتع بعطف الإمبراطور ، الذى عينه فى ٥٢٨ فى منصب رئيس دواوين الموظفين ...

---

(1) Gidbon : op. cit., vol 4, pp. 360 - 364.
Vasiliev : op cit. vol. I, pp. 135 — 137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 — 73.
T. A. R. : Belisarius, Encyclopedia Britannica, U. S. A., 1965. vol. 3, p. 438.

Magister officiorum وفى سنة ٥٣٠ م عينه وزيراً للقضاء ...
Quaestor Sacripalatii « حارس القصر المقدس » . وفى عام ٥٣٢ عزله
من هذا المنصب تنفيذاً لرغبة الجماهير أثناء فتنة نيقا . لكنه أعاده لمنصبه
مرة أخرى فى عام ٥٣٤م . وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى ٥٤٤م

وقد هاجم المؤرخ بروكوبيوس تريبونيان واتهمه بالرشوة والإلحاد .
ويبدو أن اهتمام تريبونيان بالفلسفة . والفلك . والتقويم كان وراء هذا
الإتهام . على أن الإهتمام الأكبر لتريبونيان كان بالقانون وقد أوكل إليه
جستنيان مهمة الإشراف على الإصلاحات التشريعية التى تمت فى عهده(١) .

أما يوحنا القبدوقى . فهو مواطن من مدينة قيصرية فى إقليم قبادوقيا
بدأ حياته كرجل دين فى خدمة رئيس العسكر . وبطريق الصدفة تعرف به
جستنيان . فعينه فى وظيفة (مراقب الحسابات) Logothete ليراقب
مقيمى وجامعى الضرائب فى الولايات . ولم يلبث أن رقى حتى أصبح يشغل
وظيفة (الوالى البريتورى) Praetorian prefect وكان ذلك
قبل سنة ٥٣١م .

ولم يكن يوحنا يملك المؤهلات الأساسية التى تؤهله للقيام بواجبات
هذه الوظيفة . إذ أنه لم يتلق قدراً كافياً من التعليم . وبالكاد كان يقرأ
ويكتب . لكن ذلك لم يكن يهم الإمبراطور جستنيان فى شىء . طالما أن
يوحنا كان يمتلك المؤهلات الأكثر أهمية فى نظر الإمبراطور . فقد كان

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 - 75.
Vasiliev : op. cit., vol I, pp. 142 - 143.
Runciman : Byzantine Civilisation, pp. 38, 75.
J. A. C. T. : Tribonian, in Encyclopedia Britannica vol 22 p. 466.

موهوباً بل داهية فى إبتكار الأساليب المختلفة من أجل جمع المال من الشعب المغلوب على أمره . وكان يوحنا يوصف بأنه من أذكى وأجرأ الرجال فى عصره . كما وصف كذلك بأنه معدوم الضمير ، ففى الوقت الذى كان يمد الإمبراطور بما يحتاجه من المال جمع لنفسه ثروة طائلة . فقد كان « لا يخشى الله ولا يحترم الرجال » .

وقد قاست الولايات وخاصة ولايتى ليديا lydia وقيليقية Cilicia من أساليب الابتزاز التى رسمها يوحنا القبادوقى ومساعده الذى يدعى يوحنا أيضاً والذى أطلق عليه الأهالى اسم Maxilloplumacivs أى (المنتفخ الاوداج) وقد زار يوحنا فيلادلفيا Philadelphia ، عاصمة ليديا . ولم يترك اناء أو زوجة أو طفل أو صبية فى منزل إلا واستولى عليهم .

وقد جنى جستنيان ثمار سياسة الابتزاز هذه ، فأمده يوحنا القبدوقى بما احتاجه من الأموال ، ولذلك كان الإمبراطور على استعداد لأن يغمض عينيه ويتغاضى عن أسلوب يوحنا فى الإبتزاز .

لكن الإمبراطورة ثيودورا كانت تكن الكراهية ليوحنا . وربما يرجع ذلك إلى تعاطفها مع الطبقات الفقيرة التى طحنها يوحنا وسحقها تحت وطأة المطالبة المستمرة بالأموال وقد أخذت ثيودورا توضح لجستنيان أن استمرار يوحنا القبدوقى فى ظلمه للأهالى على هذا النحو سيعرض مركز الإمبراطور للخطر .

وهكذا ، وبإيعاز من ثيودورا نفى يوحنا القبدوقى إلى قزيقوس على ساحل البحر الأسود . وحدث أن قتل أسقف قزيقوس وكان يدعى Eusebius وقد اتهم يوحنا بقتله نظراً لما كان بين الرجلين من عداء .

وقبل أن يتم القبض على يوحنا ، نجح فى الفرار إلى مصر ولكن السلطات البيزنطية تتبعته إلى هناك وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية لمحاكمته ، وقد حاولت ثيودورا جاهدة أن تلصق به تهمة القتل حتى يتم قتله والتخلص منه . ولكن نظراً لعدم ثبوت الأدلة عليه فقد سجن فقط ، وظل بالسجن حتى وفاة ثيودورا فى ٥٤٨ . وبعد وفاتها أطلق جستنيان سراحه وعاش بالعاصمة البيزنطية بعد أن انخرط فى سلك رجال الدين(١) .

كان هؤلاء أهم مستشارى ومساعدى الإمبراطور جستنيان .الذى مكنته بصيرته النافذة من اكتشاف مواهب كل واحد منهم فى ميدان تخصصه ، وقد اعتمد الامبراطور على مشورتهم وجهودهم لتنفيذ الإنجازات الضخمة التى تمت فى عهده . وقد ظهرت جهودهم بصورة واضحة منذ بداية عهده . وأثناء الفتنة التى حدثت فى عام ٥٣٢م .

تعرف هذه الفتنة باسم Nika (٢) وهى كلمة يونانية معناها (النصر) كان المتظاهرون يهتفون بها أثناء ثورتهم . وإذا بحثنا عن أسباب هذه الفتنة وجدنا أنها أسباباً متعددة ، بعضها دينى نشأ عن اضطهاد من اعتنق مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وبعضها سياسى ، إذ أن أبناء أخ الإمبراطور السابق انستاسيوس اعتبروا جستين وجستنيان مغتصبين لحقهم فى الحكم ، وبعض هذه الأسباب كان عاماً يتعلق بثقل عبء الضرائب على الشعب . ذلك أن جستنيان قد اعتمد على تريبونيان فى القضاء . ويوحنا القبدوقى فى الإدارة ، وطغى الإثنان وتجاوزا الحد فى إبتزاز الأموال ، وفى فرض

---

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol 2, pp. 36 - 37 58 - 59.
Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 72 - 75.

(٢) Nika هى آلهة النصر عند اليونان ، وتمثل عادة على صورة فتاة مجنحة تحمل بأحدى يديها أكليلا وباليد الأخرى سعفة نخيل .

الضرائب على الشعب الذى انتفض ثائراً على هذه الأوضاع ، وكان أكثر الثائرين هم أفراد حزبى الزرق والخضر ، ولمعرفة المزيد عن هذين الحزبين ينبغى العودة قليلا إلى الوراء . حين أسس الإمبراطور قسطنطين الأكبر مدينة القسطنطينية فى عام ٢٢٣ م . أنشأ بها ملعباً كبيراً عرف باسم الهيبدروم Hippodromius أصبح مسرحاً للسياسة ولجميع مظاهر الحياة العامة فى العاصمة . وكان بالملعب الكاثيسمة Kathisma أى لوج الإمبراطور ، وكان العرش العظيم الذى أقيم فى وسط هذا اللوج ، هو المكان الذى يطل منه الإمبراطور على شعبه فى مختلف المناسبات ، وكان يقام فى الهيبدروم سباق للخيل ، وكان سائقو عربات السباق يتزينون بواحد من أربعة ألوان ، الأخضر أو الأزرق أو الأبيض أو الأحمر . والغالب أنها تقابل العناصر الأربعة المعروفة وهى : الأرض (الخضراء) والماء (الأزرق) والهواء (الأبيض) والنار (الحمراء)(١) .

وبمرور الوقت أصبحت هذه الأحزاب الرياضية أحزاباً سياسية واجتماعية ، وانضم البيض إلى الخضر ، والحمر إلى الزرق . فأصبح فى العاصمة حزبان فقط هما : الخضر والزرق . وكان الخضر من الطبقات السفلى الذين كانت تشملهم الإمبراطورة ثيودورا بعطفها ، على حين كان الزرق يمثلون الطبقات العليا فى المجتمع البيزنطى .

ورغم أن هذين الحزبين كانا متنافسين ، إلا أنهما اتحدا ضد جستنيان وقاما بالثورة ، وانطلقا إلى الهيبدروم ، وخرجت جموعهم منه يخربون ويحرقون ويصيحون « نيقا » ، وتعرضت أجمل المبانى وأروعها للإحراق

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol. I, pp. 144— 145 (1)

والتدمير ، وكانت كنيسة آيا صوفيا ضمن تلك المبانى . واضطر جستنيان لمفاوضتهم ، وعزل تريبونيان ويوحنا القبدوقى ، ولكن الثائرين لم يهدأوا ، بل نادوا بابن أخ الإمبراطور السابق انستاسيوس امبراطوراً .

وعندما تحرج مركز جستنيان جمع مستشاريه وشاورهم فى الفرار من العاصمة ، وأجمعوا على ذلك . لكن الإمبراطورة ثيودورا خالفتهم فى الرأى وواجهت الموقف فى صمود وشجاعة . وقد أورد المؤرخ بروكوبيوس نص العبارة التى خاطبت بها ثيودورا جستنيان . قالت : « يستحيل على الفرد وقد جاء إلى هذه الدنيا ، أن يبقى حياً أبد الدهر ، فلا بد أنه سوف يموت ، ولكن من يمارس السلطة لا يطيق النفى ، وإن ترغب أيها الإمبراطور أن تنقذ نفسك ، فليس هناك ما يمنعك ، فالبحر قريب ، والسفن مجهزة ، والمال موفور . ولكن تريث قليلا وسل نفسك : ألن تندم بعد فرارك ووصولك إلى ملجأ أمين فتود لو كنت آثرت الموت على الأمان ؟ أما أنا فلا زلت أتمسك بالمثل القديم الذى يقول : « إن العباءة الإمبراطورية هى خير الأكفان »(١) .

وقد تأثر جستنيان بهذا الموقف الشجاع من جانب ثيودورا ، فأوعز إلى نارسيس بأن يقضى على وحدة المتظاهرين ، فتم التفاهم بينه وبين الزرق ، فى حين أمر بليزاريوس بأن يخضعهم بالقوة . ففاجأهم فى الهيبدروم وفتك

(1) Procopius : De bello persico, ed Havry, vol. 1, p. 130.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 72 — 73.
Vasiliev : op. cit. pp. 154 — 157
- Bury : op. cit., p. 45
Barker : op. cit, p. 88

بهم فتكاً . وقتل آلافاً منهم ، أما أقرباء انستاسيوس فقد تم إعدامهم ، وبذلك رسخت أقدام جستنيان وثبتت سلطته(١) .

---

(١) بخصوص فتنة نيقا أنظر المراجع التالية :

Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 82 - 91.
Bury : History of the later Roman Empire, vol. 2, pp. 39 — 48.
Diehe : justinian The Imperial restoration in the west, in c. M.H. ed. Bury, vol 11, pp. 9 - 11.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 72 — 73.
Vasiliev : op. cit., pp. 154 — 157.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٠ — ١٧١ .
عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٤٦ — ٤٨ .
العريني : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٦٩ — ٧١ .



الفصل الثانى

جستنيان والمثالية الرومانية

- البرابرة الجرمان وكيفية استيلائهم على الممتلكات الرومانية بالغرب .
- استرجاع جستنيان لولايات شمال إفريقية ، إيطاليا ، وأسبانيا .
- الصراع مع الفرس .
- الأخطار التى هددت الجبهة الشمالية .



لقد اتجه جستنيان بأنظاره نحو أقاليم الإمبراطورية فى الغرب ، التى كانت تحت أيدى البرابرة الجرمان ، وبذل كل جهده فى سبيل استرجاع هذه الأقاليم من جديد لسلطان الإمبراطور الرومانى الشرقى ، وكان فى سعيه الحثيث هذا وتصميمه على استرجاع هذه الأقاليم إنما يحقق بذلك المثالية الرومانية(١) .

وقبل أن نعرض للجهود التى قام بها جستنيان لاسترجاع ممتلكات الإمبراطورية الغربية التى استولى عليها الجرمان ، يجدر بنا أن نأخذ فكرة سريعة عن أصل هؤلاء الجرمان ، وعن كيفية سقوط هذه الأجزاء من الإمبراطورية الغربية فى أيديهم .

الواقع أن المعلومات التاريخية عن أصلهم قليلة ، ليست أكثر من أنهم أقوام حلوا أوائل عهدهم بالقارة الأوروبية ونزلوا بشبه جزيرة سكنديناوة ، حيث بقى فريق تفرعت عليه الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية ، أما الفريق الآخر ، فقد أخذ فى التجول والترحال فى الجنوب الغربى عبر ألمانيا سعياً وراء العيش أو الجو المعتدل ، أو حباً فى المغامرة والحرب ، حتى وصلت فئة منهم إلى حوض نهر الراين ، كما وصلت فئة أخرى إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود . وهذان التياران هما اللذان اصطدمت بهما الدولة الرومانية(٢) .

وكان عنصر القوط من تلك الأقوام التى استقرت شمالى البحر الأسود ، وهناك انقسموا إلى قسمين : شرقيون وغربيون ، فانتشر الشرقيون فوق

(١) أنظر الفصل الأخير من هذا البحث ص ٨٨ — ٩٠.

(٢) فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ١٥

السهول الجنوبية لروسيا ، فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات .

وقد نتج عن احتكاك القوط بالرومان ، أن اعتنق القوط المسيحية ولكن فى مذهبها الأريوسى عن طريق مبشر منهم يدعى ولفلاس Wulfilas تلقى تعليمه بالقسطنطينية واعتنق المسيحية على المذهب الأريوسى مما أدى إلى إنتشار الأريوسية بين القوط ، ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل : الواندال والبرجنديين واللمبارديين(١) . وسيكون هذا المذهب الأريوسى من أهم الأسباب فيما حل بالقوط والواندال من متاعب ، وحال دون حسن التفاهم بينهم وبين سكان البلاد الرومان الذين نظروا إليهم على أنهم سادة كفرة ينبغى التخلص منهم ، وسهل على جستنيان مهمة استعادة ولايات الإمبراطورية .

وكانت بداية الاشتباكات العسكرية بين القوط الغربيين والرومان فى النصف الثانى من القرن الرابع حين ضغطت عليهم قبائل آسيوية رعوية هى قبائل الهون ، فطلب القوط الغربيون من الإمبراطور فالنز (٣٦٤ — ٣٧٨م) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . ورغم استجابة الإمبراطور لهذا الطلب — وخاصة ليتخذ منهم ستاراً يحمى به حدود الإمبراطورية من خطر الهون — إلا أنهم لم يلبثوا أن ثاروا وأوقعوا بفالنز الهزيمة وذبحوه فى سهول أدرنة فى ٣٧٨م . ولم يجد خليفته الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٨ — ٣٩٥م) بدا من محالفتهم ، وسمح لهم بالإقامة ...

---

(١) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44
: The goths, p. 61.

فى شمال تراقيا ، وقد تمتع القوط بسلطتهم المطلقة فى هذا الإقليم ، كما أعفوا من الضرائب مقابل تعهدهم بتقديم الخدمة العسكرية للإمبراطورية(١) .

وقد ظل الهدوء يسيطر على العلاقات بين القوط الغربيين والإمبراطورية الرومانية حتى وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس فى عام ٣٩٥ وانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين : شرقى ، كان من نصيب أركاديوس ، وغربى ، كان من نصيب هونوريوس .

وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد ، وجرت وقائع كثيرة بينهم وبين جيوش الإمبراطورية(٢) ، حتى اقتحموا روما فى ٤١٠ م فنهبوها وأحرقوا بيوتها ، وعندئذ وجد الإمبراطور هونوريوس الذى كان فى عاصمته رافنا أنه لكى يبعد القوط الغربيين عن إيطاليا ، لا بد من أن يعطيهم إقليما من أقاليم الإمبراطورية ، فمنحهم إقليم أكويتين من اللوار حتى البرانس ، وكان هذا الإقليم فى عداد الأقاليم الضائعة على الإمبراطورية نظراً لوقوعه تحت سيطرة جموع كثيرة من الجرمان مثل : الواندال واللان والسويفى ، وهكذا دخل القوط الغربيون فى صراع مرير مع هذه العناصر حتى تمكنوا فى النهاية فى عام ٤٢٩ من تخليص المنطقة الممتدة من تولوز على نهر الجارون إلى أسبانيا واستخلاصها لأنفسهم ، وظلوا بها حتى عصر جستنيان(٣) .

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 48.

(٢) بشأن المزيد من التفاصيل انظر :

Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 116.

Lot : The End of Ancient World, p. 205.

C.M.H. Ed Bury, vol. I, pp. 260 — 279.

سعيد عاشور : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ٦٦ — ٧١ .

(٣) Lot : op. cit., p. 205

أما بالنسبة للوانـدال فتحت زعامة ملكهم جنزريك Gaiseric خرجوا من أسبانيا سنة ٤٢٩ بعد أن احتلها القوط الغربيون ، وعبروا البحر إلى شمال إفريقية حيث ساعدتهم الظروف على الاستيلاء على المنطقة من طنجة حتى طرابلس ، وتمكنوا كذلك من الاستيلاء على قرطاجة ، أهم مدينة فى الغرب بعد روما فى سنة ٤٣٩ م .

وقد عامل الوانـدال أهالى البلاد معاملة سيئة للغاية ، حتى اصبح لفظ الوانـدالية Vandalism فى اللغـات الأوروبية الحـديثة يعنى الهمجية والوحشية ، فقاموا بمصادرة ممتلكات الأهالى ، وصادر جنزريك كذلك — وهو الملك الأريوسى — ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال إفريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك ، كما لجأ إلى العنف والقسوة لجمع الضرائب من الأهالى ، مما جعل الإستياء عاماً بينهم ضد هؤلاء الوانـدال الكفرة(١) .

ولم يقنع الوانـدال بما سيطروا عليه من مناطق فى شمال إفريقية ، وإنما أنشأوا لأنفسهم أسطولا بحرياً ، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى أصبحوا أعظم قوة بحرية فى غرب البحر الأبيض المتوسط وأخذوا فى الإغارة على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية(٢) .

وفيما يتعلق بالقوط الشرقيين فقد ظلوا مقيمين فى جنوب روسيا وخضعوا للهون قرابة سبع وسبعين سنة ، حتى توفى آتيلا زعيم الهون فى

---

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 7 — 9.

(2) C. M. H., ed. Bury, vol. I, pp. 306 — 308,

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣١ .

سنة ٤٥٣ وانهارت امبراطوريته ، فتحرر القوط الشرقيون من سيطرة الهون ، وأخذوا يتجولون فى منطقة البلقان تحت قيادة زعيمهم ثيودريك Theodoric وبعد أن سببوا مضايقات كثيرة ومتاعب جمة للإمبراطورية الشرقية ، وجد الإمبراطور زينو Zeno أن خير وسيلة للتخلص منهم هي أن يمنحهم إيطاليا ، التى كان يسيطر عليها Odoacer أدواكر(١) زعيم إحدى القبائل الجرمانية ؛ وكان قد تم له إسقاط الإمبراطورية الغربية فى عام ٤٧٦ م حين عزل آخر الأباطرة الرومان ويدعى رومولوس أجوسطولوس Romulus Augustulus ونفاه إلى جنوب إيطاليا ، وخصص له معاش كاف ، وحكم إيطاليا كنائب عن الإمبراطور الشرقى زينو . واتخذ لقب « سيد الجند فى إيطاليا » . . Magister militum per Italiam (٢) .

وهكذا اتجه القوط الشرقيون فى سنة ٤٨٩ م ، إلى إيطاليا ، حيث نازلوا أدواكر Odoacer ، وأنزلوا به عدة هزائم . وحاصروه فى رافنا . ثم اقتحموها وقتلوه سنة ٤٩٣ م ، وحكم ثيودريك زعيم القوط الشرقيين إيطاليا باسم الإمبراطور البيزنطى(٣) .

---

(١) يقول الدكتور نبيه عاقل فى كتابه «الإمبراطورية البيزنطية» صفحة ٣٤ :
«وشهد حكم زينو تداعي وسقوط الجزء الغربي من الإمبراطورية . ففي الوقت الذى عاد فيه إلى العرش بعد مؤامرة إقصائه أعلن إمبراطور الجزء الغربى وكان اسمه أدواكر أنه يتنازل عن كرسيه ويعتبر نفسه تابعاً لإمبراطور الجزء الشرقي» .
ولكن هذا غير صحيح ، فأدواكر لم يكن إمبراطوراً رومانياً ، ولكنه كان زعيم أحد جموع البرابرة الجرمان ، كما أنه لم يحكم الجزء الغربى كله ، وإنما اقتصر حكمه على إيطاليا فقط .
= انظر المراجع التالية :
Bury : History of the Later Roman Empire, vol. I, p. 40 6.
C.M.H. ed. Bury, vol. I, pp. 430 — 433.

(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 62.

(3) Ostrogorsky : op. cit., pp. 62 — 63.
Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

وكان ثيودريك يحكم إيطاليا كأنه حاكماً رومانياً ، وليس زعيماً بربرياً ، واتخذ رافنا عاصمة لمملكته فى إيطاليا ، وبفضله تمتعت إيطاليا بفترة سلام امتدت لمدة ست وثلاثين سنة ، فوسع حدودها ، وشمل مجلس الشيوخ الرومانى برعايته واحترامه ، ولم يصدر تشريعاً أو يسك عملة إلا وعليها إسم الإمبراطور البيزنطى ، كما أنه وهو الملك الأريوسى لم يسىء إلى الأوضاع الدينية فى روما ، أما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فإن ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الإيطاليين الأكفاء لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء ، وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الإمبراطورية الرومانية فى سالف مجدها . ولكن رغم كل جهود ثيودريك إلا أن الاختلاف فى المذهب ظل يحول دون حسن التفاهم بين الإيطاليين والقوط الشرقيين(١) .

وهكذا نجح البرابرة الجرمان فى تأسيس ممالك لهم على أنقاض الإمبراطورية الغربية ، وعند اعتلاء جستنيان للعرش كان هناك مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا ، والقوط الشرقيون يحكمون فى إيطاليا ، والوندال يسيطرون على شمال إفريقية . ومملكة الفرنجة فى غالة ، فى حين تغلب الإنجلز والسكسون على بريطانيا(٢) .

---

(1) Lot : op. it. p. 241.

فيشر : جـ ١ ، ص ص ٣٤ — ٣٦ .
سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٨٦ — ٨٨ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن الفرنجة والإنجلز والسكسون ، انظر :
سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٧٨ — ٨٥ — ٨٩ — ٩٢ .
فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٣٨ — ٤٢ .
Hodgkin : The History of England, pp. 72 — 73, 108, 195 — 209.
C.M.H. ed Bury, vol. I, pp. 398 — 381. Vol. 3, p. 540.

وقد بدأ جستنيان بالوندال فى شمال إفريقية ، والواقع أن إرسال حملة ضد الواندال لم يكن بالأمر البسيط ، وذلك لبعد المسافة ، إذ كان لزاماً على الإمبراطور أن ينقل جيشه الضخم عن طريق البحر . والمعروف عن الواندال أنهم يمثلون قوة حربية خطيرة وذلك لبراعتهم فى فنون القتال البحرى وامتلاكهم لأسطول قوى ، ولذلك كان جستنيان متردداً فى إرساله لهذه الحملة وقد أوضح بروكوبيوس فى كتابه عن حرب الواندال De Bello Vandalico أن الإمبراطور عقد اجتماعاً بالقصر الإمبراطورى ، وناقش مع مستشاريه مسألة الحملة ضد الواندال . وقد أوضح له هؤلاء المستشارون مخاوفهم وشكوكهم فى نجاح الحملة التى كانت فى رأيهم تمثل مخاطرة كبيرة ، ورغم هذا كله فقد كانت رغبة الإمبراطور جستنيان فى استرجاع أملاك الإمبراطورية الرومانية ، أقوى من كل المخاوف وكل الشكوك ، فأصر على إرسال هذه الحملة(١) .

وربما شجع جستنيان على إرسال هذه الحملة ، إدراكه أن الواندال قد فقدوا ما عرف عنهم من العنف نظراً لتأثرهم بالحضارة الرومانية ، كذلك لاختلاف المناخ الذى عاشوا فيه فى شمال إفريقية عن مناخ بلادهم فى شمال أوروبا . يضاف لذلك تشجيع اللاجئين من رجال الدين الذين فروا من وجه الواندال ، والذين أكدوا لجستنيان أن حملته ستلقى كل ترحيب وتعاون من جانب الأهالى فى شمال إفريقية ، نظراً لكراهيتهم للواندال الذين يختلفون معهم فى المذهب(٢) .

---

(1) Procopius : De Bello Vandalico, English Trans. by Dewing, vol. II, pp. 90 — 101.
(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 135 — 136.

وكان جستنيان يدرك طبيعة العداء بين الممالك الجرمانية . هذا العداء الذى لن يتيح لها الإتحاد سوياً لمقاومته ، فقد كان الواندال على علاقات سيئة مع القوط الشرقيين فى إيطاليا . وكان القوط الشرقيون فى حالة نزاع مع دولة الفرنجة فى غالة . كما أن بعد المسافة بين القوط الغربيين فى أسبانيا وباقى ممالك الجرمان . لن يتيح لهم القيام بدور فعال فى الحرب بينهم وبين جيوش جستنيان ، وبالتالى تتمكن هذه الجيوش من القضاء على كل عدو على حدة(١) .

وفى يونية سنة ٥٣٣ م ، خرجت الحملة المكونة من ١٥ ألف جندى تقلهم اثنتان وتسعون سفينة حربية (درومونة) ، وكان على رأسى تلك الحملة القائد بليزاريوس ، وفى سبتمبر من نفس العام وصل بليزاريوس بحملته أمام قرطاجة عاصمة الواندال ، حيث دخل فى معركتين مع جليمار ملك الواندال أحرز فيهما انتصاراً حاسماً ، ودخل قرطاجة حيث قوبل بالترحاب الحار من الأهالى . وهكذا قضى على الواندال ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وعاد بليزاريوس إلى القسطنطينية ، وصحب معه ملك الواندال أسيراً . وفى العاصمة البيزنطية تم الاحتفال بهذا الانتصار ، وعين جستنيان أحد القادة البيزنطيين ويدعى سلومون Solomon حاكماً على شمال إفريقية ، ولكن هذا الحاكم لقى مقاومة شديدة للنفوذ البيزنطى من قبائل البربر مما تطلب منه أن يخوض نضالا مريراً ضدهم انتهى بقتله على أيديهم . واستمرت الحرب مشتعلة بين البيزنطيين والبربر مدة طويلة ، حتى تم للقائد البيزنطى يوحنا ترجليت John Triglite أن يقضى على مقاومة البربر ، وأن يوطد

(1) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 135 — 136.

النفوذ البيزنطي هناك ، وكان ذلك في عام ٥٤٨ م(١) .

وهكذا تم لجستنيان استعادة إقليم من الأقاليم التي احتلها البرابرة الجرمان ، كذلك تمكن من استعادة جزر البليار وسردينيا وكورسيكا ، وكان لهذا صداه الطيب في نفسه . مما جعله يعلن في فخر واعتزاز : « أن الله جلت قدرته تداركنا برحمته ، فلم يرجع إلينا فحسب إفريقية وأقاليمها ، بل أعاد إلينا أيضاً عباءتنا الإمبراطورية التي أخذها الواندال حينما استولوا على روما »(٢) .

بعد ذلك اتجهت أنظار جستنيان صوب إيطاليا التي كان يحكمها القوط الشرقيون ، وقد استغل جستنيان الخلافات والصراع الداخلي بين القوط ليتدخل ويستعيد هذه الولاية . فبعد وفاة ثيودريك في عام ٥٢٦ م خلفه حفيده أثالاريك .. Athalaric وتولت أمه آمالاسونثا Amalasuntha تصريف شئون الحكم كوصية على ابنها . وكانت هذه الوصية مثل أبيها ثيودريك من المعجبين بالحضارة البيزنطية ، وحرصت على إقامة علاقات طيبة مع بيزنطة . ولكن هذا لم يعجب زعماء القوط الذين لم يلبثوا أن قتلوا آمالاسونثا ، وبذلك هيأوا الفرصة لجستنيان للتدخل ، فأرسل جيشاً إلى إيطاليا اتخذ طريق دالماشيا ، بينما أرسل أسطولا بقيادة بليزاريوس ، نزل بصقلية أولا واستولى عليها دون مقاومة تذكر ، في نفس الوقت أرسلت سفارة إلى مملكة الفرنجة في غالة (فرنسا) لكسب ودها لضمان عدم مساعدتها للقوط .

---

(1) Vasiliev : op. cit., p. 136.
Barker : op. cit., pp. 139 — 145.
Bury : History of the later Roman Emipire, vol 2, pp. 125 — 150.

(٢) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 136.

بعد استيلاء بلبزاريوس على صقلية ، اتجه إلى إيطاليا حيث تم له الإستيلاء على نابولى ، ثم دخل روما ولكنه تعرض داخلها لحصار شديد من جانب القوط ، وتمكن من اختراق هذا الحصار بصعوبة شديدة ، ثم إتجه شمالا إلى رافنا عاصمة القوط فاستولى عليها وهزم ملكهم الذى يدعى فيتيجس Vitiges وكان ذلك فى سنة ٥٤٠ م ؛ وأرسله بلبزاريوس أسيراً إلى القسطنطينية .

لكن كثيراً من القوط لم يستسلموا ، وأعلنوا أحدهم ويدعى ILdidad ملكاً عليهم ، ولم يلبث إلا قليلا فى الحكم وخلفه Eraric ، وبعد فترة قصيرة من حكمه أعلنوا توتيلا Totila ملكاً عليهم فى خريف عام ٥٤١ م .

وقد قام توتيلا بطرد القادة الإمبراطوريين ، وسقطت مدينة تلو الأخرى فى يده ، مما تطلب أن يعيد الامبراطور جستنيان إرسال بلبزاريوس إلى إيطاليا ، لكنه لم ينجح هذه المرة فى معالجة الموقف ، ولما تعددت هزائمه أمام القوط ، استدعى إلى القسطنطينية وأرسل نارسيس بدلا منه ، وقد تمكن هذا القائد الماهر من إنزال الهزيمة الساحقة بجيش توتيلا فى معركة Busta gallorum فى أمبريا Umbria وبعدها تمكن توتيلا من الفرار ، وفى عام ٥٥٤ م أى بعد عشرين عاماً من الحروب المخربة أعيدت إيطاليا وصقلية ودالماشيا من جديد إلى الإمبراطورية البيزنطية(١) .

وبقى أمام جستنيان القوط الغربيون فى أسبانيا ، فاستغل ما ثار بينهم

---

(١) بشأن الحرب ضد القوط الشرقيين أنظر :

Procopius : Bellum Gothicum, I, pp. 1 — 10.

Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 145 — 184.

Bury : op. cit, vol 2, pp. 151 — 286.

من صراع داخلي حول العرش . وأرسل أسطولا بحرياً فى عام ٥٥٠ م ، فنازل القوط وانتصر عليهم . واستولت القوات البيزنطية على العديد من المدن والحصون البحرية . وانتهى الأمر بخضوع الجزء الجنوبى الشرقى من أسبانيا ، بما فى ذلك قرطاجنة ومالطة وقرطبة . وهكذا امتدت الممتلكات البيزنطية من سانت فنسنت St. Vincent غرباً إلى قرطاجنة شرقاً(١) .

وقد كان من نتيجة هذه الحروب أن اتسعت رقعة إمبراطورية جستنيان ، وأصبحت تضم دالماشيا ، وإيطاليا ، والجزء الشرقى من شمال إفريقيا ، وجنوب شرقى أسبانيا ، وجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا والبليار . وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية من جبل طارق حتى نهر الفرات . ولكن رغم ذلك ، فإن جستنيان لم يتمكن من استعادة جميع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فما زال خارج سلطانه الجزء الغربى من شمال إفريقية ، ومعظم شبه جزيرة إيبيريا ، والأجزاء الشمالية من مملكة القوط الشرقيين – شمال جبال الألب – وكذلك لم يستطع الاستيلاء على غالة وبريطانيا(٢) .

وإذا كان جستنيان قد تمكن من إحراز هذه الإنتصارات فى الغرب ، إلا أن الموقف فى الشرق كان مختلفاً ، حيث اشتعلت الحرب بينه وبين الفرس .

Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 136 — 137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 — 71

(1) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 137 — 138.
Ostrogorsky : op. cit., p. 71., Bury: op. cit. vol 2. pp. 286 — 288

(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 138
Ostrogorsky : op. cit. p 71

أنظر كذلك الخريطة رقم (١)

ففي عام ٥٢٧ م حينما اعتلى جستنيان العرش هاجمت جيوش قباد الأول Kavadh I ملك فارس الأراضي البيزنطية ، واشتبكت قواته مع الجيوش الإمبراطورية بقيادة بليزاريوس الذي أحرز الانتصار على الفرس عند دارا في ٥٣٠ ، وانتصار آخر في عام ٥٣١ عند الفرات في كلينيكوم Callinicum وردهم عن غزو شمال سورية .

ثم توفي قباد في ٥٣٢ ، فعرض ابنه وخليفته كسرى الأول أنوشروان Khosrau I — الذي يعد من أشهر ملوك آل ساسان — الصلح على جستنيان ، فوافق على الفور نظراً لما كان يدور بذهنه آنذاك من مشروعات لاستعادة أقاليم الإمبراطورية في الغرب ، وأبرمت الإتفاقية في عام ٥٣٣ ، وكانت في صالح البيزنطيين الذين لم يفقدوا أية ممتلكات .

على أنه أثناء انشغال جستنيان بالحرب مع القوط الشرقيين في إيطاليا ، أرسل هؤلاء وفداً إلى الملك الفارسي كسرى أنوشروان يحثونه على قتال البيزنطيين(١) ، وذلك حتى يفتح الفرس جبهة قتال ثانية أمام البيزنطيين يكون لها أثرها في تخفيف وطأة القتال عليهم . فاستجاب لهم كسرى ، وخرج على رأس جيوش كثيفة وأغار على سورية ، واحتل إقليم الفرات ونهب وسبى ، ثم اتجه إلى منبج في شمال سورية ففاوضه أهلها ، واشتروا منه الأمان بألف دينار فضة ، وتقدم بعد ذلك إلى أنطاكية التي كانت تمتاز بمناعتها الطبيعية لما يحيط بها من صخور ، فضلا عن الحصون التي أنشئت حولها ، وقاوم الأهالي بها جيوش الفرس ، ولكن كسرى اهتدى إلى ثغرة في سورها دخل عن طريقها المدينة واستباحها . ومنها انتقل إلى

(1) Procopius : Bellum Gothicum, pp. 1 — 4.

سلوقية ، حيث ذبح عند شاطئها ضحية للشمس ، ومنها إلى أفامية فدخلها ونهب دورها وكنائسها .

ولم يجد الإمبراطور مفراً — والأمر كذلك — من أن يفاوض كسرى ، فعرض عليه الكف عن القتال مقابل دفع الجزية السنوية ، فقبل كسرى وعاد إلى بلاده ومعه آلاف من الأسرى بنى لهم مدينة خاصة أطلق عليها اسم أنطاكية كسرى(١) .

وفى سنة ٥٤١ هاجم كسرى إقليم لازيقا على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، وفى سنوات ٥٤٢ ، ٥٤٤ هاجم البلاد البيزنطية وأحرق وخرب وسلب ، وأنفذ جستنيان حملة فى ٥٤٣ من ثلاثين ألف جندى لمهاجمة البلاد الفارسية فى أرمينية ، ولكن الحملة منيت بالفشل ، وقد أدرك الطرفان المتحاربان صعوبة القتال فى بلاد القوقاز نظراً لطبيعة هذه البلاد الجبلية ووعورة مسالكها ، فتهادنا فى سنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين .

وفى سنة ٥٦١ م أبرمت هدنة بينهما لمدة خمسين سنة مقابل تعهد البيزنطيين بدفع الجزية السنوية لملك فارس ، وأن تجلوا القوات الفارسية عن لازيقا وتسلمها للبيزنطيين ، وبذلك لم يعد للفرس ممتلكات على ساحل البحر الأسود ، وتعهد ملك فارس باتباع سياسة التسامح مع المسيحيين فى بلاده بشرط أن يمتنعوا عن التبشير بالمسيحية بين أهالى هذه البلاد(٢) .

---

(1) Procopius : Bello Persico, II, pp. 8 — 11.

(2) Barker : op. cit., pp. 112 — 124
Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 138 — 139.
Ostrogorsky : op. cit., p.
أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٨٥ — ١٨٦ — ١٨٨ — ١٩٠ .

أما على الجبهة الشمالية ، فقد تعرضت الإمبراطورية لهجمات متتالية من عناصر مختلفة من البرابرة . وقد أثبتت الأحداث أن نهر الدانوب لم يكن عائقاً أمام تقدم الأعداء ، فإن الدانوب الأدنى كان بالقرب من سهل يعتبر من قديم الزمان ممراً للمهاجمين البدو القادمين من آسيا . وفي منطقة البلقان كان الطريق مفتوحاً أمام المهاجمين البرابرة للتوغل في أقاليم الإمبراطورية والوصول للقسطنطينية ذاتها(١) .

ومنذ زمن الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١ — ٥١٨) والجبهة البلقانية تتعرض من آن لآخر لهجمات عناصر البلغار والسلاف ، وفي عصر جستنيان عبرت الدانوب أعداد كبيرة من هذه العناصر وتوغلوا في الأقاليم البيزنطية مخربين كل ما يصادفهم ، وقد وصل فريق منهم إلى العاصمة القسطنطينية وإلى الهلسبونت ، والفريق الآخر توغلوا في بلاد اليونان ، ووصلوا حتى خليج كورنثة وسواحل البحر الأدرياتيكي في الغرب وقد قام السلاف بمحاولة للوصول لسواحل البحر الإيجي ، وفي أثناء محاولتهم هذه اجتاحوا في طريقهم مدينة سالونيك ، التي تعتبر من أهم المدن في الإمبراطورية ، وقد اشتبكت الجيوش البيزنطية معهم واضطرتهم للارتداد إلى ما وراء نهر الدانوب ، ورغم هذا إلا أن بعضاً منهم قد استقر في هذه المنطقة ، ولم تتمكن جهود جستنيان العسكرية ضدهم من زحزحتهم عن هذه المناطق(٢) .

---

(1) Obolensky, D. : The Empire and Its Northern Neighbours, C. M. H. vol. Iv, part. I, pp. 475 — 476.
Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 — 717), C.M.H. vol. IV, part. I, p. 29.

(2) Bury : op. cit., vol 2, p. 298 — 304.
Vasiliev : op. cit., vol I, p. 140.

وإلى جانب السلاف ظهرت عناصر أخرى مثل الجرمان Germans ، والجبيد Gepids ، والكوتريجور Kotrigurs وهم فرع من الهون ، هاجموا شبه جزيرة البلقان من الشمال . وفى شتاء ٥٥٨ – ٥٥٩ م ، قام الكوتريجور تحت قيادة زعيمهم الذى يدعى Zabergan بمهاجمة إقليم تراقيا ، وهناك تفرعوا إلى ثلاث فرق : واحدة ذهبت لتخريب بلاد اليونان ، والأخرى لنهب بعض المدن فى تراقيا ، أما الثالثة فتحت قيادة زعيمهم نفسه وصلت إلى القسطنطينية لمهاجمتها .

وقد عانت المناطق التى تعرضت لهذا الهجوم الكثير وأرسلت كنائسها كنوزها ونفائسها إلى العاصمة أو إلى الكنائس الأخرى على الشاطىء الآسيوى للبوسفور ، واستدعى جستنيان قائده بلزاريوس الذى تمكن من إلحاق الهزيمة بهذه الفرق الثلاث ، ولكن رغم ذلك فإن أقاليم تراقيا ومقدونيا وتساليا قد لقيت الكثير من التخريب وما ترتب على ذلك من مشاكل إقتصادية(١) .

---

(١) أنظر تفاصيل هجمات هذه العناصر على بلاد الامبراطورية فى البلقان فى المصدر التالى :
Agathias : Historiae, Ed. Nieluhr, 1828, pp. 331 — 333.

راجع كذلك

Bury : op cit, vol 2, pp. 30 — 308.
Vasiliev ' op. cit. I, p. 140



الفصل الثالث

الإدارة والتجارة فى عصر جستنيان

- اهتمام جستنيان بالنواحى الإدارية .
- جهود جستنيان لتبسيط النظم الإدارية .
- كبار الملاك وخطرهم على الحكومة .
- موقع القسطنطينية كوسيط تجارى بين الشرق والغرب .
- مشكلة استيراد الحرير من الصين وكيفية التغلب عليها .
- أهم صادرات الإمبراطورية فى عصر جستنيان .



لقد أولى جستنيان اهتماماً كبيراً للنواحي الإدارية فى الإمبراطورية . وكان يرى أن عليه أن يقوم بإصلاحات إدارية ضخمة . لأنها من واجبات الإمبراطور تجاه الرعية من جهة ، ومن جهة أخرى للتقرب من الله الذى حباه بفضله وعطفه .

وقد رأى جستنيان أن واجب الموظفين الإداريين ودافعى الضرائب يتمثل فى أنه ينبغى أن يكون الموظفون أمناء . تعف أيديهم عن تناول الرشوة

وأن يراعوا دخل الحكومة . ويعملوا على زيادة هذا الدخل . أما واجب دافعى الضرائب فهو أن يؤدوا ما هو مقرر عليهم من ضرائب كاملة ، عن طيب خاطر وبانتظام . وهكذا أصبح جستنيان حامياً لحقوق الخزينة الإمبراطورية ، وفى نفس الوقت المدافع عن رعاياه ضد ظلم الموظفين وابتزازهم أموالهم .

وقد حرص على أن يضمن مرسوماته هذه المبادىء الأساسية التى قامت عليها إصلاحاته الإدارية(١) .

وقد وضع جستنيان على رأس الجهاز الإدارى ، يوحنا القبدوقى John The Cappadocian الذى عمل على توفير المال اللازم لجستنيان لتنفيذ مشروعاته الواسعة ، فاستحدث ضرائب جديدة منها على سبيل المثال الضريبة المسماة أيريكون Aerikon ، والتى جلبت لخزينة الإمبراطورية ثلاثة آلاف رطل من الذهب(٢) . وقد أثار تفنن يوحنا القبدوقى فى

---

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire. vol. I. p. 159

(2) Runciman The Byzantine Civilisation p 98

ابتداع هذه الضرائب بغض الجماهير واستياءها ، بعد أن فاقت الضرائب المفروضة عليهم كل احتمال ، وكان أن ضاق به صدر الإمبراطورة ثيودورا فعزلته عن منصبه نهائياً وكان ذلك فى عام ٥٤١ م(١) ، كما سبق أن ذكرنا .

وقد عمل جستنيان على تبسيط الأمور الإدارية عن ذى قبل . فقد كان الإمبراطور قسطنطين الأكبر قد قسم الولايات الكبيرة إلى ولايتين أو أكثر ، وفصل السلطة الإدارية عن السلطة العسكرية فى كل ولاية ليتجنب حركات التمرد التى قد يقوم بها من يجمع فى يده السلطتين . لكن جستنيان قرر الجمع بين السلطتين الإدارية والعسكرية فى يد حاكم الولاية ، كما قلل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد فى رواتبهم حتى يكون ذلك دافعاً لهم على إتقان عملهم ، كما أنعم بلقب جستنيانى justiniani على حكام الولايات ليزيدهم فخراً ووقاراً(٢) .

ووجه جستنيان عناية خاصة لإدارة العاصمة ، فعين عدداً من الولاة أطلق على الواحد منهم لقب Praetorius أوكل إليهم شئون القضاء والسجون ، وفى سنة ٥٣٩ م أنشأ وظيفة Quaestor الذى كان بمثابة الوكيل العام للشعب ، فكان من اختصاصه ختم الوصايا وفضها وتولى تنفيذها والإشراف على إدارة أملاك القصر والنظر فى قضايا التزوير . كذلك كان عليه أن يجد عملا لكل عاطل قادر على العمل ، ومراقبة الذين يفدون على العاصمة من أبناء الولايات بلا موجب فيعقدون مشاكلها بتصرفاتهم(٣) .

---

(1) Runciman : op. cit., p. 38.

(٢) أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(3) Runciman : Byzantine Civilization, p. 9C.

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٧٥

وكان أخطر أعداء الدولة فى الداخل هم طبقة كبار الملاك ، الذين اغتصبوا أملاك الدولة ، وأسكتوا كل من يلومهم ببذل الأموال . وقد انصرف هؤلاء لمباشرة شئون ضياعهم وأغفلوا شأن الحكومة المركزية وأحاطوا أنفسهم بالحرس الخاص ، وتبعهم عدد كبير من الرعاع الذين لم يتورعوا عن اختلاس كل ما تصل إليه أيديهم(١) .

وكان هؤلاء الملاك الكبار بصفة خاصة فى آسيا الصغرى ومصر . وأشهرهم أسرة أبيون Apion وهى أسرة مصرية حازت قرى بأكملها فى جهات مختلفة بمصر ، وانخرط فى خدمة رب الأسرة عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع وحشود الفلاحين ، ومن يقومون بتقدير الضرائب وجبايتها ، وله شرطته الخاصة وكذلك البريد ، وله جيشاً خاصاً ، وسجوناً يلقى بها من يجترىء على سلطانه . يضاف إلى ذلك ما حازته الكنائس والأديرة من ممتلكات تمتع أصحابها بسلطان واسع .

ورأت حكومة جستنيان أن هذا كله تحدياً لسلطانها ، فقاومته مقاومة طويلة الأمد ، تذرعت أثناءها بشتى الوسائل ، كأن تتدخل فى حق الإرث . أو أن تكره بعض كبار الملاك على وقف أملاكهم على الإمبراطور ، أو أن تصادر بعض الأملاك بحجة عدم وجود الدليل على ملكيتها ، أو أن تتهم ديراً من الأديرة بالزندقة وتصادر ممتلكاته وتحولها إلى الدولة ، ورغم ذلك كله فلم يتمكن جستنيان من القضاء على هذه الطبقة(٢) .

---

(1) Vasiliev : History of The Byzantine Empire, vol. I, p. 158.
(2) Boak : Byzantine Imperialism, in Egypt Amercan Historical Review. XXXIV, 1928, p.6.

وقد بذل جستنيان جهوداً كبيرة من أجل المحافظة على الطرق والجسور ، وتوفير المياه والمحافظة على الأسوار ، وقد حث ولاته دائماً على الاهتمام بهذه الأمور . وقد أنشئت مدن جديدة فى أنحاء متفرقة اتخذت اسم «جستنيانة» نسبة للإمبراطور . ولم يدخر جستنيان جهداً فى بناء الحمامات ودور اللهو والساحات العامة . وبناء على رغبة ثيودورا أعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المغامرين وسيئى السلوك ، واهتمت ثيودورا بأمر الساقطات فجعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتائبات منهن أسمته «دير التوبة» ، كما اهتمت كذلك بإقامة المستشفيات للمرضى وأماكن الراحة للمسافرين (١) .

= Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 158.

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٧٢ — ١٧٣ .

العرينى : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٧٢ — ٧٤ .

(١) أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٧٥ — ١٧٦ .

التجـــــــــارة

يقول المؤرخ رانسيمان : إن القرن السادس يعتبر من أعظم عهود تجارة الشرق(١) .

ولا شك أن ذلك يرجع لجهود جستنيان فى ميدان التجارة من ناحية ، ولموقع القسطنطينية من الناحية الأخرى . فقد كان موقع هذه المدينة منذ إنشائها على يد الإمبراطور قسطنطين وحتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية ، موقعاً تجارياً فريداً ، فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى آسيا وأوروبا ، والمعروف أنه يفصل أوروبا عن جنوب غربى آسيا ، متسعان من الماء هما : البحر الأسود وبحر إيجة . على أن تراقيا تبرز بين البحرين لتلتقى بآسيا الصغرى لا يفصل بينهما سوى مضيقان هما : البوسفور والهلسبونت (الدردنيل) وبينهما بحر مرمرة المغلق الذى تحوطه الأرض من جميع الجهات . وقد أتاح هذا الموقع الفريد لبيزنطة التحكم فى حركة التجارة المتنقلة بين البحر الأسود وبحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط . كذلك التجارة بين أوروبا وآسيا الصغرى(٢) .

وكان موقع القسطنطينية هذا يعود عليها بالثراء والرخاء . ذلك أن نسبة تعادل عشرة فى المائة من ثمن البضائع كانت تفرض كرسوم على جميع الصادرات والواردات ، وكانت ضريبة الصادرات تدفع فى القسطنطينية ،

---

(1) Runciman : Byzantine Civilisation, p. 164.

(2) Runciman : pp. 11 — 12.
Moss, H. : The Formation of the East Roman Empire, (330 — 717,) C.M.H. vol.IV, part,1,0,p. 41.

أما الرسوم على الواردات فكانت تجمع عند أبيدوس على مضيق الهللسبونت ، أو عند هيرون على مضيق البوسفور . ولم يكن يجوز لأية سفينة أن تعبر المضايق دون دفع الرسوم المستحقة عليها ، وكان ذلك يمد الخزينة الإمبراطورية بفيض من الثروة(١) .

ولم تكن حركة العبور التجارى لبلاد الغرب الفقيرة هى التى تستفيد منها الإمبراطورية بدرجة كبيرة ، ولكن تجارتها مع الشرق ، مع الصين والهند هى التى كان لها الاعتبار الأول والأهم . وكانت صادرات الإمبراطورية من البضائع والكماليات الغالية الثمن من مصانعها فى سورية ، وكانت الصادرات لا تتوازن مع الواردات من بلاد الشرق وخاصة الحرير ، الذى إزداد الإقبال عليه بصورة مضطردة مع إزدياد أسباب الترف ، وأصبح لبس ثياب الحرير الخالص فى هذا العصر مألوفاً فى الحياة المنزلية ، كما أخذت الكنيسة ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة لاستعمالها فى ملابس رجال الدين والستر والأغطية وتزيين المذابح ، بعد أن كانت ترفض فى أول الأمر استخدام الحرير فى الأغراض الدينية ، كذلك احتكرت الدولة صنع أشكال معينه من ثياب الحرير كانت تلبس فى مراسم البلاط(٢) .

على أن الإمبراطورية البيزنطية كابدت الكثير فى سبيل نقل الحرير من الصين ، حيث إن الطريق البرى إلى الصين كان يمر عبر الأراضى الفارسية . كما أن الطريق البحرى عبر المحيط الهندى كان يسيطر عليه كذلك التجار

---

(1) Runciman : Byzantine Civilisation, p. 170.
Bury : Eastern Roman Empire, pp. 217 — 219.

(2) Ostrgorsky : History of the Byzantine State, p. 74.
بيبز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٧٦ .

الفرس الذين يبحرون من الخليج الفارسى إلى سيلان حيث تتجمع البضائع الآتية من الصين . لذلك كان نشاط الحركة التجارية بين الإمبراطورية البيزنطية والصين أو كساد هذه الحركة يتوقف على العلاقات مع فارس ، حتى إن تجارة الحرير كانت تتوقف تماماً فى فترات الحرب بين الطرفين(١) .

لذلك حاول جستنيان أن يستبدل هذا الطريق بطريق آخر غير مباشر عبر إقليمى لازيقا والقوقاز . حيث إرتبطت بيزنطة بعلاقات طيبة مع شعوب السهول فى شمال البحر الأسود . لذلك أجرت بيزنطة اتصالات مع الأتراك الذين كانوا يسيطرون على منطقة شمال القوقاز والذين عانوا هم الآخرون من جراء سيطرة الفرس على تجارة الحرير . كما حاول جستنيان كذلك استخدام طريق البحر الأحمر للوصول إلى الهند ، ومن أجل ذلك أقام علاقات ودية مع المملكة الأثيوبية Axum .

لكن هذين الطريقين لم يقدر لها النجاح ، إذ أن الطريق البرى عبر وسط آسيا كان طريقاً صعباً وخطراً . وبالنسبة للطريق البحرى ، لم يتمكن لا التجار الأثيوبيون ولا التجار البيزنطيون من كسر سيطرة الفرس على المحيط الهندى . وظل الفرس يتحكمون فى طريق التجارة إلى الصين ويسيطرون عليه (٢) .

على أية حال ، فقد انتهت متاعب بيزنطة بالنسبة لحصولها على الحرير ، بعد اكتشافها لسر دودة القز فى حوالى ٥٥٢ أو سنة ٥٥٤ ، حين وصل

---

(1) Ostrogorsky . p. 74.

(2) Ostrogorsky pp. 74-75.

إلى القسطنطينية راهبان نسطوريان يحملان فى عكازيهما دودة القز وبيضها ، وبدأت أشجار التوت تزرع فى سورية ، ونمت صناعة الحرير سريعاً ، وتركزت مصانعه فى القسطنطينية وأنطاكية وبيروت . وكانت هذه البضائع إحتكاراً للإمبراطورية واستخدمت بها الآلاف من العمال . ورغم أن الطريق بين بيزنطة والصين أصبح ميسراً بعد عقد الصلح مع الفرس إلا أن بيزنطة أصبحت فى حالة اكتفاء ذاتى(١) .

وقد ترتب على استرجاع جستنيان لولاية شمال إفريقية سنة ٥٣٤ م انتعاش كبير فى تجارتها ، وبذل هذا الإمبراطور جهده فى سبيل تشجيع التجارة بين موانيه الشرقية وبلاد شمال إفريقية وإيطاليا . وكانت سورية — التى تعتبر من أخصب بلاد العالم آنذاك — تصدر الحرير والخمور من غزة وعسقلان ، والزجاج من صيدا ، وبضائع أخرى متقنة الصنع من صور وبيروت . أما مصر ، فكانت تصدر ورق البردى والبهارات التى تصلها من بلاد الشرق الأقصى (٢) .

وهكذا نهض جستنيان بالتجارة نهضة كبرى كان لها أثرها فى الانتعاش الإقتصادى الذى تمتعت به الإمبراطورية وعلى الأخص فى الفترة المبكرة من عصر هذا الإمبراطور .

---

(١) Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 330.

بينز : الأمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٧٧ — ٢٧٨

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) بينز : الأمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٨٣

الفصل الرابع

جستنيان والاستبداد القيصرى البابوى

- جستنيان إمبراطوراً وبابا .
- محاولة التوفيق بين السلطتين الزمنية والروحية .
- أولوية كنيسة روما على باقى الكنائس بالإمبراطورية .
- الخلاف بين أصحاب مذهبى الطبيعة الواحدة والطبيعتين .
- اهتمام جستنيان بتشييد الكنائس .



إذا استعرضنا تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة نجد أن عصر جستنيان يمثل ذروة تدخل النفوذ الإمبراطورى فى شئون الكنيسة ، وليس هناك إمبراطور من الذين سبقوه أو جاءوا بعده — كما يقول المؤرخ استروجورسكى — كان له مثل سلطته المطلقة على الكنيسة(١) .

فقد كان جستنيان الحاكم المسيحى المشبع بالإحساس بالمصدر الإلهى لسلطته الإمبراطورية . فهو الرجل المنتخب بفضل العناية الإلهية ليحكم المجتمع المسيحى(٢) .

وهكذا أصبح جستنيان رئيساً للدولة ورئيساً للكنيسة فى آن واحد ، وهو ما يطلق عليه اسم الاستبداد القيصرى البابوى Caesaro-Papism أى إنه إمبراطور وبابا فى نفس الوقت ، فهو يجمع فى شخصه السلطتين : الزمنية والروحية(٣) .

وكان من رأيه أن انتظام أحوال الكنيسة هو دعامة لملكه لذلك فقد ضم الكنيسة داخل إطار عمل الدولة ، والمقصود هو أنها تصبح كنيسة الدولة State Chruch ليس فقط تحت الحماية الخاصة للدولة ، بل تخضع لإدارتها ، وذلك لأن أهداف كل منهما مماثلة ، فكلاهما تستميل

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 77.

(2) Herman : The Secular Church, C.M.H. vol. IV, Part II, p. 104.
Ensslin : The Government and Administration of the Byzantine Empire, C.M.H., vol. IV, part II, p. 2.

(3) Herman : The Secular Church, p. 105.
Diehl : justinian, The Imperial Restoration in The West, in C.E.M. ed. Bury, vol 2, p. 5.

العالم من أجل المسيح ، فالعالم المسيحى Oikoumene بالنسبة له مثل إحياء السيادة الرومانية(١) Imperium Romanum .

لذلك كان جستنيان حريصاً على إقرار الوفاق بين السلطتين ، وقد أوضح هدفه هذا فى أحد قوانينه الجديدة(٢) الذى صدر فى ٩ مارس ٥٣٥ بقوله :

"Maxima quidem in hominibus sunt dona dei a Superna collata clementia sacerdotium et imperium, illud quidem divinis ministrans hoc autem humanis praesidens ac diligentiam exhibens - ex uno eodemque principio utraque procedentia humanam exornant vitam Ideoque nihil sic erit studiosum imperatoribus, sicut sacerdotum honestas, cum utique et pro illis ipsis semper deo supplicent.".

« هبات الله العظمى للرجال نتجت من كرمه المطلق ، الهيئة الكهنوتية ، والسلطة العلمانية ، الأولى تخدم المصالح الإلهية ، والثانية تخدم مصالح البشر وتسهر عليهم . كلاهما أتت من نفس المصدر لتكمل الحياة البشرية . لذلك لا شىء يسترعى اهتمام الإمبراطور أكثر من كرامة رجال الدين ، بعد هذه الصلاة المستمرة من أجلهم .

إذا كان رجال الدين وثقوا تماماً فى الله ، وإذا الإمبراطور حكم الدولة المعهود إليه بها ، بالعدل والشرف ، فإن الوفاق المتبادل ، سوف ينشأ ليؤكد وحدة المنافع للجنس البشرى . وبناء على ذلك فإن عقيدة الله الصحيحة وشرف رجال الدين ، هما فى المحل الأول من اهتمامنا » .

---

(1) Herman : The Secular Chruch, p. 104.
Ostrogorsky : p. 77.

(2) Novellae, no. 6, ed. Zachariae von Lingenthal, Jus graeco romanum.

وكان جستنيان شديد الإيمان بكنيسة واحدة جامعة . لذلك كان من البداية حريصاً على أن يوطد علاقاته بكنيسة روما . وقد اعترف جستنيان صراحة بما لكرسي روما من سلطة عليا على باقي الكنائس في إمبراطوريته ، ففي خطابه إلى البابا يوحنا الثاني ، جعل من كنيسة روما :

Caput Omnium Sanctarum ecclesiarum

« رأس كل الكنائس المقدسة » .

وفي ديباجة أحد قوانينه الجديدة(١) الذي صدر في مايو ٥٣٥ ، أفصح عن مكانة روما في نظره في الكلمات التالية : « روما القديمة تمتعت بشرف كونها أم القانون ، وبلا شك هي مقر البابا الأسمى ، لهذه الأسباب نرى كذلك أنه من الضروري أن نشرف مهد القانون ، ومنبع اللاهوت بقانون خاص بإرادتنا المقدسة » .

أما أسقف روما ، فقد أوضح جستنيان مكانته بالنسبة لباقي رجال الدين في هذا المرسوم(٢) الذي صدر في سنة ٥٤٥ وجاء به ما يلي : « نعلن أن البابا المقدس لأبرشية روما يكون له الأولوية على كل رجال الدين ، ومطرانية القسطنطينية – روما الجديدة – المباركة تكون في المرتبة الثانية بعد الإبرشية الرسولية المقدسة روما ، بأسبقيتها على كل الإبرشيات الأخرى » .

كما أوضح أن الأباطرة يجب أن يخاطبوا أسقف روما كما لو كان « أباهم الروحي » ، وكان هو يخاطب أسقف روما على أنه « البابا » و« البابا

(1) Novellae, no. 9, ed. Zachariae, Jus graeco romanum.
(2) Novellae, no. 131, ed. Zachariae, Jus graeco romanum.

البطريرك » و « الأب الرسولى » . وقد قصر لقب البابا على أسقف روما فقط(١) .

ولكن رغم هذا كله ، فلم يكن لدى جستنيان أية نية للإضرار بحقوق الإمبراطور فى حكم المجتمع المسيحى ، فقد بقى هو السيد الأعلى ، الأمر الذى منحه العديد من الامتيازات الدينية ، فهو الذى يعقد المجامع ، ويرأسها بشخصه أو عن طريق أحد نوابه ، ويشترك فيما يجرى فيها من مناقشات لاهوتية ، وهو الذى يجيز القرارات وينشرها فى شكل مرسوم رسمى ، ولديه نفوذ قوى لاختيار البطاركة ، ورؤساء الأساقفة ، والأساقفة . وهو الذى يؤلف تراتيل الكنيسة . وينشىء الإبرشيات ، ويعين فيها المطارنة ، ولكن فى الأمور الدينية البحتة ، يترك الكلمة الأخيرة لأسقف روما(٢) .

وقد ارتضى بابوات روما هذه السياسة الدينية لجستنيان ووافقوا عليها وأقام البابا فيجيليوس Vigilius صلاة الشكر للمسيح ، الذى وهب جستنيان « ليس فقط روح إمبراطورية ، ولكن إكليركية كذلك(٣) . »

ومع إعتقاد جستنيان فى هذا المبدأ ، مبدأ سمو كنيسة روما ، لم يكن غريباً أن يعمد إلى إزالة الخلاف بين كنيسة روما والكنائس الشرقية ، على أن تحقيق وحدة الكنيسة بين الغرب والشرق ، بين روما والإسكندرية وأنطاكية ، كان يعتبر أمراً مستحيلا . كما أن الخلاف حول تفسير طبيعة

---

(1) Herman : The Secular Church, p. 105.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 149.

(2) Herman : op. cit. p. 105.
Vasiliev : op. cit. p. 149.

(3) Dvornik : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, p. 437.

المسيح زاد من اتساع الفجوة بين الكنائس الشرقية والغربية ، والواقع أنه منذ القرن الخامس الميلادى ، والجدل يشتد حول مسألة الطبيعة الواحدة ، والطبيعة المزدوجة للسيد المسيح(١) .

وقد ساد مذهب الطبيعة الواحدة monophysite فى الأقاليم الشرقية ، وخاصة فى مصر والشام وفلسطين ، وكانت الإمبراطورة ثيودورا نفسها تدين بهذا المذهب ، ولذلك حظى المونوفيزتيون بتأييدها ، أما جستنيان فإنه كان يدين بمذهب الطبيعتين ، كما سبق أن ذكرنا .

وهكذا كانت الولايات الشرقية تشتمل على عدد كبير من أصحاب الطبيعة الواحدة ، وكان إرضاؤهم يغضب كنيسة روما ، وإرضاؤها يغضبهم ، ومن ثمة وجد جستنيان نفسه بين شرين ، شر الإبتعاد عن روما وعن الكنيسة الارثوذكسية ، وشر مناوأة الولايات الشرقية له واستعدادها للإنفصال عنه . وقد اعتبر المؤرخ فازيلييف أن لحكومة جستنيان وجهين : أحدهما يطل على روما يلتمس منها التوجيه ، والآخر يطل على الشرق يلتمس الحقيقة من رهبان مصر والشام(٢) .

وبتأثير من ثيودورا ، وحرصاً على كسب ولاء الولايات الشرقية حاول جستنيان جاهداً أن يمسك العصا من الوسط ، وأن يضع حلولا يرضى بها أصحاب الطبيعة الواحدة ، وفى نفس الوقت لا يحيد بها عن أرثوذكسيته . ورغم محاولات جستنيان لكسب مشاعر المونوفيزتيون . ومنحهم قدراً محموداً من التسامح ، إلا أنه فشل فى كسب ودهم وظل

(1) Bury : op. cit. vol. I, pp. 357 — 358.
فيشر : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ص ٥٦ – ٥٧ .

(2) Vasiliev : op. cit., pp. 148 — 149.

ولاؤهم نحو حكومة القسطنطينية يضعف تدريجياً ، ولا سيا فى مصر والشام ، وكان ذلك مما مهد للفتوح الإسلامية(١) .

ولحرص جستنيان على توحيد العقيدة الدينية فى إمبراطوريته ، فإنه لم يتسامح مع أصحاب الديانات الأخرى ، وتعرضوا أثناء حكمه لحركات اضطهاد عنيفة فقد اصطدم جستنيان بالوثنيين واليهود والهراطقة ، وحتى يتخلص من بقايا الوثنية قام جستنيان بإغلاق جامعة أثينا التى كان الوثنيون ينظرون إليها على أنها معقلهم الرئيسى ، والتى كانت تمثل آخر معقل للوثنية ، كما نفى عدد كبير من أساتذتها وصادر ممتلكاتهم(٢) .

وقد عنى جستنيان ببناء الكنائس فى إمبراطوريته لتمجيد العقيدة الأرثوذكسية ، ومنها كنيسة سانت فيتالى St. Vitaly برافنا ، التى زخرت بحوائط الفسيفساء البراقة ، وكنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia التى بناها لتخليد اسمه على مر العصور ، وحتى تكون مركزاً دينياً ظاهراً ، والتى تعتبر قمة فن العمارة البيزنطى . وقد بناها جستنيان فى عام ٥٣٢ م . فى القسطنطينية تحت إشراف أزيدور الملطى Asidore of Miletus وأنثيموس الترللى Anthemius of Tralles ، واستمر العمل فيها خمس سنوات ، واستعانا فى بنائها بخبرة الصناع من جميع أنحاء الإمبراطورية ، بلغ عددهم ألف صانع وانتهى بناؤها فى ٥٣٧ م ، فجاءت تحفة رائعة وخاصة قبتها التى تحدت بأسرار صنعها عباقرة المهندسين(٣) .

---

(1) Vasiliev : op. cit., pp. 150 — 151.
(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 150.
(3) Grabar, A. : Byzantine Architecture and Art, C.M.H., vol. IV. Part II, pp. 316 — 317.

راجع كذلك الصورتين رقم ٣ ، ٤ لكنيسة آيا صوفيا .

وقد أصدر جستنيان مرسوماً إمبراطورياً فى عام ٥٣٥ م حدد فيه عدد رجال الدين القائمين بالخدمة فيها وكان عددهم ٦٠ قساً ، ١٠٠ شماساً . ٤٠ رئيس شمامسة ، ٩٠ شماساً ، ١١٠ مقرئاً . ٤٠ مرتلا(١) .

Wellesz, E. : Byzantine Music and Liturgy, C.M.H., Part II, p. 141. (2)



الفصل الخامس

جستنيان المشرع الأعلى

- الدوافع التى حدت بجستنيان لإصلاحاته التشريعية .
- مجموعة قوانين جستنيان :

  الموجز .

  الشرائع .

  المتجددات .
- جامعات القانون وطرق ومناهج التدريس بها .



كان جستنيان يعتقد أن إمبراطور الدولة يحمل عبء واجباً مزدوجاً فقد كان عليه أن يكون الفاتح العسكرى ، وفى نفس الوقت المشرع الأعلى .

وقد وجد جستنيان أن الغموض والتناقض قد تسربا إلى نصوص القانون الرومانى ، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجل إلى ما لا نهاية ، وكانت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة بقدر اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية(١) .

ولم يكن هناك مفر — والحالة هذه — من القيام بعمل حصر كامل للقانون الرومانى . وقد عهد جستنيان إلى وزير القضاء تريبونيان مهمة رئاسة لجنة لجمع القوانين التى أصدرها أباطرة الرومان ، وتنسيقها وحذف المتشابه منها ، واستخلاص مجموعة قانونية واحدة ، وقد كون تريبونيان لجنة من عشرة أشخاص من المتخصصين كان من بينهم ثيوفيلوس ... Theophilus أستاذ القانون بجامعة القسطنطينية ، وقامت اللجنة بمراجعة المجموعات القانونية الثلاث السابقة :

Codex gregorianus. Codex Hermogenianus. Codex Theodosianus

واستبعدت منها كل ما هو غير مقبول ، كما قامت بتنظيم القوانين التى أصدرها الأباطرة بعد عصر ثيودوسيوس . وفى أوائل أبريل ٥٢٩ م صدرت نتائج كل هذه الأعمال فى مجموعة جستنيان . Codex justiàmus التى تألفت من عشرة كتب ، اشتملت على كل ما صدر من القوانين منذ زمن الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) إلى زمن جستنيان ، وأصبحت المجموعة الرسمية الوحيدة للقوانين بالإمبراطورية(٢) .

(١) بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٥ .

(2) Roly H. : Roman Law, in C.M.H. ed Bury vol II, p. 59.

وفى سنة ٥٣٠ م تلقى تريبونيان أو امر الإمبراطور للقيام بعمل جديد ، فألف لجنة من ستة عشر مختصاً ، كانت مهمتها مراجعة كل المؤلفات وأن تحذف ما تجده من النصوص المتناقضة أو المكررة ، وكذلك حذف المناقشات التى دارت حول بعض الموضوعات ، ثم تقوم بترتيب ما جرى جمعه من المواد القانونية وفقاً لنظام معين .

وقد استلزم الاضطلاع بهذه المهمة أن تقوم اللجنة بقراءة ألفى كتاب اشتملت على ثلاثة ملايين من السطور وتلخيصها . ولم تكن هذه المهمة الضخمة كما رآها جستنيان نفسه ، إلا ضرباً من المستحيل لا يتحقق إلا بعون من الله . وقد قدر لإتمام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه فى الحقيقة تم فى حوالى ثلاث سنوات فقط ، ونشر فى ديسمبر عام ٥٣٣ ، وهذه المجموعة الجديدة انقسمت إلى خمسين كتاباً شملت ١٥٠,٠٠٠ سطراً ، واتخذت اسم الموجز Digestum أو Pendectae ، ووصفها جستنيان بقوله إنها « معبد مقدس للعدالة الرومانية »(١) .

على أنه نتيجة للسرعة التى اقترنت بهذا العمل ، أن جاءت هذه المجموعة خالية من الوحدة والترابط ، كما أن التفويض الذى حصلت عليه اللجنة باختصار النصوص وتفسيرها ، واستخلاص نص واحد من نصوص عديدة ، كل ذلك أدى فى بعض الأحيان إلى بتر النصوص القديمة . ورغم ذلك فإن لهذه المجموعة أهمية عظيمة القيمة ، إذ حفظت للأجيال التالية من المواد

= Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 143.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 75.
Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 396.

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 144.
بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٧ .

المستمدة من القانون الرومانى ما لم يكن معروفاً(١) .

وقد أدرك جستنيان أنه ليس بوسع كل الناس أن يستوعبوا هذه المادة الضخمة من المعلومات التى يمثلها القانون والموجز ، فليس بوسع كل الشباب المبتدىء فى دراسة القانون أن يلموا بمحتويات هذين المصنفين الضخمين ، لذلك قام تريبونيان ومساعداه ثيوفيلوس ودروثيوس Drothius الأستاذ بجامعة بيروت ، بإعداد ملخص فى القانون المدنى صدر فى عام ٥٣٣م ، وهو يشتمل على أربعة كتب معروفة باسم الشرائع Institutiones (٢) وفى المرسوم الإمبراطورى الذى صدر بخصوص هذه الشرائع كتب الإمبراطور أنه يقدمها «للشباب المتلهف على معرفة القانون» Cupid[illegible] Iuventuti

وما صدر من مرسومات إمبراطورية بعد عام ٥٣٤ م جمعت وأصبحت تعرف باسم المتجددات Novellae Leges . والعدد الأكبر من هذه القوانين صدر باللغة اليونانية ، على حين أن القانون والموجز والشرائع صدرت باللغة اللاتينية . ومعنى ذلك استجابة جستنيان ، هذا الإمبراطور المتشبع بالتقاليد الرومانية لواقع الحياة العملية ، حيث تسود اللغة اليونانية . والدليل على ذلك ما جاء فى أحد هذه القوانين الجديدة ، حيث قال جستنيان : « إننا لم نكتب هذا المرسوم باللغة القومية ، ولكن باليونانية المستعملة ؛ لكى يصبح معروفاً للجميع ، بسبب سهولة فهمه »(٣) .

وقد كان جستنيان عملياً فى تشريعاته ، وحرص على مراعاة النواحى

---

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 144.

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٧٩ .
بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٧ .

(2) Vasiliev. pp. 144 — 145.

(3) Agathias : Historiarum, p. 281.
Vasiliev : vol, I. p. 145.

الإنسانية ، وكان رائدة فى أعماله هذه « الإنسانية ، وصواب التفكير ، والمنفعة العامة » . وبناء على ذلك فقد ألغى القانون المعروف باسم ... Noxae deditio الذى بمقتضاه كان يحق للآباء أن يبيعوا أبناءهم كرقيق لأى شخص على سبيل التعويض عن ضرر أو أذى ألحقوه به وعلل جستنيان هذا الإلغاء بقوله : إنه « بناء على الرأى العادل للمجتمع العصرى ، يجب أن ننبذ القسوة التى من هذا النوع »(١) .

ووجدت فى عصر جستنيان طبقة ذات أهمية ضئيلة ، تلك هى الطبقة التى كان لها مكاناً وسطاً بين طبقتى الأحرار والعبيد ، فهى أقل من الأحرار ولكنها أعلى من العبيد وكانت تضم ثلاث فئات :

الفئة الأولى ويسمون : latini Iuniani

وهم العبيد الذين تم تحريرهم أو عتقهم ، لكنهم لم يصبحوا أحراراً يتمتعون بكل ما للأحرار من حقوق ، فكانوا لا حق لهم فى التعين فى وظيفة حكومية أو الزواج من طبقة الأحرار كما أنهم لا يملكون الحق فى كتابة وصية أو الميراث عن طريق وصية .

والفئة الثانية هم : In mancipii Causa

وهم الأطفال الذين أخضعهم أباؤهم للعبودية نتيجة بعض المخالفات التى اقترفوها .

أما الفئة الثالثة فتدعى : Dediticii

وهم الذين خضعوا لعقوبة الرق نتيجة لارتكابهم جريمة ما ، وبعد

---

(1) Runciman : Byzantine Givilisation, p. 76.

بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

ذلك تم تحريرهم . لكن نظراً لأنهم القدم ظلوا لا يتمتعون بكل حقوق المواطنين الأحرار ، ولا يستطيعون أن يقيموا إلا على بعد أكثر من مائة ميل من مدينة روما . وإلى جانب هؤلاء كان هناك طبقة المحررين Freedmen وهم الذين تم تحريرهم ولكنهم ظلوا مقيدين بالالتزامات التى كانوا يدينون بها سابقاً . ولم يكن باستطاعة أحد منهم أن يصبح Magistrate or Senator إلا بأمر خاص من الإمبراطور . كذلك لم يكن أحد منهم يستطيع أن يتزوج من سيده تنتمى إلى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وقد ألغى الإمبراطور جستنيان هذا كله ، وأصبح هناك من وجهة نظر القانون طبقتان فقط هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد(١) .

وقد ظهر تأثير الإمبراطورة ثيودورا فى النواحى التشريعية فى تلك الحقوق التى منحها جستنيان للمرأة ، مثل حق الزوجة فى الحصول من زوجها على أملاك تعادل فى قيمتها بائنتها وحق الأرملة فى الوصاية على أطفالها . وتقررت للأطفال حرية أوسع فيما يتصل بأشخاصهم وأملاكهم . وأصبح حرمانهم من الإرث فى المستقبل غير جائز آلا حسب قواعد ثابتة . ونص على أنه فى حالة حرمانهم يجب على الآباء أن يقرروا صراحة وبوضوح تام الأسباب التى بنى عليها حرمانهم ، كما أعيد صياغة قانون الوراثة ، وأصبحت قرابة الدم أساساً له ، كذلك أمن العبيد من قسوة سادتهم ، ومنحوا الحق فى مطالبة الحكام بحمايتهم(٢) .

وللحفاظ على تلك الأعمال التشريعية العظيمة ، وجه جستنيان اهتمامه

---

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol a, pp. 4C0 — 401.
Roby : Roman law, in C.M.H. ed Bury, vol II, pp. 64 — 65.
(2) Runciman : p. 76.
Vasiliev. : vol. I, p. 147

إلى جامعات القانون ، وأولاها عنايته ، وكان معظمها قد أغلق ، ونتيجة لجهوده ازدهرت ثلاث جامعات للقانون ، واحدة فى روما (مهد القانون) . والثانية فى القسطنطينية ، والثالثة فى بيروت(١) .

وكل جامعة من هذه الجامعات كان بها عدد محدود من أساتذة القانون لا يتجاوز أربعة ، وكان يطلق عليهم إسم Antecessores ، يتسلمون مكافآتهم من الحكومة ، ولهم الحق فى فتح فصول دراسية خارج الجامعة Public classrooms يلتحق بها من يريد دراسة القانون . وبخلاف أساتذة الجامعة كان هناك مدرسون يستقبلون فى منازلهم التلاميذ الراغبين فى دراسة القانون ، مقابل أجر معين يدفعه هؤلاء التلاميذ لأستاذهم(٢) .

وكانت دراسة القانون بعد سنة ٥٣٤ م ، تشتمل على ثلاثة فروع هى : القانون Codex ،الموجز Digestum ،والشرائع Institutiones .
وكان التلاميذ يدرسون ٢٦ جزءاً فقط من الخمسين جزء لمجموعة الموجز مع أستاذهم ، أما الباقى فيدرسونه اعتماداً على أنفسهم .

وفى البداية كانت دراسة القانون تستغرق أربع سنوات ، وبعد سنة ٥٣٤ ، كانت خمس سنوات ، ثم أصبحت ست سنوات بعد سنة ٥٥٥ وذلك حتى يتمكن الطالب من دراسة أكبر عدد من القوانين الجديدة .

Novellae (٣)

---

(1) Runciman : p. 76.
Vasiliev : vol. I, p. 147.
(2) Scheltema : Byzantine Law, C.M.H. ed. Hussey vol. IV, Part II, p. 56.
(٣) Scheltema : Byzantine Law, p. 56.

وكان نظام محاضرات القانون فى الجامعة بالنسبة للطلبة الذين يتكلمون اليونانية يتخذ شكل ترجمة يونانية للنص اللاتينى للقانون يطلق عليها اسم Index ،وفى المحاضرة التالية يقوم الأستاذ بشرح نفس النص اللاتينى ، وتتخذ هذه المحاضرة شكل أسئلة من جانب الطلبة ، وإجابات من جانب الأستاذ . الغرض منها إيضاح النص اللاتينى وتفسيره . لذلك ظهرت تفسيرات هامة للقوانين ، مثل التفسير الذى كتبه ثيوفيلوس للشرائع ، وتفسيرات للموجز لثيوفيلوس ، ستيفانوس Stephanus ، ايزيدور Isidore وكوبيداس Cobidas . وشرح للقانون Codex كتبه إيزيدور(١) .

لكن الموقف تغير بعد سنة ٥٥٥ بظهور مجموعة القوانين الجديدة Novellae التى ظهرت باللغة اليونانية ، فإن الطلبة لم يعودوا فى حاجة إلى Index ، على أنه كان هناك بعض الطلبة الذين يتكلمون اللاتينية مما تطلب عمل Index لهم باللغة اللاتينية للقوانين الجديدة . وكان التفسير اللاتينى الوحيد لهذه القوانين هو الذى قام بعمله جوليان وظهر باسم مختصر القوانين الجديدة(٢) .

Epitome Novellarum

---

(1) Scheltema : Byzantine Law, pp. 56 — 57.
(2) Scheltema : Byzantine Law, p. 57.
وللمزيد من المعلومات عن جهود جستنيان فى مجال التشريع فى مختلف المجالات راجع :
Roby : Roman Law, in C.M.H. ed Bury, vol 11, pp.53 — 108.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

تقييم انجازات جستنيان

- أهمية جهود جستنيان فى مجال القانون .
- نتائج جهوده لتحقيق وحدة الكنيسة .
- تقييم سياسته الخارجية تجاه الغرب وفارس .
- المشاكل المالية والطبيعية التى واجهت جستنيان وأساءت للموقف .
- أهم نتائج هذا البحث .



بعد أن استعرضنا عصر هذا الإمبراطور وجهوده فى مختلف المجالات ، لعله أصبح من الواضح أنه لا يستحق هذا الوصف الذى وصفه به المؤرخ فيشر(١) ، بل نستطيع أن نقول إن الإنسان يقف مبهوراً أمام الإنجازات الضخمة التى حققها جستنيان للإمبراطورية البيزنطية ، والتى لا تزال آثارها باقية حتى اليوم لتؤكد للأجيال عظمة هذا الإمبراطور ، ومنها آيا صوفيا ، وأحواض « القصر الغائر »(٢) و « ألف عمود وعمود » فى استانبول ، وكنيستى سانت أبوليناار St. Apollinare ، وسانت فيتالى Vitale فى رافنا .

أما عن الأثر الذى تركته جهوده فى مجال التشريع وترتيب القانون الرومانى ، فقد ظهر بشكل واضح بعد تأسيس معهد الدراسات القانونية بمدينة بولونيا فى شمال إيطاليا ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن ثمة أصبحت دراسة القانون الرومانى المدنى حسبما أصدره جستنيان دليلا واضحاً على أن ذلك المجتمع قد تولدت عنه أفكار ناضجة فى الملكية الخاصة والحقوق العائلية ونظرية العقد ، وأنه كان وثيق الصلة بالحياة الواقعية ، وأنه لم يبن على التشريع بقدر ما بنى على العرف والعادة وأقوال الفقهاء . وهكذا وجدت أوروبا الغربية ، حين انجابت عنها ظلمات العصور الوسطى ، وتكشفت لها مجموعة القانون المدنى الذى رتبه جستنيان ، أنها أمام بناء شامخ هو المدنية الأوروبية التى كانت والتى سوف تكون ، على حد تعبير فيشر(٣) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث . ص١٧

(٢) أنظر الصورة رقم (٥) .

(٣) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ٥٥ — ٥٦ .

أما عن جهود جستنيان فى الناحية الدينية ، فقد رأينا كيف كان شغله الشاغل محاولة التوفيق بين كنيسة روما والكنائس الشرقية وإقامة كنيسة واحدة ، ولكن من الواجب أن نعترف أنه أخفق فى تحقيق وحدة الكنيسة داخل إمبراطوريته ، بعد أن ظل المونوفيزيتيون على عنادهم وتباعدهم . على أنه مما يعوض هذا الفشل ، ذلك النجاح الذى أحرزه فى مجال التبشير ، والذى كان من نتيجته نشر المسيحية بين القبائل والشعوب المجاورة ، فقد كان جستنيان يرى باعتباره إمبراطوراً مسيحياً أن واجبه يقتضى العمل على نشر المسيحية ليس فقط داخل إمبراطوريته ، وإنما خارجها كذلك ، ومن ثمة دأب على إرسال البعثات التبشيرية إلى المناطق التى لم تصل إليها المسيحية بعد ، وقد أثمرت جهوده فى هذا المجال ، وكان من نتيجتها تنصير قبائل الهرولى Heruli على الدانوب ، وبعض القبائل فى منطقة القوقاز ، وغيرها فى شمال إفريقية وفى حوض النيل الأوسط(١) .

وفيما يتعلق بحروبه فى الغرب ، فهل كانت ترفاً لا لزوم له ، وهل كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية كما يرى بعض المؤرخين ؟(٢) .

إذا نحن نظرنا إليها فى ضوء المبادىء والمثالية الرومانية وجدنا أنها لم تكن كذلك ، فبانتهاء عهد رومولوس أو جسطولوس آخر أباطرة الغرب الرومان فى سنة ٤٧٦ م . انتهى « شبه الإنقسام » الذى كان موجوداً من قبل ، وظلت نظرية « الدولة الواحدة » قائمة دون تغيير ، وعادت الوحدة القديمة لشطرى الإمبراطورية إلى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, vol. I, p. 141.

(٢) أنظر الفصل الأول من هذا البحث ص١٧.

الإمبراطور الغربى تلقائياً إلى الإمبراطور الشرقى . الذى جمع السلطة الرومانية Imperium Romanum فى يده مرة أخرى(١) .

وفى ضوء هذه النظرية الرومانية ، أصبح من واجب الإمبراطور الشرقى أن يعمل جاهداً على إعادة ضم هذه الولايات الغربية للإمبراطورية من جديد ، على أن الأباطرة السابقين لجستنيان قد قنعوا وقتذاك بما لهم من سيطرة إسمية على هذه الأقاليم وبما اعترف لهم به زعماء البرابرة من نفوذ شكلى وفضلوا الكسل والتراخى — على حد تعبير جستنيان — ولو كان هؤلاء الأباطرة حاولوا استرجاع هذه الأقاليم منذ وقت مبكر ، فربما كانوا قد نجحوا فى إيقاف التيار الذى سار فيه الغرب الأوروبى مبتعداً به عن الشرق الهللينستى ، ولما اتسعت الفجوة بين شطرى الإمبراطورية ، ولنجحت بيزنطة فى فرض سيطرتها الفعلية ونفوذها السياسى والحضارى على هذا الجزء من ممتلكاتها .

أضف إلى ذلك أن الإمبراطور الشرقى قد مارس منذ البداية الاستبداد القيصرى البابوى Caesaro — Papism ، بمعنى أنه كان رأساً للكنيسة كما هو رأساً للدولة . وبناء على ذلك أصبح واجبه الدينى يحتم عليه أن يخلص أهالى الولايات الغربية من يد الغزاة الأريوسيين ، وأن يعيد الأرثوذكسية إلى هذه البلاد ، وقد نظر هؤلاء الأهالى للإمبراطور الشرقى على أنه منقذهم ومخلصهم من هؤلاء السادة الكفرة .

وكان تخلى الإمبراطور الشرقى عن أداء واجبه السياسى والدينى تجاه الأقاليم الغربية للإمبراطورية يعتبر خيانة للمثالية الرومانية . وهكذا يتضح

(1) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 133.
Ostrogorsky : op. cit. p. 60.

أن إستعادة الأقاليم الغربية كان مسألة شديدة الأهمية بالنسبة لإمبراطور متشبع بالتقاليد والمثل الرومانية . وقد وجدت المثالية الرومانية فى شخص جستنيان المؤمن بها والمنفذ لها .

أما عن كون هذه الفتوحات الغربية لم تكن دائمة وأنها انهارت بعد وفاة جستنيان(١) ، فهذا يخالف الواقع ، ذلك أن إقليم شمال إفريقية استمر بيد الدولة البيزنطية لمدة تزيد على القرن من الزمان . وكان مركزاً للولاء الإمبراطورى ، وقد خرج منه هرقل فى عام ٦١٠ م لينقذ الإمبراطورية من الهوة التى غرقت فيها أثناء حكم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) ، ولم يسقط هذا الإقليم إلا أمام الفتح الإسلامى فى عام ٧١١ م . وبعد أن سقطت الولايات الشرقية نفسها فى يد المسلمين(٢) .

أما فى أسبانيا فقد ظل الإقليم الذى تم استرداده لها يدين بالولاء للإمبراطورية لمدة سبعين سنة(٣) .

وبالنسبة لإيطاليا ، فقد استمر الحكم البيزنطى والنفوذ الهللينستى فى الجنوب لمدة خمسة قرون تالية — أى حتى القرن الحادى عشر الميلادى — حين استولى النورمان فى عام ١٠٧١م على مدينة بارى آخر معقل للبيزنطيين هناك(٤) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث . ص١٧

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 140 — 141.

(3) Vasiliev : op. cit, vol. I, p. 138.
Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 287.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 117.
Ostrogorsky : op. cit. p. 79.

وفيما يتعلق بسياسته على الجبهة الشرقية للإمبراطورية ، فقد لقيت الكثير من الانتقاد من جانب المؤرخين ، واتهموه بأنه أهمل الجبهة الشرقية « إهمالا شديداً » على حد تعبير المؤرخ ديل(١) .

والحقيقة أن جستنيان لم يوجه اهتماماً كافياً لهذه الجبهة ، رغم أهميتها الحيوية للإمبراطورية . ويبدو أن إيمانه بالمبادىء المثالية الرومانية الخاصة باستعادة الأقاليم الغربية ، وحرصه على تحقيقها ، جعلته ينظر إلى حروبه فى الغرب على أن لها الإعتبار الأول والأهم . وربما قنع جستنيان آنذاك بأن الإمبراطورية البيزنطية قد حافظت على ممتلكاتها فى الشرق ولم تفقد شيئاً من أقاليمها هناك .

وقد كلفت جهود جستنيان فى مختلف المجالات — سواء فى ميدان الحرب أو الإنشاء والتعمير — الدولة الكثير من الجهد والمال ، خاصة وأن الضرائب المفروضة على الشعب لم تكن تصل إلى الخزينة الإمبراطورية ، ولم يصل إليها إلا الثلث فقط ، نتيجة لعدم أمانة الموظفين المكلفين بجمعها . وقد حاول جستنيان القضاء على هذه الظاهرة بإصداره العديد من المرسومات والقوانين ، غير أن جهوده كلها لم تأت بالنتيجة المرجوة ، لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يغير من الطبيعة البشرية لهؤلاء الموظفين .

ولما اشتدت حاجة الإمبراطور إلى المال لمواجهة نفقات الدولة وحماية حدودها من هجمات المتبربرين ، لجأ إلى استحداث ضرائب جديدة ، وما صحب جباية هذه الضرائب من إجراءات شديدة صارمة ترتب عليها أن

---

(1) Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, p. 8.
Ostrogorosky : History of the Byzantine State, p. 71.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 142.

أصاب القرى الخراب وهجرها سكانها ، وفقدت الأرض خصوبتها ، ونشبت الاضطرابات فى أماكن عديدة ، حتى اقتضى الأمر أن يفرض جستنيان الأحكام العرفية فى بعض الأقاليم(١) .

ثم ما عمد إليه جستنيان من محاولة توفير الأموال عن طريق تخفيض عدد الجيش والتوقف عن دفع مرتبات الجند ، كان له نتائج بالغة الخطورة ، إذ أدى ذلك إلى أن أصبحت حدود الإمبراطورية مكشوفة للأعداء وخاصة القبائل المتبربرة التى أخذت تعيث فساداً فى أملاك الإمبراطورية . وهنا لجأ جستنيان لبناء سلسلة من القلاع والحصون والخطوط الدفاعية على طول أطراف الإمبراطورية فى آسيا وأوروبا ؛ كما لجأ إلى استمالة هؤلاء المتبربرين بالأموال والهدايا ودفع الجزية لهم(٢) .

وإن كان بعض المؤرخين مثل فيشر يمتدحون هذه السياسة ويجدون فيها دليلا على سداد تفكير جستنيان وعلاجاً ناجحاً لمشكلة نقص الأموال(٣). إلا أنها فى رأيى قد ضاعفت من المشكلة ولم تكن بالعلاج الناجح السليم ، إذ أن تلك الإجراءات كلها قد اعتمدت أولا وأخيراً على بذل الأموال سواء كان ذلك أموالاسائلة للأعداء أوما تكلفه تشييد التحصينات من نفقات ، فى الوقت الذى كان جستنيان يعانى فيه من الضائقة المالية التى ألجأته إلى كل هذه الإجراءات . وهكذا أصبح جستنيان يدور فى حلقة مفرغة .

أضف إلى ذلك أن إنشاء هذه الحصون والقلاع أصبح عديم الجدوى ، فلم يتهيأ لها الجنود المدافعون عنها ؛ وقال المؤرخ المعاصر أجاثياس :

---

(1) Vasiliev : vol I, pp. 160 — 161.

(٢) فيشر : جزء ١ ، ص ٥٤ .

(٣) فيشر : حـ ١ ، ص ٥٤

« إن هذه القلاع والحصون كانت خالية خاوية لا يسمع فيها نباح كلب واحد »(١) .

على أنه من الجائر أن نحكم على جستنيان حكماً مبنياً على ما آلت إليه الأمور فى أواخر أيامه ، خاصة وأن عوامل طبيعية بحتة ابتلى بها عصر جستنيان وكان لها أثرها فى سوء الموقف فى السنوات الأخيرة ، مثل الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذى انتشر فى الإمبراطورية فى سنة ٥٤٤ م وكانت بداية ظهوره بمصر ، ثم انتقل إلى سورية فالقسطنطينية ، فالأناضول ثم ما بين النهرين ، ثم انتقل إلى صقلية وإيطاليا . وقد تزايد فتك هذا الوباء بالسكان ، ويقال إنه أفنى ثلثهم ، ونتيجة لذلك عم الخراب فى المدن والقرى وتوقف الزرع ، فانتشرت المجاعات واضطربت الدولة بأسرها ، وقد زاد ذلك فى نقص الإيرادات ، كما قضى هذا الوباء على كثير من الشباب الذين كان عليهم حمل السلاح والاضطلاع بعبء الدفاع عن الإمبراطورية ضد الأعداء المتربصين بها من كل جانب .

وقد تعددت الزلازل ، وكان أخطرها الزلزال الذى حدث فى عام ٥٥١م وقد اهتز فيه الساحل السورى من أرواد حتى صور ، وعم الخراب وأصيبت مدينة بيروت بالضرر الأكبر من جراء هذا الزلزال ، ويقال إن البحر تعرض لحركات المد والجزر مما تسبب فى إغراق العديد من السفن وآلاف الناس ، ويصف المؤرخ أجاثياس ما أصاب بيروت بقوله : « بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة وتقلص ظل جمالها ، ودكت أبنيتها الشامخة البديعة فتقوضت ، ولم يبق منها إلا ردم وخراب .

---

(١) Agathias : Historiarum, ed Bonn, p. 333.

وهلك تحت أنقاضها جم غفير من الأهالى والأجانب . واختطف الموت نخبة الشباب الأشراف الذين كانوا قد قدموا إلى بيروت لدراسة الحقوق الرومانية فى مدرستها الشهيرة التى كانت فخراً وتاجاً على مفرقها تباهى بها مثيلاتها من المدن العظمى »(١) .

والخلاصة أن عهد جستنيان قد بدأ بداية طيبة بشرت بالآمال الزاهرة . ثم سار وهو مكلل بالأعمال الرائعة والجهود المخلصة من أجل النهوض بالإمبراطورية وتبوئها مكانة رفيعة سامية ، ثم انتهى هذا العهد وهو محاط بجو من اللوم والسخط الشديدين ، على إمبراطور هو فى الحقيقة من عمالقة التاريخ الأوروبى . ويكفى وصف المؤرخ المعاصر أجاثياس الذى قال عن جستنيان إنه « أول من دل بأقواله وأفعاله دون جميع أباطرة الدولة الرومانية ، أنه امبراطور »(٢) .

ومن خلال عرضنا لعصر جستنيان وإنجازاته فى مختلف المجالات يمكننا أن نستخلص الحقائق التالية :

أولا :

إن جستنيان كان الإمبراطور الوحيد منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة فى عام ٤٧٦ م . وحتى نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عام ١٤٥٣م . الذى قام بمحاولات عسكرية ضخمة وفق مخطط يهدف إلى استرجاع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، محققاً بذلك وبشكل عملى المبدأ الرومانى الهام الخاص بمسئولية الإمبراطور الرومانى

(1) Agathias - Historiarum, ed Bonn ,pp. 95 — 96.
(2) A gathias : p. 335.

الشرق من الناحيتين السياسية والدينية تجاه الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان .

ثانياً :

إنه ليس من الصواب القول إن جستنيان قد أعاد إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة لأنه — كما اتضح من خلال هذا البحث - لم يعيد هذه الإمبراطورية بحدودها التى كانت عليها فيما مضى ، وإنما الأصح القول بأنه استعاد بعض الأقاليم الرومانية الغربية ، ووسع بذلك حدود إمبراطوريته .

ثالثاً :

إن عهده يمثل آخر مرحلة من مراحل عظمة الإمبراطورية الرومانية اللاتينية ، وبعده أخذت الإمبراطورية الشرقية تصطبغ بالصبغة الهللينستية .

رابعاً :

إن سياسته الدينية الخاصة بإصراره على ممارسة الاستبداد القيصرى البابوى ، قد أوجدت سابقة من السيادة الدينية العليا للأباطرة البيزنطيين التالين تمسكوا بها ، وظلوا يمارسونها حتى نهاية عهد الإمبراطورية البيزنطية ، وظل الإمبراطور البيزنطى حتى النهاية ، رأسا للكنيسة ، كما هو رأساً للدولة ، وبذلك أنقذ خلفاءه من التعرض لمواقف مماثلة لما حدث للأباطرة فى الغرب ، مثل هنرى الرابع وحادثة كانوسا ، وفردريك بربروسا ومقابلة البندقية(١) .

---

(١) تمت الحادثتان أثناء النزاع الذى أشتد بين أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية حول المبدأ العام أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السيادة العليا البابوية أم الإمبراطورية =

خامساً :

إن فتوحاته فى الغرب لم تنهار سريعاً . ولكن يعود الفضل لهذه الفتوحات فى إعادة واستمرار النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا لعدة قرون تالية . وكانت فتوحاته هذه هى الأساس الذى استند عليه خلفاؤه الذين حاولوا أن يثبتوا نفوذهم فى الغرب . وأن فتوحاته فى شمال إفريقية استمرت قائمة . ولم تنهار إلا أمام طوفان الفتوحات الإسلامية . ولم تسقط إلا بعد سقوط الولايات الشرقية ذاتها . وأنه أعاد البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى .

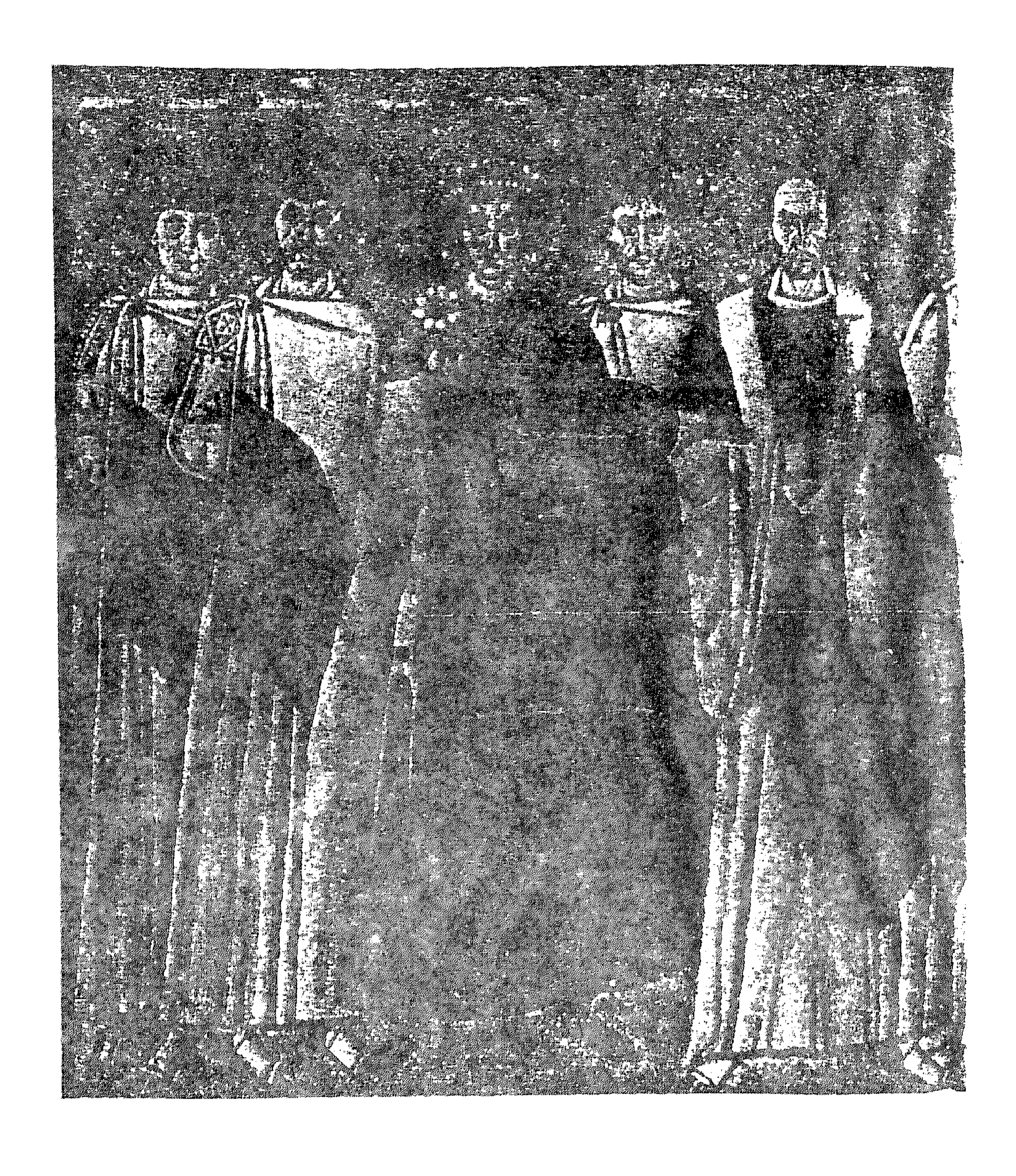
= وتتلخص حادثة كانوسا فى أنه بعد أن أصدر البابا جريجورى السابع قرار الحرمان ضد الإمبراطور هنرى الرابع سنة ١٠٧٦ ، وتخلى أمراء ألمانيا عن الإمبراطور ، ذهب الأخير لمقابلة البابا ، الذى كان محتمياً بقلعة كانوسا ، ووقف الإمبراطور ثلاثة أيام وسط الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه بشرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون قيد ، ثم دخل هنرى الرابع القلعة فى يناير ١٠٧٧ وما أن وجد نفسه أمام البابا حتى ارتمى على قدميه وانفجر باكياً وهو يقول : «اغفر لى أيها الأب المقدس» . فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطاً قاسية وزوده بالنصح والإرشاد . وقد تكرر هذا الموقف بعد مائة سنة بالضبط وفى عام ١١٧٧ بين الإمبراطور فردريك بربروسا والبابا اسكندر الثالث ، حين دخل فردريك مدينة البندقية وقابل البابا الذى كان محاطاً بجمع حافل من الكرادلة ، وارتمى الإمبراطور على قدمى البابا باكياً طالباً الصفح والغفران .
بشأن تفاصيل هذا النزاع أنظر :
سعيد عاشور . تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٣٠٢ — ٣٠٣

Tout : The Empire and the Papacy, pp. 122 — 390.



الامبراطور جستنيان



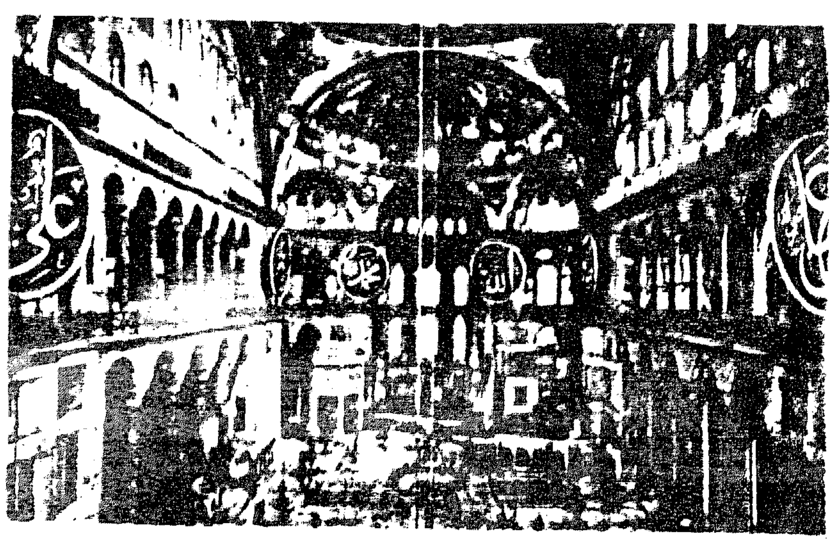




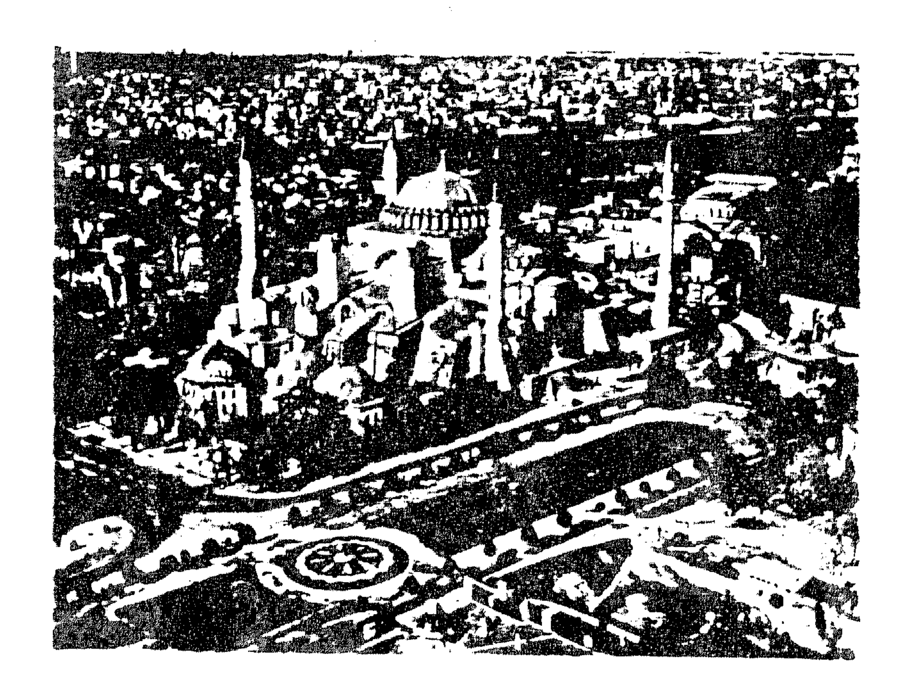


الامبراطورة تيودورا

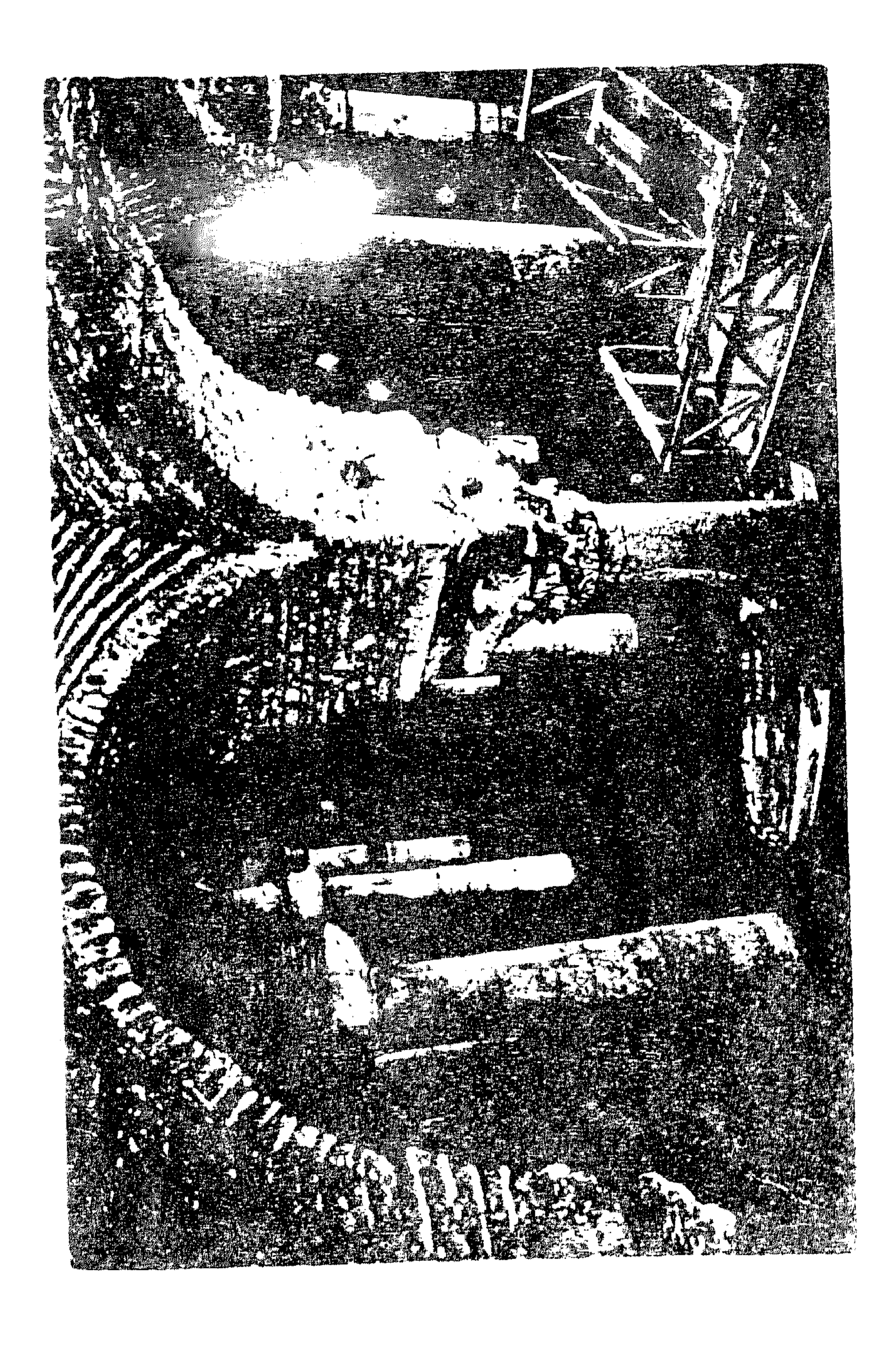




آيا صوفيا



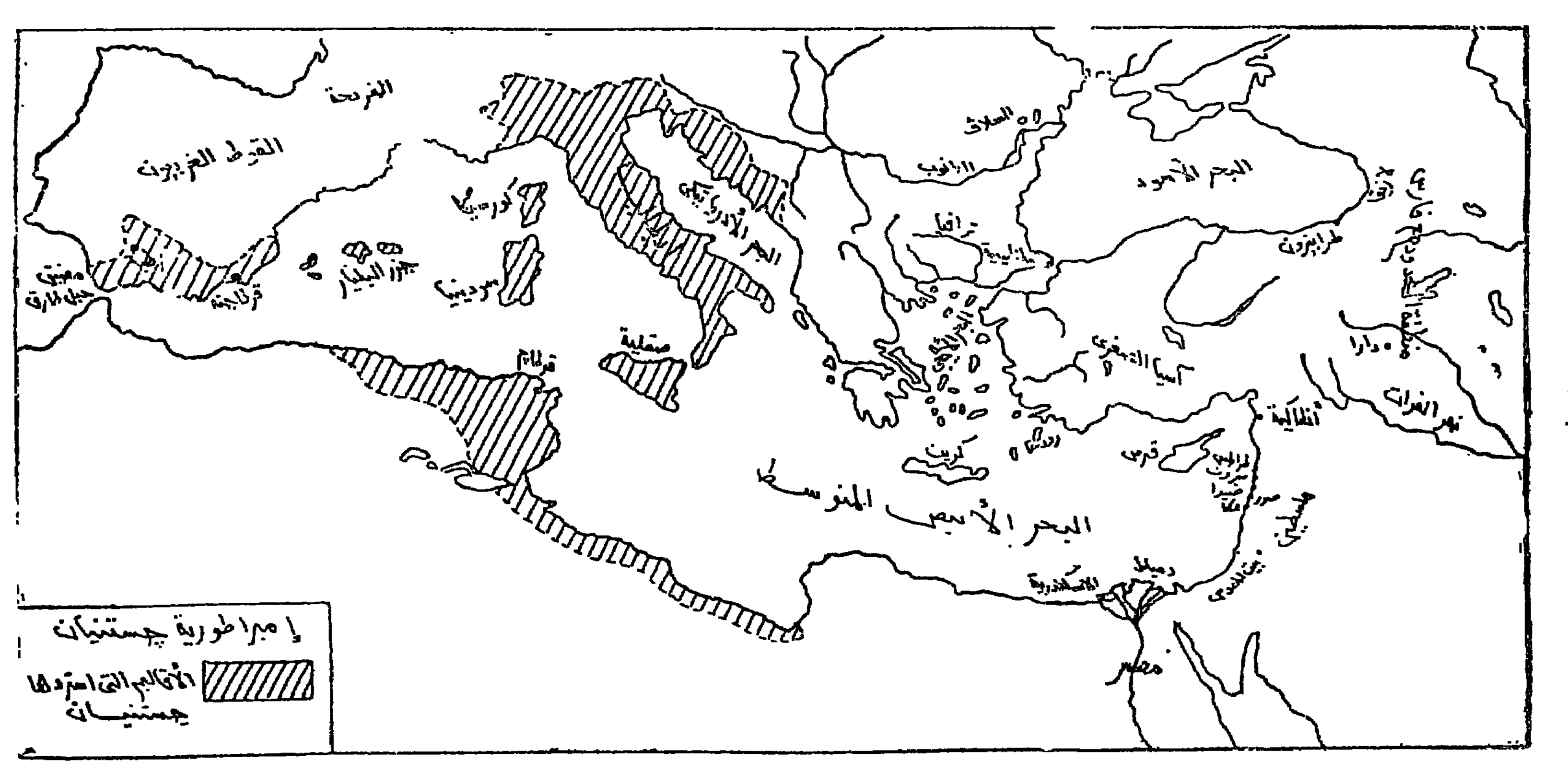






الخـــرائط




إمبراطورية جستنيان
الأقاليم التي استردها جستنيان
الفرنجة
القوط الغربيون
كورسيكا
سردينيا
جزر البليار
قرطاجنة
صقلية
البحر الأدرياتيكي
تراقيا
السلاف
الدانوب
البحر الأسود
طرابيزون
آسيا الصغرى
دارا
نهر الفرات
أنطاكية
قبرص
كريت
البحر الأبيض المتوسط
دمياط
الإسكندرية
مصر



المراجع



المراجع العربية

- أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم ه الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ .
- السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ – ١٠٨١) القاهرة، ١٩٦٠ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول.
- عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، الإسكندرية، ١٩٦٧ .
- نبيه عاقل : الإمبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ .
- أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى بدر ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المراجع المعربه

- بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس محمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ .
- فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر .
- موص : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مراجعة د. السيد العرينى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .



المراجع غير العربيه

— Agathias : Historiarum, Niebuhr, Bonnae, MD · ×·V

— Barker : gustinian and the later Roman Empire, London, 1966.

— Boad : Byzantine Imperialism, in Egypt. American Historical Review, XXXIV, 1928.

— Brehier : Vie et mort de Byzance, Paris, 1969.

— Bury, J.B. : A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

A History of the later Roman Empire, London, 1923

— Cambridge Medieval History, Vol, IV, ed. Bury, Cambridge, 1926.

— Cambridge Medieval History, Vol. IV, ed. Hussey. Cambridge. 1966 - 1967.

— Diehl (ch) : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928.

— Di?hl et Marcais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris, 1936.

— Dolger, F. : Byzantine Literature C.M.H., vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Dvornik F. : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, ed. Hussey, Cambridge, 1966.

— Encyclopedia Britannica, William Benton, Publisher, U.S.A. 1968.

— Ensslin, W. The government and Administration of the Byzantine Empire, C.M.H. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Gilbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London 1976.

— Diehl et Marcais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris 1936.

— Dolger, F. : Byzantine Literature C.M.H., vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Dvornik F. : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, ed. Hussey, Cambridge. 1966.

— Encyclopedia Britannica, William Benton, Publisher, U.S.A. 1968.

— Ensslin, W. : The government and Aministration of the Byzantine Empire, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Giblon : The Decline and Fall of the Roman Empire

— Grabar, A. : Byzantine Architecture and Art, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Herman (E) : The Secular churches.
C.M.H. vol. IV, part II. ed. Hussey, Cambridge. 1967

— Hussey (J.) : The Byzantine World. I, London, 1955.

— Justinian : Novellae, ed K.E. Zachariae von Lingenthal, Jus graeco—romanum, Leipzig, 1856 — 84.

— Lot : The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages, London 1931.

— Moss (H.B.) : The Formation of the East Roman Empire (330—717), C.M.H. vol. IV, part I, ed Hussey, Cambridge, 1966.

— Moss : The Birth of the Middle Ages, Oxford, 1947.

— Obolensky,(D) : The Empire and its Northern Neighbours, C.M.H. vol, IV, part I, ed Hussey, Cambridge, 1966.

— Oman : The Dark Ages, London, 1908.

— Ostrogorsky(G): History of The Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1968.

— Procopius : Historia Arcana, ed, Haury, (1906) De bello Vandalico, English Trans. by Dewing.

— Rambaud,(A) : Etudes sur l'histoire Byzantine, Paris, 1912.

— Runciman, (S) : Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.

— Scheltema,(H.J): Byzantine Law, C.M.H. vol. IV, part II, ed Hussey, Cambridge, 1967.

— Tout. (T.F.) : The Empire and the Papacy, London, 1924.

— Vasiliev(A.A) : History of The Byzantine Empire (324—1453). vol. I, Wisconsin Press. U.S.A.

— Wellesz. (E) : Byzantine Music and Liturgy, C.M.H. vol. IV, part II, ed Hussey, Cambridge, 1967.



جامعة الإسكندرية

كلية التربية

الآفـــــار

دكتـــــورة

إسمت غنيم

جامعة الاسكندرية

١٩٩١م



بسم الله الرحمن الرحيم

تعرضت الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي لهجمات عناصر مختلفة ، سواء كانت هذه العناصر من البرابرة الجرمان ، أو من القبائل الآسيوية الرعوية ، وإذا كانت شبه جزيرة سكيندينافة في شمال أوروبا ، تبدو قريبة من حدود الإمبراطورية الرومانية في الغرب الاوروبي ، فقد كانت المناطق التي عاشت فيها الشعوب الآسيوية بعيدة إلي حد ما عن أوروبا ، حيث عاشت هذه الشعوب في سهول آسيا في ظروف معيشية صعبة وتحت رحمة الطبيعة وتقلباتها ، لذلك أخذوا في التنقل والترحال من مكان إلي آخر ، بحثا عن الغذاء لهم ولما معهم من خيل وماشية ، واضطروا أحيانا للقيام بغارات مدمرة هدفها السلب والنهب ، وتعرضت أوروبا لهذه الغارات بين الحين والحين ، وغدت السهول الواقعة شمالي بحر قزوين منفذا أمام هذه القبائل نفذت منه إلي أوروبا ، فأثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الموجودة علي حدود الامبراطورية الرومانية ثم داخل هذه الامبراطورية ذاتها فيما بعد

وكان من بين هذه الشعوب الآسيوية ، السكيثيين Scythians ، والسارماشيين Sarmatians ، والهون Huns ، والآفار Avars ، والبلغار Bulgars ، والمجريين Magyars ، والمغول Mongols ، وغيرهم كثيرين .

ولا يخفي علي أحد من الباحثين في تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، الدور الذي قام به الهون منذ ظهورهم في حوض نهر الدانوب الأدني في عام ٣٧٥م ، وحتي وفاة زعيمهم آتيلا في ٤٥٣م. ، وانهيار امبراطورية الهون بعد

هزيمتهم في معركة نديو Nedeo في عام ٤٥٤ م. (١) .

وقد لعب الآفار دورا قريب الشبه بالدور الذي لعبه الهون في أوروبا ، فاستولوا مثلهم علي موقع ممتاز في وسط أوروبا علي الحافة الغربية لنطاق السهل الآسيوي العظيم ، وظلوا أكثر من قرنين من الزمان يثيرون الرعب في قلوب شعوب المنطقة الممتدة بين بحر البلطيق وشبه جزيرة المورة (البلوبونيز) و أخضعوا شعوبا كثيرة لسيطرتهم ، وكان حكمهم يتناسب مع أسلوب حياتهم ، وأصولهم في بلاد السهوب ، اذ ينطوي علي الاستبداد ، ويعتمد علي القوة ، ويقوم علي غارات السلب والنهب وبث الرعب والإرهاب .... ثم يتعرض للإنهيار الفجائي .

وكان تاثير الآفار في أوروبا العصور الوسطي تاثيرا كبيرا ، وكانت لهم علاقات مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وهددوا القسطنطينية أكثر من مرة ، كما هددوا غرب أوروبا ، وهاجموا إيطاليا ، وسببوا متاعب لمملكة الفرنجه ، حتي تم لشارلمان (٧٦٨ - ٨١٤م) القضاء عليهم ، وبذلك زالت عقبة أمام امتداد النفوذ الفرنجي شرقا ، كما مكن الفيكنج من الوصول إلي نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود ، وتأسيس مدينة كييف ، التي كانت اللبنة الأولي في صرح الإمبراطورية الروسية .

وقد إعتمدنا في هذا البحث علي العديد من المصادر المعاصرة ، وهي مصادر أصلية قيمة ، أمدتنا بالمعلومات التاريخية الهامة عن غزوات الآفار وأتباعهم من

(١) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطي ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٧٢ ، ٩١ .

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطي الاوروبية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ص ٨٠ - ٨٢ .

السلاف وغيرهم من العناصر الأخري ، خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . كما أن هناك مصادر أخري عرضت للحادث الخطير الخاص بحصار الآفار وأتباعهم لمدينة القسطنطينية في عام ٦٢٦م. أثناء عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) وتفاصيل هذا الصراع والنتائج التي ترتبت علي فشله . وأمدتنا مصادر ثالثة بتفاصيل الصراع بين شارلمان والآفار ، وهو الصراع الذي إنتهي بقضاء شارلمان عليهم في ٨٠٩م.

ومن أهم المصادر التي عرضت للآفار وبداية ظهورهم علي مسرح الحوادث التاريخية وغاراتهم علي أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، المصادر التالية حسب ترتيبها الزمني :

يوحنا الافسوسي Jhon of Ephesus [١] :

هو كاتب سوري الأصل ، عاش في أواسط القرن السادس الميلادي وقضي سنوات حياته في آسيا الصغري والقسطنطينية وتوفي في عام ٥٨٦ م. وأثناء حياته شغل منصب بطريرك كنيسة إفسوس وكان معروفا بصفة شخصية للإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) وزوجته الإمبراطورة ثيودورا .

وكان يوحنا يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح Monophysite ، وكتب عن التاريخ الديني Ecclesiastical History كتابا بدأه بعصر يوليوس

(١) للمزيد عن يوحنا الافسوسي راجع :
C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , Cambridge , 1975 , P. 480 , 603 , N. I.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire , vol I , PP. 150 - 151 , 184 - 185 .

قيصر (٤٩ ق.م – ٤٤ ق.م) كما عرض لوجهة نظر أصحاب الطبيعة الواحدة .

وما يهمنا في هذا المصدر ، هو الحوادث التاريخية التي عرض لها منذ عام ٥٢١ وحتي عام ٥٨٥ م. والتي اشتملت علي معلومات قيمة في التاريخ السياسي والثقافي للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي .

وقد كتب يوحنا مؤلفه هذا باللغة السريانية ، وترجمة إلي اللغة الانجليزية باين– سميث Payne - Smith ونشره في أكسفورد في عام ١٨٦٠م ، وهي الترجمة التي رجعنا إليها في هذا البحث . وهناك ترجمة لاتينية لهذا المؤلف قام بها بروكس Brooks ، ولوفين Louvain ، وظهرت عام ١٩٣٦ .

أفاجريوس Evagrius :

يعرف باسم أفاجريوس السوري Evagrius of Syria ، ولد في عام ٥٣٦، وتوفي في عام ٦٠٠ م. ، كتب في التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica مؤلفا اشتمل علي ستة فصول ، بدأه بمجمع إفسوس الديني في ٤٣١ م. وانتهي به عام ٥٩٣م. وإلي جانب الحوادث الدينية التي تضمنها ، اشتمل كتابه أيضا علي حوادث تاريخية هامة للفترة الزمنية المشار اليها ، وقد نشره باللاتينية بيدز Bidez وبارمنتير Parmentier في لندن عام ١٨٩٨م. وهي الطبعة التي رجعنا اليها في هذا البحث .

ميناندر Menander :

هو مؤرخ ، عاش في القرن السادس الميلادي وكان موظفا في القصر

الإمبراطوري ، كلفه الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م.) بكتابة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فكتب تاريخا غطي فيه معظم القرن السادس الميلادي ، وتناول فيه بصورة أكثر تركيزاً الفترة الزمنية الممتدة من سنة ٥٥٨ إلي سنة ٥٨٢م.، وهي فترة هامة بالنسبة لهذا البحث ، شهدت بداية اتصال الآفار بالإمبراطورية البيزنطية في ٥٥٨م. في عصر الإمبراطور جستنيان ، ثم عرض لغارات الآفار وأتباعهم من السلاف والعناصر الأخري علي ممتلكات الإمبراطورية في اقليم البلقان وبلاد اليونان حتي عام ٥٨٢م ، ويعتبر تاريخ ميناندر تكملة لتاريخ أجاثياس مؤرخ عصر جستنيان ، كما قام ثيوفيلاكتوس سيموكاتا بتكملة تاريخ ميناندر .

ولم يبق ممن تاريخ ميناندر .سوي بعض أجزاء Fragments نشرت في علم ١٨٢٩م. في مجموعة بون البيزنطية C. S. H. B. باسم (مقتطفات من التاريخ) Excerta ex Historia ، كما قام ديندورف Dindorf بنشر هذه الأجزاء تحت إسم (تكملة تاريخ أجاثياس) Agathias Continuatus في مدينة ليبزج في عام ١٨٧١ في مجموعة : Historici Graeci Minores وهذه الطبعة هي التي رجعنا اليها في هذا البحث .

ثيوفيلاكتوس سيموكاتا heophylactus Simocatta :

ولد بمصر ، وعاش بالقسطنطينية خلال عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ، وشغل منصب السكرتير الإمبراطوري ، وإلي جانب ما كتب عن العلوم الطبيعية وبعض الرسائل (١) ، فانه كتب أيضا تاريخ عصر الإمبراطور موريس

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , trasl. by Hussey , Oxford , 1968 , P. 25 .

Vasiliev : Op. cit . P. 181 - 182 .

(٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، الذي يعتبر مصدرا هاما عن عصر هذا الامبراطور ، وقد أمدنا بمعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة عن الآفار والسلاف في منطقة البلقان عند نهاية القرن السادس الميلادي ، ونشره العالم دي بور De Boor باللغة اللاتينية تحت اسم التاريخ Historiae في ليبزج Leipzig في عام ١٨٨٧م.

يوحنا بيكلارنسيس Johannis Biclarensis :

عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، وهو ينتمي إلي القوط الغربيين Visigothes ، ولد بإسبانيا ثم انتقل للإقامة بالقسطنطينية وعاش بها لمدة سبعة عشر عاما ثم عاد لأسبانيا مرة أخري ، وأثناء وجوده بالقسطنطينية درس اللغتين اليونانية واللاتينية [١] . وقد أعطي وصفا للحوادث التاريخية منذ عصر جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) وحتي عصر طيبريوس الثاني (٥٧٨ - ٥٨٢م) فيما أسماه (تاريخا أو عرضا للحوادث) Chronica ، ونشره باللاتينية مومسن Mommsen في برلين ، في عام ١٨٩٤م .

كانت هذه هي أهم المصادر التي رجعنا إليها عند معالجة تاريخ الآفار خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، أما الحادث الهام ، الخاص بحصارهم البري والبحري للعاصمة البيزنطية القسطنطينية في عام ٦٢٦م ، فقد سجلته مجموعة من المصادر المعاصرة ، منها ما دونه رجل الدين المعاصر جورج بيسيديا Pisidia ، الذي كان يعمل شماسا في كنيسة أيا صوفيا ، وقد دون كل ما يتعلق بهذا الحصار في قصيدة شعرية تاريخية تضم أكثر من خمسمائة بيت من الشعر . وقد قسمت هذه القصيدة إلي ثلاثة أقسام :

(1) Toynbcé A . Constantine porphyrogenetus and his world , London , 1973 , P. 633 , N . 1

القسم الأول :

عن الحملة التي قام بها هرقل ضد الفرس في عام ٦٢٢م ، وأطلق علي هذا القسم اسم (عن الحملة الفارسية) De expeditione persica .

والقسم الثاني :

عن (حرب الآفار) Bellum Avaricum وقد دوّن في هذا القسم من أشعاره ، كل ما يتعلق بالحصار البري والبحري الذي فرضه الآفار وأتباعهم من القبائل الأخري علي القسطنطينية في عام ٦٢٦م .

أما القسم الثالث :

فكان عن المرحلة الأخيرة من حرب هرقل ضد الفرس ، وأطلق عليه اسم Heraclias .

وقد نشر بيكر Bekker اشعار بيسيديا في مجموعة بون البيزنطية C.S. H. B. خلال عامي ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ ، وهذه هي الطبعة التي رجعنا إليها .

وهناك طبعة جديدة مع ترجمة وشرح للأشعار باللغة الإيطالية نشرها العالم الايطالي برتوسي Pertusi وظهرت في عام ١٩٦٠ تحت عنوان (شعر جورج بيسيديا) ، Giorgio di pisidia poemi , panegirici epici , Ettal 1960 .

وقد دوّن أيضا هذه الحوادث الخاصة بحصار الآفار للقسطنطينية في عام ٦٢٦م، رجل الدين المعاصر ثيودور سنكيلوس Theodore Syncellus الذي كان زميلا لجورج بيسيديا في كنيسة آيا صوفيا ودوّن هذه الحوادث في خطبة ألقاها

الآفــــار

أمام البطريرك سير جيوس في ذكري الإحتفال بانتصار البيزنطيين علي الآفار وحلفائهم وتم هذا الاحتفال بانتصار البيزنطيين علي الآفار وحلفائهم ، وتم هذا الاحتفال في يوم ٧ أغسطس ٦٢٧م ، وكان عنوان خطبته هو " الهجوم الأحمق للآفار ، والفرس الزنادقة ، ضد المدينة التي يحميها الرب ، وتقهقرهم المخزي بفضل الحب الإلهي للشعب ، وبفضل شفاعة العذراء المباركة " . وقد نشرها العالم سترنباخ في عام ١٩٠٠ م .

ومن المصادر الهامة التي عرضت لهذا الحادث التاريخي ما كتبه البطريرك نقفور Nicephori patriarchae الذي ولد في عام ٧٥٨ م. وتوفي في عام ٨٢٩م . وهو ينحدر من عائلة نبيلة من عائلات القسطنطينية ، وشغل منصبا هاما في القصر الإمبراطوري وفي عام ٧٨٧م حضر مجمع نيقية الديني نائبا عن الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) وبعد انتهاء المجمع اعتزل نقفور الحياة العامة ، ولجأ إلي دير أسسه بنفسه ، وفي ٨٠٦ تم تعيينه بطريرك لكنيسة القسطنطينية (آيا صوفيا) ، وظل بهذا المنصب حتي عام ٨١٥ م. حين عزله الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠م) بعد أن رفض نقفور تأييد سياسة الامبراطور الخاصة بمناهضة عبادة الصور المقدسة[(١)] .

وقد كتب عددا من الأعمال الدينية تتعلق بالجدل الذي أثير حول عبادة الصور المقدسة ، وكانت كتاباته هذه تتصف بالعنف ، وكتب أيضا عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في الفترة من عام ٦٠٢م. وحتي عام ٧٧٠ م. .

(١) للمزيد عن البطريرك نقفور وأعماله ، راجع :

xander P. : The patriarch Nccephorus of Constantinople 1958 .

ويعرف كتابه بإسم (المختصر) Breviarium ، وقد توخي فيه الدقة والموضوعية ، ونشره العالم دي بور De Boor في ليبزج عام ١٨٨٠ م.

الراهب ثيوفانيس [١] Theophanes :

هو مؤرخ وعالم لاهوت متعمق ، ولد في عام ٨١٨ م. وكتب حوليات Chronographia عرض فيها للفترة الممتدة من عام ٢٨٤ إلي عام ٨١٣ م. ، واعتمد فيها علي المصادر القديمة السابقة لعصره ، وخاصة ما كتب منها في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، فغدت حولياته ذات قيمة كبيرة ، وتمتعت بمكانة سامية في بيزنطه ، وأصبحت بمثابة المصدر الأصلي لكل الحوليات البيزنطية المتأخرة زمنيا وقام انستاسيوس Anastasius ، أمين المكتبة البابوية خلال السبعينات من القرن التاسع الميلادي بترجمتها من الأصل اليوناني إلي اللغة اللاتينية ، وعن هذا الطريق أصبحت حولياته معروفة في الغرب الاوروبي ، وتمتعت بشهرة واسعة هناك ، ثم قام العالم دي بور De Boor بنشرها في جزئين فيما بين سنتي ١٨٨٣ - ١٨٨٥ م. ، في مدينة ليبزج ، وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث . علي أنه هناك طبعة باللغة الألمانية قام بها ريير Reyer ، وهي قاصرة علي الحوليات الواقعة بين سنوات ٧١٧ - ٨١٣ م. ، ووضع لها مقدمة ونشرها في عام ١٩٥٧ م.

أما عن علاقات الآفار باللومبارديين ، فقد تناولها المؤرخ المعاصر بولس

(1) C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , PP.75 , 80 , 90 , 447 , 592 , 603 , N. I.

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 25 , 87 , ff , 125 , 131 , 147 , ff.

Vasiliev : Op. cit , P. 365 .

الشماس [١] Paul the Deacon الذي ينتمي إلي اللومبارديين ، وعاش في الفترة من ٧٢٠ - ٨٠٠ م. وقد تلقي تعليمه في البلاط الملكي في بافايا Pavia ، ثم أصبح راهبا بندكتيا في حوالي ٧٧٥ م. وعاش في دير مونت كاسينو Monte Cassino - إلي الجنوب الشرقي من روما - وفي عام ٧٨٢ ، قام بزيارة الملك الفرنجه شارلمان ، الذي أحسن إستقباله وظل مقيما ببلاطه حتي عام ٧٨٦ م. وأثناء وجوده هناك قام بكتابة تاريخ أساقفة متز Metz ، وبعد عودته إلي دير مونت كاسينو في إيطاليا ، شرع في كتابة أكثر أعماله أهمية وهو تاريخ اللومبارديين ، Historia Lomgobardorum الذي كتبه باللاتينية وعرض فيه للفترة الزمنية الممتدة من ٦٦٨ - ٧٧٤ م.

وقد رجعنا إلي الترجمة الانجليزية التي قام بها وليم دادلي فولك William Dudley Foulke ونشرها مع مقدمة لها ، ادوارد بترز Edward peters ، وظهرت ضمن منشورات جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٤ تحت عنوان : History of the Lombards .

ومن المصادر المعاصرة الهامة التي رجعنا اليها أيضا لاستقاء المادة التاريخية عن الفترة الأخيرة من تاريخ الآفار وكيفية قضاء شارلمان عليهم كتاب

(1) Paul The Deacon : History of the Lombards , travse . by Foulke , ed. Peters , PP. VII - VIII .

The illustrated Encyclopedia of Medievac Civilization , ed. , Grabois , 1930, P. 576 .

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطي الأوروبية وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ . ص ص ٤ ٢ ، ٢١٠ ، ٢١٩ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقاتهم بالقوي السياسية المجاورة في ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ص ٢ - ٥

اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان

ولد إينهارد في عام ٧٧٠ م. في مدينة فرانكونيا Franconia في وسط ألمانيا ، وتلقي تعليمه في المدرسة الملحقة بدير فولدا Fulda ، وهو دير بندكتي يقع في شمال فرانكونيا ، وأسسه القديس بونيفس Boniface في عام ٧٤٤ م. ثم التحق إينهارد بمدرسة القصر ، التي أسسها شارلمان في مدينة آخن Aachen وأصبح صديقا ومستشارا لشارلمان وبقي كذلك حتي وفاة شارلمان في ٨١٤ م. فتمتع إينهارد بمكانة كبيرة لدي إبن شارلمان وخليفته في الحكم لويس التقي (٧٧٨ - ٨٤٠ م) الذي أنعم عليه بضياع واسعة في ألمانيا .

وقد كتب إينهارد سيرة ذاتية لشارلمان تناول فيها أعماله ومآثره ، كما ضمنها كثيرا من التفاصيل التي انفرد بها ، وذلك نظرا لقربه من شارلمان ، وأطلق علي هذه السيرة اسم (حياة شارل) Vita Caroli والغالب أنه كتبها في الفترة ما بين سنوات ٨٢٩ ، ٨٣٦ م. وتعتبر هذه السيرة الذاتية لشارلمان علامة بارزة في هذا النوع من الكتابات في العصور الوسطي .

إلي جانب ذلك ، هناك ثلاثة أعمال أخري لإينهارد :

العمل الأول هو (رسائل إينهارد) Einhard Epistolae وهي عبارة عن أبحاث في إدارة أعماله في ألمانيا ، وتعتبر شاهدا هاما علي النظام الإقطاعي في المجتمع الألماني في القرن التاسع الميلادي

والعمل الثاني هو (ترجمة حياة ومعجزات القديسين مارسيلينوس وبطرس)
Detranslatione et miraculis Sanctorum Suorum Marcellini et Petri

أما العمل الثالث فهو : (مذكرات في تمجيد الصليب) Libellus de adoranda Cruce . وقد كتب إينهارد أعماله كلها باللغة اللاتينية . وفي عام ٨٣٠م. غادر إينهارد البلاط الملكي ورحل إلي ضياعه في ألمانيا واستقر بها حتي وفاته في عام ٨٤٠ م. (١) .

كانت هذه نبذة سريعة عن أهم المصادر التي رجعنا اليها في هذا البحث . إلي جانب عدد كبير من المراجع جرت الإشارة اليها علي امتداد البحث . ونستعرض في الصفحات التالية الدور الذي لعبه الافار في تاريخ أوروبا ، منذ بداية ظهورهم علي مسرح الحوادث التاريخية ، وحتي القضاء عليهم علي يد شارلمان .

(١) عن إينهارد وأعماله راجع :

- Einhard and Notker the Stammerer , Two Lives of Charlemagne , Trans , by Thorpe , Great Britain , 1969 , PP. 12 - 15 .
- Halphen L. ed. , Einhard , La Vie de Charlemagne , Paris .
- The Illus Encycl . of Medieval civilization , P. 289 .

فيما يتعلق بأصل الآفار ، فانه ليس هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول هذا الموضوع ، حيث أرجعتهم الغالبية من المصادر والمراجع إلي عنصر الترك .

فقد ذكر كل من المؤرخين المعاصرين ميناندر ، وثيوفيلاكتوس سيموكاتا ، أن الترك الذين كانوا يعيشون علي ضفاف نهر تيل [١] أو تولا Til or Tula والذي كان الترك يطلقون عليه اسم (النهر الأسود) نظرا للون مياهه الداكن ، قد هاجموا الهون البيض المعروفين باسم هفثاليتس Hephthalites ، والأويغور Uigurs ، الذين ينحدرون من سلالتين هما الفار والهون Var et Hunni ، ويطلق عليهم اسم فاركونيتس Varchonites ، وقد ذبح خان الأويغور هو وثلاثمائة ألف من اتباعه ، وتناثرت جثثهم لمسافة امتدت سفر أربعة أيام ، وقد فضل عدد ممن نجوا من هذه المذبحة ويقدر عددهم بمائتي ألف محارب النفي علي العبودية ، ففروا وأتبعوا طريق نهر فولجا ، وظهروا في الغرب ، في شمال بلاد القوقاز ، وأطلقوا علي أنفسهم إسم الآفار Avars ، وهو إسم شعب قديم أفضل منهم [٢] .

ومعني ذلك أن الآفار يرجع أصلهم إلي الترك الأويغور الذين ينحدرون من سلالة الهون .

ويؤكد كل من المؤرخين الغربيين المعاصرين بولس الشماس ، وإينهارد ، أن

---

(١) نهر تيل نهر صغير يصب في نهر سلنجا Selinga في شمال منغوليا راجع .

Gibbon : The Declind and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4, P. 291, N. 2.

(2) Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , ed. by L. Dindorf , Vol II . Leipzig , 1871 , frag 4.

- Theophylactus Simocatta : Historiae , ed , by C. De Boor , Leipzig 1887, VII , P. 8.

الافار من عنصر الهّون (١)

وقد أخذ عدد كبير من المؤرخين المحدثين بهذا الرأي منهم علي سبيل المثال ، جيبون ، دنلوب ، بيوري ، باركر ، بيسكر ، بربيه ، وموصي (٢)

وإذا رجعنا إلي كتاب (الإدارة الامبراطورية) De Administrando Imperio للإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩ م) الذي عرض فيه لمختلف الشعوب والقبائل التي عرفت في عصره والعصور السابقة له ، نجد أنه لا يدلي برأي قاطع عن أصل الآفار ولا عن وطنهم الأصلي ، فهو يقول " والجبييد اي الذين انقسموا فيما بعد إلي اللومبارديين والآفار (٣) " . ثم يقول : " وعندما جاء أتيللا ملك الآفار (٤) " . والمعروف أن أتيللا هو ملك الهون ، فهل في ذلك إشارة من قسطنطين السابع إلي أن الآفار من عنصر الهون؟

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 50 , 67 .
Einhard and Notker the Stammerer , Two lives of Charlemagne , P. 67

(2) Gibbon E. : The Decline and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4 , P. 291 .
- Dunlop : The History of the Jewish Khazars , U. S. A. , 1967 , PP. 5 - 6 .
- Bury : History of the Later Roman Empire , U. S. A. , 1985 , Vol II , P. 314.
- Barker : Justinian and the later Roman Empire , P 197 .
- Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II , ed. Bury , Cambridge , 1976 , P. 438 .
- Brehier L. : Vie et mort de Byzance Paris , 1969 , P. 40 .

(3) Constantine Porphyrogenetus . De Adminisirando Jmperio , ed - Bonn , C. S. H. B. , Chapter 25

(4) Ibid . Chapter 28

لا نستطيع ان نجزم بذلك ، خاصة وأنه عاد يقول : " .... ووجدوا أمة سلافية غير مسلحة كانت تسمي الأفار " وفي موضع أخر يقول : " واعتقد سكان الجانب الآخر من النهر وهم السلاف أن الآفار (١) " .

وهكذا لم يدلي الإمبراطور قسطنطين السابع برأي قاطع في أصل الآفار .

وللمؤرخ أرنولد توينبي رأي في أصل الآفار عرضه في كتابه " قسطنطين السابع وعالمه " ذكر انهم شعب بدوي أوراسي (أوروبي - أسيوي) .
Eurasian nomad People . (2)

ولم نعثر في المصادر أو المراجع التي رجعنا اليها علي مايؤيد هذا الرأي .
وفي الوقت نفسه أرجع بعض المؤرخين ، الآفار إلي العنصر التركي المغولي ، منهم أوبولنسكي Obolensky ، هوبتمان Hauptmann ، والعريني (٣) .

أما المؤرخان فازيلييف Vasiliev ، وبنتر Painter ، فقد أرجعا الآفار إلي الأصل التركي (٤) دون تحديد People of Turkish Origin .

(1) Ibid : Chapter 29 .

(2) Toynbeé A, : Constative Porphyrogenitus and his World , London , 1973 , P. 621 .

(3) Obolensky : The Empire an dits Northern Neighbours 565 - 1018 , in C. Med . H. Vol IV , part I , ed. Hussey P. 476 .

Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avars Pevdant la Second moitie du VI Siécle . dans (Byzantion) tome IV , 1927 - 1928, P. 148 .

العريني : المغول ، ص ١٠ .

(4) Vasiliev : Op. cit . , P. 171 .

Painter : A History of the Middle Ages 284 - 1500 , London , 1979 , PP. 35, 78 .

وينسبهم المؤرخون هوسيج Haussig ، هويت Hoyt ، شودورو Shodorow ، وسيليجر Seeliger ، إلي جبال ألطاي (١) في منغوليا ويقولون انهم شعب بدوي ألطائي (٢) nomadic Altaic People .

وهكذا نجد أن الغالبية من المؤرخين يكادوا يجمعون علي أن الآفار من عنصر الترك . والأرجح أنهم ينتمون إلي العنصر التركي الهوني ، وذلك استنادا إلي ما ذكره المؤرخون المعاصرون ، ميناندر ، ثيوفيلاكتوس ، بولس الشماس ، وإينهارد . خاصة وأن عددا من كبار المؤرخين المحدثين قد أخذوا بهذا الرأي ، كما سبقت الإشارة . ويجمع المؤرخون الذين سبق ذكرهم علي أن الموطن الأصلي للآفار هو وسط أسيا ، وأنهم فروا منها تحت ضغط الترك .

وقد استقروا منذ أواسط القرن السادس الميلادي عند سفوح جبال القوقاز ، حيث وجد أيضا عنصر اللان Alani ، وهناك سمعوا للمرة الأولي عن عظمة وثراء

(١) جبال ألطاي أو جبال الذهب ، هي مجموعة من السلاسل الجبلية المرتفعة التي تمتد من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي علي امتداد الحافة الغربية للهضبة المرتفعة الواقعة إلي الشمال الغربي من منغوليا ، ويبلغ طولها حوالي السبعمائة ميل ، ويصل ارتفاعها إلي اثني عشر ألف قدم ، ويقع بين هذه الجبال سهول شاسعة يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف إلي ستة آلاف قدم ، راجع :

العريني : المغول ، ص ص ٥ - ٦ .

(2) Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London , 1971 , P. 93 .

Hoyt & Shodorow : Europe in the Middle Ages Third Edition , U. S. A. , 1976 , PP. 4 , 120 .

Seeliger G. : Conquests and Imperial Coronation of Charles The Great , in C. Med . H. Vol II , ed. Bury , P. 608 .

الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التي كان يحكمها في ذلك الوقت الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، وعن طريق وساطة أمير اللان ، ويدعي ساروسيوس Sarosius سعوا إلي بيزنطة فجري أول إتصال بين الآفار وبين الإمبراطورية في عام ٥٥٨م ، حيث أرسلوا إليها سفارة علي رأسها أحدهم ويدعي كانديش Candish ، وفي طريقهم إلي القسطنطينية مروا بإقليم لازيقا Lazica علي ساحل البحر الأسود ، حيث سمح حاكمها البيزنطي بمواصلة طريقهم إلي العاصمة البيزنطية ، وهناك تجمع أهالي القسطنطينية يحفزهم الفضول وتملأهم الرهبة لمشاهدة هؤلاء الرسل ذوو الملامح الهونية .

ولما سُمح لهم بلقاء الامبراطور جستينان ، أخذوا يقصون عليه أنباء انتصاراتهم ، وجيوشهم التي لا تقهر ، وطلبوا مطالب كثيرة ، منها أراضي ، وهبات، وهدايا ، وجزية سنوية ، وأورد المؤرخ ميناندر نص حديثهم للامبراطور ، قالوا : "أيها الملك العظيم ، أنت تري أمامك ، ممثلين لأقوي وأكبر الأمم ، التي لا تقهر ، جئنا لنعرض عليك أن نكرس جهودنا لخدمتك ، فبوسعنا القضاء علي جميع الأعداء الذين يقلقون راحتك . ولكننا نتوقع أن يكون ثمن تحالفنا ، وجزاء شجاعتنا ، هدايا ثمينة، وإعانة مالية سنوية ، وأراضي خصبة" (١) .

وتمشيا مع السياسة السلمية التي سار عليها جستنيان في السنوات الأخيرة من حكمه ، بعد أن خوت خزائن الإمبراطورية من الأموال نتيجة استنزافها في حروبه من أجل إستعادة ولايات الامبراطورية الرومانية المفقودة في الغرب الاوروبي ،

(1) Menander : Fragment 4 .
Gibbon : The Decline and Fall , Vol 4 , P. 222 .
Bury : History of the later Roman Empire , Vol 2 , P. 315 .
Haupimann : Les Rapports , P. 148

وفيما كان يدفعه من أموال للفرس لشراء السلام علي الجبهة الشرقية ، إلي جانب الإنشاءات العديدة والعمائر العسكرية التي أقامها علي الجبهة الشمالية في محاولة لصد غارات العناصر المتبربرة علي حدود الإمبراطورية (١) . لذلك قرر الإمبراطور جستنيان شراء صداقة الآفار ، وأبلغ مجلس الشيوخ Senato بذلك ، موضحا أن هدفه هو حماية الجبهة الشمالية من غارات العناصر المتبربرة عليها . وكان من رأيه أنه سواء إنتصر الآفار علي هذه العناصر أو هزموا منها ، فان الإمبراطورية سوف تستفيد (٢) .

ولم توضح المصادر ماهية هذه الإستفادة التي سوف تجنيها الإمبراطورية من إنتصار الآفار أو هزيمتهم ، والغالب أن استفادة الإمبراطورية من إنتصار الآفار علي العناصر المتبربرة علي الجبهة الشمالية للإمبراطورية هو وقف تدفق سيل هذه العناصر علي جبهة الدانوب ، وقيامهم بدور حماة هذه الجبهة كمحالفين للإمبراطورية . أما في حال هزيمة الآفار ، فسوف تتخلص الإمبراطورية من عدو جديد طامع فيها . وعلي أية حال فقد تم عقد تحالف Foedus بين الإمبراطورية والآفار في نفس العام ٥٥٨ م. ، وتعهد فيه الآفار بالخضوع للإمبراطور وقتال أعدائه ، مقابل الجزية السنوية . وقد غمر الإمبراطور جستنيان رسل الآفار بعطفه وكرمه ، وقدم لهم الكثير من الهدايا ، تمثلت في الثياب الحريرية ، والحلي الذهبية ، والفرش الوثير ورحل الرسل عائدين إلي بلادهم وهم يشعرون بالرضا والسعادة (٣) .

(١) عن كل ما يتعلق بالإمبراطور جستنيان وعصره راجع :

إسحق غنيم : إمبراطورية جستنيان ، الإسكندرية ، ١٩٨٢

(2) Obolensky : Op. cit , PP. 476 - 477 .

(3) Obolensky : Op. cit , P. 477 .

وقد لعب الآفار دورهم كحلفاء إمبراطوريين Imperial Foederati بهمة واقتدار ، وأخذوا في غزو أعداء الإمبراطورية في المنطقة الواقعة بين جبال القوقاز وجبال الكربات ، فدمروا إمبراطورية الانتاي Antae - بين جبال الكربات ونهر الدونتس Donets - وأستعبدوهم ، وشنوا الحرب علي العناصر ذات الأصل الهوني مثل السابيري Sabiri - علي الشاطئ الغربي للكاسبيان - وهزموهم ، وحاربوا بنجاح ضد عناصر البلغار - بين جبال القوقاز ونهر الدون - والأتيجور Utigurs ، والكوتريجور Kotrigurs ، وهما من عنصر الهون وكانا يعيشان علي شواطئ نهر زوف - وفي عام ٥٦٢ م. قاموا بغزوة كبيرة في وسط أوروبا وظهروا عند جبال الألب Elbe ، وهددوا ماركيات مملكة الفرنجة في أوستراسيا Austrasia .

وهكذا وفي أقل من عشر سنوات كانت معسكرات الآفار تستقر علي ضفاف نهر الدانوب وجبال الألب وقد زالت ومحيت من علي وجه الأرض العديد من القبائل الصقلبية والبلغارية أما من بقي من هذه القبائل فقد خضعوا لسيطرة وحكم الآفار ، وتعهدوا بدفع الجزية السنوية لهم رمزا للخضوع والتبعية (١) .

علي أن علاقات الآفار بالإمبراطورية البيزنطية أخذت تدخل في طور أكثر خطورة ، ذلك أنه في نفس العام ٥٥٨ م. أرسل خاقان الآفار (يسمي الخاقان أو

(1) Menander : Fragment 5 .
Theophylactus Simocatta , VII , P. 8 .
Gibbon : Op . cit , Vol 4 , P. 292 .
Bury : Op. cit , Vol II , P. 315
Obolensky : Op. cit , P. 477 .
Hauptmann : Les Rapports , P. 148

الخان) ويدعي بجان Bajan ، سفارة الي القسطنطينية يطلب من الامبراطور جستنيان السماح لهم بعبور الدانوب والاستقرار في إقليم بانونيا Pannonia ، وقد علم الإمبراطور سرا ، عن طريق أحد رسل الآفار ، أنهم يضمرون الشر والخيانة ، وأنهم سيعبرون الدانوب ، سواء قبل الإمبراطور أو رفض ، لذلك عمل علي عرقلة رسلهم ، وأعطي تعليماته إلي حاكم مؤيزيا Moesia ، وسكثيا Scuthia ، بالعمل علي تقوية الدفاع علي نهر الدانوب (١) ، ثم سمح للرسل بالانصراف ومنحهم الهدايا المعتادة ، والأموال التي استخدموها في شراء الملابس والأسلحة من القسطنطينية . وقد رأي الإمبراطور أنه ليس من السياسة في شئ رفض بيعها لهم، لكنه أرسل تعليماته سرا إلي جستين ، الوالي البيزنطي لمدينة قولخيس Colchis ، علي ساحل البحر الأسود إلي الشمال الشرقي من طرابيزون ، أن يستولي علي أسلحة الآفار حينما يمرون عبر إقليمه في طريقهم إلي بلادهم ، وقد نفذ جستين أوامر الإمبراطور (٢) . وكانت هذه الحادثة بداية العداء بين الآفار والإمبراطورية البيزنطية ، ولم يمتد العمر بالإمبراطور جستنيان لكي يري النتائج التي ترتبت علي هذه الحادثة ، لكن لم يمضي الكثير من الوقت علي وفاته في عام ٥٦٥ م. حتي قاد بجان خاقان الآفار ، قومه وعبروا الدانوب ، حيث أمنوا لأنفسهم البقاء في ولايات البلقان ، التي منيت علي أيديهم بالكوارث في الأعوام الستين التالية ، كما يتضح ذلك من عرضنا علي الصفحات التالية .

خلف جستنيان علي العرش ، الإمبراطور جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨ م) الذي ورث ضمن ما ورثه عن جستنيان ، عداء الآفار المتزايد ، فبعد أيام قليلة من اعتلائه العرش ، إستقبل جستين الثاني سفارة من الآفار ، وتمشيا مع سياسته تجاه أعداء الإمبراطورية المختلفين ، التي تتسم بالكبرياء والأنفة ،

(1) Menander : Fragment 5 .

(2) Bury : Later Roman Empire , Vol II , PP . 315 - 316

رفض دفع الجزية السنوية للآفار (١) وهكذا منحهم الفرصة لكي يظهروا عداءهم واضحا للإمبراطورية ، خاصة بعد أن أصبحوا قوة يحسب حسابها في ذلك الوقت .

ذلك أن الآفار أخذوا في القيام بدور نشط في منطقة وسط أوروبا ، وكان اللومبارديون والجيبداي Gepidae ، حتي ذلك الحين ، هما القوتان الأساسيتان علي حدود الدانوب وفي منطقة بانونيا ، لكن دخول الآفار الحومة غير الموقف من أساسه ، فقد ازدادت العلاقات سوءا بين اللومبارديين والجيبداي ، واشتعلت الحرب بينهما ، واضطر ملك اللومبارديين ألبوين Alboin أن يطلب المساعدة من الآفار ، وعقد مع الخاقان بجيان معاهدة تحالف ، تعهد فيها ألبوين بدفع عشر ما يملكه اللومبارديون من الماشية للآفار ، مقابل مساعدتهم له في الحرب ضد الجيبداي ، وأن يستولي الآفار ، علي أراضي الجيبداي في حال الانتصار عليهم (٢) .

وقد قام الآفار من جانبهم بمهاجمة الجيبيداي من ناحية الشمال الشرقي ،

---

(1) Menander : Fragment 14 .

John of Ephesus : Ecclesiastical History translated from syriac by Payne - Smith, Oxford , 1860 , Part VI , P. 24 .

(2) Paul The Deacon : History of the Lombards PP. 50 - 52 .

Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. ed. Bury , vol I , 1976, P. 195 .

Hauptmann : Les Rapports , PP. 138 , 150 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , P 47 .

راجع أيضا :

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، الاسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ٢٠٨

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقاتهم بالقوي المجاورة ، ص ١٢

علي حين هاجمهم اللومبارديون من ناحية الشمال الغربي . وفي المعركة التي دارت علي ضفاف نهر الدانوب ، ذُبح قونيموند Kunimund ملك الجيبيداي علي يد ألبوين ملك اللومبارديين وهرب عدد من الجيبيداي ووقع الباقون منهم تحت سيطرة الآفار ، خاصة أولئك الذين تمسكوا بالبقاء في أراضيهم واستولي الآفار علي أراضي الجيبيداي تحقيقا لاتفاقهم السابق مع اللومبارديين (١)

وهكذا أصبح اللومبارديون في محنة قاسية ، إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، بعد أن أصبح هؤلاء مجاورين لهم من الناحية الشمالية الشرقية ، بعد أن استولي الآفار علي أراضي الجيبيداي ، وبدا وكأن اللومبارديين لم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم استبدلوا عدوا بعدو آخر ولهذا فقد أقدموا علي الهجرة أو ما يعتبر المرحلة الأخيرة في هجرتهم ، فانطلقت جموعهم في عام ٥٦٨ م. بقيادة زعيمهم ألبوين إلي الأراضي الإيطالية ، فاجتازوا جبال الألب واخترقوا إيطاليا ، ونجحوا في الاستقرار في السهول الشمالية الفسيحة ، دون مقاومة تذكر وأقاموا دولتهم في تلك البلاد (٢) . وهكذا كان للآفار دور هام في هجرة اللومبارديين وفتحهم لشمال إيطاليا واستقرارهم هناك .

بعد رحيل اللومبارديين إلي ايطاليا ، احتل الآفار أراضيهم ، وبذلك بسطوا سيطرتهم علي كل السهل الهنغاري وأصبحوا قوة مسيطرة في وسط

---

(1) Hartmann Italy under the Lombards, P 195

Baynes The Successors of Justinian C Med H vol II ed. Bury, P. 268

(2) Hartmann Op cit, P 196

Bieher Op cit P 47

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي . ص ٢٠٨

أسامة زيد اللومبارديين ، ص ص ١٢ - ١٣

أوروبا ، وسادة إمبراطورية امتدت من بوهيميا إلي الدانوب الأدني ، ومن جبال الألب إلي السهول الجنوبية لروسيا ، وتمركزوا في وادي نهر تيس (Tisza) Theiss - في وسط أوروبا - وأدي ذلك بطبيعة الحال إلي تغيير ميزان القوي في هذه المنطقة [١] .

لم يكن منتظرا بعد كل ما بلغه الآفار من قوة ، أن يقبلوا رفض الإمبراطور جستين الثاني دفع الجزية السنوية لهم ، ومن ثمة بدأ الآفار في تهديد ممتلكات الإمبراطورية في إقليم تراقيا ، فأرسل اليهم جستين الثاني الجيش في عام ٥٦٩ م. بقيادة طيبريوس - الذي صار إمبراطورا فيما بعد - والتقي بهم في إقليم تراقيا وأحرز الانتصار عليهم [٢] . ولم يلبث الآفار ان ركزوا إهتمامهم علي مدينة سيرميا Sirmium التي تقع في شمال إقليم الليريا ، والتي تمتعت بمركز إستراتيجي ممتاز والتي تعتبر مفتاح التحصينات البيزنطية في هذه المنطقة ، وهذا ما دفع خاقان الآفار بجان إلي فرض الحصار بهدف الاستيلاء عليها حتي يفتح الطريق أمامه للوصول إلي باقي التحصينات البيزنطية وقد صمدت المدينة في وجه الآفار ، وأرسل الإمبراطور جستين الثاني قائده طيبريوس في عام ٥٧٤ م. مرة ثانية لحرب الآفار ، ولكنه هزم أمامهم هذه المرة ، واضطر الإمبراطور جستين الثاني إلي أن يعقد معهم تحالفا مقابل تعهده بدفع جزية سنوية تقدر بثمانين ألف

(1) Obolensky : The Empire and its Northern Neighbours , PP. 477 - 478 .
Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

(2) Johannis Biclarensis : Chronica Minora , ed by Th. Mommsen Berlin , 1894 , Vol II , P. 212 .

نوميسماتا (١) .

وقد حاول الامبراطور طيبريوس الأول (٥٧٨ – ٥٨٢ م) سغلال هذا التحالف مع الآفار ، واستخدمهم في كبح جماح السلاف ، الذين كانوا قد عبروا الدانوب في فترة مبكرة من القرن السادس الميلادي ، وانتشرت غاراتهم في بلاد البلقان ، مسببة فزعا هائلا لأهالي القسطنطينية ذاتها .

وحسب رواية المؤرخ ميناندر ، فإن الإمبراطور طيبريوس أرسل مندوبا عنه ، قاد ستين ألفا من الفرسان الآفار إلي والاشيا ، حيث هاجموا السلاف ، ونهبوا أراضيهم ، واخضعوهم لسيادتهم (٢) ، والجدير بالذكر أنه منذ ذلك الحين ، أصبح السلاف من رعايا الآفار ، وأصبحت غارات هذين الشعبين غارات مشتركة (٣) .

علي أن الآفار ما لبثوا أن نقضوا هذا التحالف مع طيبريوس ، وعادوا لمحاصرة مدينة سيرميا ، وقد اقترح الامبراطور طيبّريوس أن يزوج ابنته من خاقان

(1) Mennder : Fragment 34 .
Obolensky : Op. cit , 478 .
Breheir : Op. cit , PP. 47 - 48 .
Hauptmann : Les Raports , P. 160 .
والجدير بالذكر أن النوميسماتا هي عملة ذهبية بيزنطية ، كانت تساوي واحدا علي اثنين وسبعين من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسماتا تنقسم إلي ١٢ ميلياريسيا ، التي تنقسم بدورها إلي اثني عشر فلسا ، انظر :
Runciman : Byzantine Civilisation , Seventh impression , 1975 , P. 174 .
(2) Menander : Fragment 64 .
John of Ephesus , VI , P. 24 .
(3) Vasiliev : Op. cit , Vol I , PP. 178 , 196
Toynbeé : Op. cit , P. 633 N 6

الآفار بجان ، مقابل تخليه عن أطماعه في سيرميا . لكن بجان الذي كان يدرك تماما انشغال الامبراطور طيبريوس في الحرب ضد الفرس ، رفض عرض الامبراطور ، واستمر محاصرا للمدينة ثلاث سنوات (٥٧٩ - ٥٨٢ م) واستولي علي المناطق المحيطة بها ، ثم استسلمت المدينة ذاتها في النهاية للآفار في ٥٨٢ م. قبل موت طيبريوس بزمن وجيز (١) .

وهكذا سقط هذا الحصن الهام في يد الآفار ، وأصبحت أنهار السافا ، الدرافا ، والدانوب تحت سيطرة الآفار كما أصبح خاقان الآفارهو السيد الجديد لمنطقة البلقان ، أما أهالي هذه المنطقة فقد كانوا تحت رحمته تماما ، ونقتبس فقرة مما ذكره المؤرخ ميخائيل السرياني (٢) Michel le Syrien لندرك مدي معاناة الأهالي في هذه المنطقة اذ قال (٣) :

" هوجم الرومان من جديد ، بواسطة شعب متبربر لعين ، ورجال ذوي شعور مشعثة ، قدموا من الشرق الأقصي ، يسمون بالآفار ، وكذلك هوجم الرومان علي يد شعب أخر جاء من الغرب هم السلاف ، وأيضا من أولئك المعروفين باسم

---

(1) Menander : Fragment 65 .

- Theophylactus Simocatta : I , ch. 3 , PP. 44 - 45 .

- Theophanes : I , P. 278 .

- Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , depius l'epouque Romaine Jusqu'n au VIII e Siécle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 , P. 289 .

- Obolensky : Op. cit P. 480 .

- Hauptmann : Lea Rapportes , P. 160 .

- C. Med. H. vol II , Part I* , ed . Hussey , P. 68 .

(2) Chabot , la chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904 , X , P. 12 .

اللومبارديين، كل هؤلاء كانوا تحت سيادة الخاقان أو ملك الآفار ، اذ حاصروا مدن الرومان وغيرها من الحصون ، وقالوا للأهالي " إرحلوا عن بلادكم ، إزرعوا واحصدوا ونحن فقط الذين نأخذ محصولكم " .

من هذا يتضح مدي معاناة الأهالي في منطقة البلقان من جراء هذه الغارات المدمرة ، والتي إستمرت بنفس العنف حتي توفي الإمبراطور طيبريوس في ٥٨٢ م. وخلفه الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، وفي السنة الأولي من حكم هذا الأخير (٥٨٢ - ٥٨٣ م) قام الآفار والسلاف بغارة كبير ، وصلوا فيها إلي القسطنطينية ذاتها ، وحاصروا سور انستاسيوس خارج العاصمة ، كما أغاروا علي الممتلكات البيزنطية في البلقان ، واستولوا علي مدينة سينجيد نوم Singidunum (بلغراد الحالية) ، علي نهر الدانوب ثم ساروا شرقا ، واستولوا علي مدينة انخيالوس Anchialus المطلة علي البحر الأسود إلي المغرب من مدينة القسطنطينية ، ونزلوا جنوبا وهاجموا بلاد اليونان . .

وقد عرض لهذه الغارة الكبيرة عدد من المؤرخين المعاصرين وتناولها بعضهم بصفة عامة ، مثل يوحنا بيكلارنسيس الذي قال [(١)] : " إن السلاف انتشروا في مدن كثيرة في تراقيا ، ونهبوها ثم تركوها وهي خاوية ... ونهب الآفار تراقيا ، وحاصروا سور القسطنطينية العظيم " .

وذكر ميناندر هذا المعني نفسه ، وقال إن عدد الغزاة من الآفار

(١) النص اللاتيني هو :

" Sclavini in Thracia multas urbes Romanorum Pervadunt .... Avares Thracias Vastant et regiam urbem a muro longo obsident "

Iohannis Biclarensis , chronica , vol II , P. 215

الآفـــار

والسلاف وصل إلي المائة ألف رجل ، حين هاجموا تراقيا وبلادا أخري كثيرة (١) .

أما يوحنا الأفسوسي فقال عن هذه الغارة (٥٨٢ - ٥٨٣ م) ما يلي (٢) :

" تغلب شعب لعين يسمي بالسلاف ، علي كل بلاد اليونان ، وإقليم تساليا وتراقيا ، واستولوا علي المدن وعلي العديد من الحصون ، ونهبوها وأحرقوها ، واستعبدوا أهاليها ، ونصبوا أنفسهم سادة علي كل الاقليم ، واستقروا فيه بالقوة ، وتصرفوا فيه كما لو كان ملك خاص بهم ، دون خشية الله ، لان الملك (الإمبراطور البيزنطي) كان مشتبكا في الحرب مع الفرس ، وأرسل كل جيشه إلي الشرق ، وقد عاشوا في الإقليم في أمان تام ، واستقروا فيه ، وانتشروا قريبا وبعيدا كما لو أن الله قد أباحه لهم ، ونهبوا وأحرقوا وأخذوا الأسري ، وامتدت غاراتهم حتي وصلت إلي السور الخارجي للمدينة (القسطنطينية) وشتتوا قطعان خيل الإمبراطور وكان عددها يقدر بالآلاف ، كما فعلوا نفس الشئ نفسه مع كل ما وجدوه في طريقهم " .

وإن كان يوحنا الأفسوسي قد ذكر أن السلاف هم الذين قاموا بهذه الغارة ولم يذكر شيئا عن الآفار ، الا أن الثابت أن السلاف في هذه الفترة الزمنية (٥٨٢ - ٥٨٣ م.) كانوا من رعايا الآفار ، وتحت سيادتهم ، وكانت غاراتهم مشتركة ، كما سبق أن أوضحنا .

---

(1) Menander : Fragments 47 , 48 .

(2) John of Ephesus : Ecclesiastical History Part III , translated from syriac by Payne Smith, Oxford , 1860 . PP.432 - 33

وقد عرض المؤرخ المعاصر أفاجريوس لهذه الغارة أيضا فقال عنها [١] :

" قام الآفار بهجومين علي سور انستاسيوس ، واستولوا علي سينجيد ونوم ، إنخيالوس وكل الهيلاس ، والمدن والحصون الأخري ، واستعبدوا السكان ، وخربوا وأحرقوا كل شئ صادفوه في طريقهم " .

وهناك دليل أثري يؤكد غزو الآفار والسلاف في هذه السنة ٥٨٢ - ٥٨٣ م. لبلاد اليونان ، وهذا الأثر يتمثل في وجود تخريب في سوق أثينا Circa يرجع تاريخه إلي العام ٥٨٢ - ٥٨٣ م. ما زال باقيا حتي اليوم [٢] .

والجدير بالذكر أن أفاجريوس استعمل كلمة الهيلاس Hellada في نصه ولا ندري ماذا يقصد بالهيلاس علي وجه التحديد ، هل يقصد بلاد اليونان ؟ واذا كان يقصد بلاد اليونان فهل يقصد بها شبه جزيرة تساليا فقط ، أم تمتد لتشمل أيضا شبه جزيرة البلوبونيز ؟

لقد قام المؤرخ كارانيس Charanis بعمل دراسة وافية شيقة ، أوضح فيها استخدام كلمة الهيلاس Hellada في أعمال المؤرخين البيزنطيين خلال القرون الميلادية السادس والسابع والثامن ، أمثال بروكوبيوس Procopius أجاثياس Agathias ، ميناندر Menander ، افاجريوس Avagrius مالالاس Mallalas ، الامبراطور جستنيان في قوانينه الجديدة Novellae ، يوحنا الأنطاكي John of Antioch البطريرك نقفور Nicephorus Patriarchae ، ثيوفانيس Theophanes وغيرهم .

(1) Evagrius : Historia Ecclesiastica , VI , Ch 10 .

(2) Toynbeé : Op. cit , P. 634 .

وقد أثبت كارانيس من خلال دراسته هذه ، أن بروكوبيوس حين ذكر كلمة الهيلاس Hellada ، فانه كان يعني أقاليم بلاد اليونان القديمة ، وعلي وجه التحديد الاقليم الذي يقع جنوب ثرموبيلاي Thermopylae (Boudonitza) في اقليم تساليا ، ويشمل أيضا شبه جزيرة البلوبونيز Ploponnesus ، وأن المؤرخين الذين جاءوا بعد بروكوبيوس قد أخذوا عنه هذا التعريف لكلمة الهيلاس (١) .

لذلك فما عناه المؤرخون - خاصة ميناندر ، افاجريوس ، وثيوفانيس ، ببلاد اليونان التي خربها الآفار والسلاف انما هي بلاد اليونان بما فيها البلوبونيز أيضا

وعلي أثر هذه الغارة المدمرة التي قام بها الآفار ضد ممتلكات الامبراطورية في عام ٥٨٢ - ٥٨٣ ، إضطر الامبراطور موريس لشراء السلام منهم ، بدفع مبلغ كبير من المال علاوة علي الجزية السنوية المعهودة (٢) . لكن الآفار لم يخلدوا للسكينة في الفترة التالية بل هددوا السلام في عام ٥٨٦ - ٥٨٧ م. حين قاموا و ورعاياهم السلاف بغارة أخري كبيرة ، شملت الأقاليم التي تقع جنوب مؤزيا Moesia وسكثيا Scythia ، ثم حاصروا المدينة الهامة سالونيك (٣) في ٢٢ سبتمبر ٥٨٦،

(1) Charanis P. : Hellas in the Greeke Sources of Six th , Seventh , and Eighte Centuries , in late Classical and Medieval Studies in Honor of Albert Mathias Friend , princeton university press university press , 1953 , PP 161 - 173 .

(2) Hauptmann : Les Rapportes , P. 157 .

(٣) تعتبر مدينة سالونيك ، المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية ، وأهم قاعدة للاسطول البيزنطي في البحر الايجي ، ومرفأ لإصلاح السفن التي يصيبها التلف ، وهي عاصمة أقليم مقدونيا .

عن كل ما يتعلق بسالونيك ومميزاتها ونشاطها التجاري راجع :

اسمت غنيم · الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المعارف ، الاسكندرية =

ولمدة سبعة أيام ثم رفعوا الحصار عنها وهاجموا بلاد اليونان (الهيلاس) (١)

وقد أقدم خان الآفار علي تصرف خطير ، كانت له نتائج بعيدة المدي ، بالنسبة لتوزيع الخريطة السكانية في منطقة البلقان وبلاد اليونان قاطبة فقد أخذ خلال غزواته في أعوام ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٦ - ٥٨٧ م. في إجبار السكان الأصليين من اليونان والرومان علي الرحيل ، وأحل محلهم عناصر أخري من رعاياه السلاف ، وسجل ذلك كل من المؤرخين افاجريوس ، يوحنا الإفسوسي ، ويوحنا بيكلارنسيس (٢)

وقد تابع خاقان الآفار هذا الاسلوب فيما قام به بعد ذلك من غزوات ، وكان السكان الأصليون من اليونان والرومان يفرون أمام غزوات الآفار لمنطقة البلقان وبلاد اليونان ، بينما تكفل الخاقان بنقل الباقين منهم وابعادهم عن أوطانهم ، واعادة توطين سكان جدد من رعاياه في هذه الأماكن .

والأرجح أن الدافع لهذا التصرف الخطير ، هو رغبة الخاقان في إحتلال هذه المناطق إحتلالا دائما ، فضلا عن تأمين حدود امبراطوريته الشاسعة لا سيما وأن المنطقة الواقعة شمالي البلقان وحتي سيرميا كانت منطقة حيوية بالنسبة له ، حيث أنها تعتبر رأس الجسر لعبور الدانوب والوصول إلي امبراطوريته .

=١٩٨٣، ص ص ١٩٣ - ١٩٥

(1) Evagrius : VI , Ch. 10 .
Theophylactus Simocatta : I , P. 52 .
Theophanes : P. 253

(2) Evagrius : VI , Ch. 10
John of Ephesus : Ecclesiastical History , PP. 432 - 433
Johannes Biclarensis : Chronioca 215 .

ولم يتخل الخاقان عن سياسته هذه ، بل تابعها في السنوات التالية ، وتتضح هذه السياسة بصورة أوضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

فقد استغل الآفار انشغال الامبراطور موريس في الحرب ضد الفرس ، وأخذوا يعيثون فساداً هم ورعاياهم من السلاف وباقي العناصر الأخري الخاضعة لهم، في إقليمي تراقيا ومقدونيا ، وفي عام ٥٩٢ م. تمكن الامبراطور موريس من عقد الصلح مع الفرس وهيأ له ذلك الالتفات إلي جبهة الدانوب ، فنقل قواته إلي هناك ، وعهد إلي قائده بريسقوس Priscus بالعمل علي ايقاف غارات الآفار والسلاف هناك . ورغم جهود بريسقوس لتحقيق هذا الهدف ، الا أن الآفار والسلاف تمكنا من الاغارة علي المدينة الهامة سالونيك في ٥٩٧ م. ولم ينقذها منهم هذه المرة الا تفشي مرض الطاعون بينهم (١) .

علي أية حال نجح بريسقوس في النهاية في إخضاع السلاف واستعاد مدينة سنجيد ونوم (بلغراد) من يد الآفار . وفي عام ٦٠٠ م. ، جري عقد الهدنة مع الآفار وثبتت حدود الامبراطورية علي نهر الدانوب ، وتعهد موريس بزيادة الجزية السنوية لهم غير أنه لم يكد يمضي سوي عدة شهور حتي عبر بريسقوس بقواته نهر الدانوب سنة ٦٠١ م. وأشعل الحرب ضد الآفار هناك ، وأنزل الهزيمة الساحقة بقوات الآفار علي نهر تيس Theiss (٢) .

ولعل في ذلك ما يوضح سياسة بيزنطة التقليدية ، فاذا كانت بيزنطة غير

(1) Theophylactus Simocatta : VII , PP. 6 - 9 .
Baynes : The Successors of Justinian , in C. Med. H. Vol II , P. 296 .
Brehier : Vie et mort de Byzance , PP. 50 - 51

(2) Baynes · Op. cit , P 281 .

قادرة علي خوض غمار الحرب لأي سبب من الأسباب ، كان الإمبراطور يتعهد بدفع مبلغ سنوي للعدو ، وليسميه العدو جزية سنوية ان شاء ، أما الإمبراطور فلم يكن يري ذلك المبلغ المدفوع إلا استثمارا حكيما حتي تتحسن الظروف ويصبح قادرا علي القتال ، وعندئذ يتوقف عن الدفع ويخوض الحرب ، فاذا انتصر امتنع نهائيا عن الدفع ، اما إذا هزم فانه يعود ليدفع من جديد ، في انتظار جولة أخري [١] .

علي أية حال فمن الواضح أن الانتصار الذي أحرزه بريسقوس علي الآفار في ٦٠١ م. عند نهر تيس ، لم تحرز الامبراطورية البيزنطية مثله منذ زمن جستنيان، اذ بدا وكأن الحظ أخذ يتحول إلي صف الإمبراطورية ، لولا أن الحوادث جاءت علي عكس ما يتوقع موريس ، الذي إستبدت به الحماسة لمواصلة ظفرة علي الآفار ، فأبي أن يسمح لجنده بالعودة إلي العاصمة لقضاء فصل الشتاء (٧٠٢ م.) فتمرد الجند عليه ، ونادوا بأحد قادتهم ويدعي فوقاس إمبراطوراً ، وزحفوا علي العاصمة (القسطنطينية) وقتلوا الإمبراطور موريس ، ورفعوا فوقاس إلي العرش (٦٠٢ – ٦١٠ م.) . وكان عهد فوقاس كارثة بالنسبة للحدود الشمالية للإمبراطورية بل إمتد الخطر خلال السنوات الأولي من حكم هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م.) [٢] ، لأن حد التحصينات علي الحدود الشمالية ، الذي كان جستنيان قد بناه ، واصل انهياره أنذاك ، ولم تعد هناك قوات بيزنطية في ولاية دالماشيا بعد عام ٦٠٤ م. [٣] فتدفق الآفار والسلاف بأعداد هائلة علي منطقة البلقان ، وأخذوا يعيثون فسادا في تلك

---

(١) للمزيد من نظام الدبلوماسية البيزنطية راجع :

Runciman : Byzantine Civilisation , Cambridge , 1975 , PP. 155 - 162 .

(2) Theophylactus Simocatta · VIII , PP. 5 - 6

Obolensky : Op. cit , P. 481

(٣) موص ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٣١

البلاد من البحر الادرياتي حتي بحر ايجة ، وانتشروا في الليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، تراقيا ، ابيروس ، أخايا ، السيكلادز ، وقد هوجمت سالونيك أكثر من مرة ، وسقطت سالونا Salona عاصمة اقليم دالماشيا في يد الآفار والسلاف في عام ٦١٤ م. ، وهرع سكانها إلي أسفل التل يلتمسون الحماية داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم ، وهكذا نشأت مدينة سبالاتوس Spalato . وحدث الشئ نفسه مع سكان مدينة ابيدوروس Epidaurus ، الذين فروا من مدينتهم واستقروا علي ساحل البحر الادرياتي في المكان الذي عرف فيما بعد باسم راجوزا Ragusa [١] . وقد كتب ايزيدور [٢] أسقف أشبيلية I Sidore Bishop of

(1) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(٢) يسمي بالقديس ايزيدوروس St. I Sidorus ، وهو ينتمي إلي عائلة نبيلة ، فقد أبويه وهو في سن صغيرة ، فتولي شقيقه الأكبر ويدعي ليندر Leander تربيته وتعليمه ، وكان ليندر يشغل أسقف أشبيلية فكان من الطبيعي أن يوجه ايزيدور إلي تعليم الاهوت . وقد تاثر ايزيدور باراء القديس أوجسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م.) والبابا جريجوري الاول (٥٤٠ - ٦٠٤ م.) . وفي عام ٦٠٠ م. أصبح ايزيدور أسقفا لأشبيلية خلفا لشقيقه ، وأخذ علي عاتقه نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين ، واليهود الذين كانوا يمثلون جزءا كبيرا من سكان أسبانيا وقد كان لعلمه الغزير وشخصيته القوية أكبر الأثر في أن يصبح زعيما هاما للكنيسة الأسبانية ، ورأس عدة مجامع دينية في توليدو ، وأطلق عليه معاصروه لقب (آخر آباء الكنيسة الغربية العظماء) .

ومن أهم أعمال القديس ايزيدور تلك الموسوعة الشاملة التي أطلق عليها اسم Ethymologiac ، ولخص فيها آراء الكتاب المسيحيين الأول في العقيدة المسيحية ، وكذلك كتابات العلماء القدماء في مختلف أنواع المعرفة الانسانية ، وتكمن أهمية هذه الموسوعة ليس فقط في محتواها ، ولكن في كيفية عرض ايزيدور لأفكاره ، وقد أصبحت هذه الموسوعة مصدرا هاما للكتاب من أجيال متعاقبة ، وخاصة الذين لم يكن بمقدورهم التعرف علي المصادر القديمة (الكلاسيكية) وخاصة المكتوبة باللغة اليونانية . وإلي جانب هذه الموسوعة الهامة هناك كتابين تاريخيين لايزيدور ، الاول هو (التاريخ الكبير أو الحوليات الكبيرة) =

Seville [١] في بداية عهد الامبراطور هرقل يقول " ان السلاف انتزعوا بلاد اليونان من الرومان [٢]

وان كانت هذه المقولة تنطبق علي المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان ، الا أنها لا تنطبق علي المناطق الساحلية المواجهة للبحر الادرياتي والبحر الايجي ، لان السكان الأصليين انسحبوا تحت ضغط السلاف والآفار نحو المناطق المتاخمة للبحر ، وإلي الجزر المواجهة له ، وأدي ذلك فيما بعد إلي ازدياد العنصر اليوناني وتفوقه علي السواحل الجنوبية الشرقية . علي حين عمد العنصر الروماني إلي الاستقرار في السواحل الغربية ، أما الجانب الأكبر من شبه جزيرة البلقان وخاصة داخلها ، فقد أصبح اقليما صقلبيا ، وصارت المصادر البيزنطية تشير اليه علي أنه

== Chronica Maiora ، وهو عرض للحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتي عام ٦١٥ م. والكتاب الثاني هو ، (تاريخ ملوك القوط ، الواندال ، والسويفي) ويعتبر هذا الكتاب مصدرا هاما لتاريخ أسبانيا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة في ٤٧٦ م. حتي عصر ايزيدور

للمزيد عن قديس ايزيدور وأعماله راجع :

Fortaine J. : I Sidore de Seville et la culture Classique dans l'espagne wisigothique , 2 vols , 1959 .

(١) سيفيل هي مدينة أشبيلية وهي ميناء بحري هام في جنوب أسبانيا ، وقد تعرضت لغزو الواندال في أواخر القرن الرابع الميلادي ، ثم استولي عليها القوط الغربيون وفتحها المسلمون في عام ٧١٢ م وأصبحت جزءا من ممتلكات خليفة قرطبة ، وبلغت درجة كبيرة من الازدهار ، وأصبح ميناؤها من أكثر الموانئ الاسبانية نشاطا ، وفي عام ١٢٤٨ م. ، استولي عليها الملك فرديناند الثالث ملك قشتالة ، وواصلت المدينة ازدهارها ونشاطها التجاري الكبير تحت حكمه

للمزيد عن سيفيل راجع .

O'Callaghan J. F . A History of Medieval Spain , 1975

(2) I Sidore of Seville Chronica Maiora , in Patrologia Latina , LXXX III , col 1056

اقليم الصقالبة Sclavinia (١) .

وفي الوقت الذي كان الآفار يقومون بغاراتهم تلك علي شرق أوروبا ، لم يغفلوا أمر ايطاليا وواصلوا تحالفهم مع اللومبارديين ، ففي عام ٥٩١ م. ساعدوا ملكهم اجيلولف Agilulf في الهجوم علي الحدود الشمالية الايطالية ، وفي عام ٦٠٠ - ٦٠١ م. ساعدوه أيضا في الاستيلاء علي بادوا Padua ، وفي تخريب شبه جزيرة استريا Istria علي الساحل الشمالي للبحر الادرياتي ، كما ساعدوه في فتح مدينة مونسليس Monselice ، وفرضوا السلام علي دوق فريولي Friuli واحتلوا كريمونا Cremona ، ومانتوا Mantua في عام ٦٠٢ م. (٢) .

علي ان الآفار لم يقيموا بعد ذلك وزنا للمعاهدات المبرمة بينهم وبين اللومبارديين ولم يلبثوا أن أخذوا يشنون غاراتهم علي شمال ايطاليا ، فقد حشد خاقان الآفار جيشا كبيرا عام ٦١٠ م. وخرج علي رأسه قاصدا الاراضي اللومباردية ، وتوغل في شمال ايطاليا محدثا الخراب والدمار في كل مكان حل به ، ثم اتجه بجيشه إلي البندقية ، فتصدي لهم ، جيسولف Gisulf دوق فريولي ، ولكنه قتل علي ايديهم هو ومعظم جيشه ، وفرض الآفار الحصار علي دوقية فريولي ، فتولت روميلدا Romilda أرملة جيسولف الدفاع عن المدينة ، ويقال أنها رأت خاقان الآفار أثناء تفقده أسوار المدينة ، فاعجبت به وأرسلت اليه سرا تخبره انه اذا وعدها بالزواج فانها سوف تفتح له بوابات المدينة ، وبالفعل تم الاتفاق بينهما ،

(1) Lemerle : Invasions et migrations dans les Balkans , P. 303 ff.

Ostrogosky : Op. cit , PP. 93 - 94 .

Vasiliev . Op. cit , P 196

(2) Hartmann : Italy under the Lombards P 201

وسلمت له المدينة . وقد أجري الآفار عمليات نهب وسلب واسعة النطاق لكل بيت من بيوتها ، وحملوا الأهالي أسري ، وقد أوفي الخاقان بوعده بالزواج من روميلدا ، ولكن ليوم واحد فقط . ثم دفع بها إلي أتباعه ، وانتهي بها الأمر إلي القتل علي أيديهم ، ثم عاد الآفار بغنائمهم إلي بانونيا (١)

ولم تستمر غارات الآفار علي ايطاليا طويلا ، وذلك بسبب انشغالهم بتحقيق أهدافهم في شبه جزيرة البلقان ، وفي العاصمة البيزنطية نفسها

فقد شهد عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م.) صراعا عنيفا بين البيزنطيين من جهة ، والآفار من الجهة الأخري ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا أنه كان صراع حياة أو موت بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، بعد أن فرض الآفار ورعاياهم من السلاف والجيبيداي والبلغار والسيكثيين وغيرهم من القبائل ، الحصار البري والبحري علي العاصمة البيزنطية وذلك في عام ٦٢٦ م. عاقدين العزم علي الاستيلاء عليها ومستغلين انشغال الامبراطور هرقل في حربه مع الفرس الذين شنوا هجوما عنيفا علي الممتلكات البيزنطية في أرمينية وآسيا الصغري ومصر ، وبعد أن وصل الفرس إلي مدينة خلقيدونية Chalcedon علي الضفة الآسيوية لمضيق البسفور، وأصبحوا في مواجهة العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

ورغم صعوبة الموقف بكل أبعاده ، وتأزمه إلي درجة خطيرة ، بعد أن أصبحت

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards, PP. 179 - 180.
Hodgkin : Italy and her invaders, PP. 52 - 53, 600, 744
Hartmann : Italy under the Lombards, P. 203.
محمد الشيخ . أوروبا العصور الوسطي ، ص ٢١٦
أسامة زيد : اللومبارديون ، ص ص ٢٤ - ٢٥

بيزنطه وجها لوجه أمام العدوين اللذين طالما ارتعدت منهما ، وهما الفرس والآفار ، الا أن التوفيق الذي حققته بيزنطه في مواجهة هذين العدوين والانتصار الذي احرزته عليهما ، يرجع إلي عبقرية الامبراطور هرقل وخططه العسكرية الناجحة في مواجهة الفرس والآفار من جهة ، ومن جهة أخري يرجع إلي تلاحم القوي البيزنطية المختلفة من شعب وجيش ونبلاء وكنيسة في مواجهة هذه الأخطار جميعا .

ويتميز الصراع بين الآفار والدولة البيزنطية في عهد هرقل بتشابك أحداثه مع أحداث الحرب بين البيزنطيين والفرس ، حين وجد الآفار في هذه الحرب فرصتهم الذهبية لتحقيق أطماعهم والاستيلاء علي العاصمة البيزنطية ذاتها .

ونظرا لان الحرب البيزنطية الفارسية [١] قد اتسع نطاقها ، وكثرت أحداثها ، واستغرقت فترة زمنية طويلة ، ونظرا لانها ليست الموضوع الرئيسي في هذا البحث، لذلك تتم الإشارة إليها سريعا دون الدخول في التفاصيل ، بما يخدم موضوعنا الرئيسي ويلقي الضوء عليه فحسب .

فقد استأنف الفرس حربهم ضد بيزنطه وتابعوا تغلغلهم في منطقة الشرق

(١) بخصوص الحرب البيزنطية الفارسية بكافة تفاصيلها راجع :

Pisidia : De expeditione persica . Heraclias , in C. S. H. B. ed. Bonnae , 1838 - 1839 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , ed . , De Boor , Leipzig , 1880 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 109 .

Vasiliev : Op. cit , PP. 194 - 199 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , PP 53 - 57 .

Baynes : The Successors of Justinian , C. Med. H. vol II , PP. 287 - 300 .

الأدني ، ورغم ما حققته بيزنطه من انتصار علي الفرس في عام ٦١١ م. بعد أن أجبرتهم علي الانسحاب من قيصرية ، الا أن الهجمات البيزنطية المضادة في سورية وأرمينية انتهت بالفشل ولم تحقق ما هدفت اليه ، ومنيت الجيوش البيزنطية أمام الفرس بهزيمة كبيرة عام ٦١٣ م. بالقرب من انطاكية مما ساعد الفرس علي تقوية مراكزهم في معظم المناطق التي هاجموا بيزنطه فيها ، فتقدموا باتجاه الجنوب واحتلوا دمشق في عام ٦١٤ م. ، ثم ساروا شمالا إلي قيليقية واحتلوا قلعة طرسوس الحصينة ، كما تمكنوا من طرد البيزنطيين من أرمينية .

ولعل أقسي الضربات التي تلقتها بيزنطة في هذه الحرب هي احتلال الفرس لمدينة بيت المقدس ، بعد ان حاصروها لمدة ثلاثة أسابيع ، وحين دخل الفرس المدينة اشعلوا فيها الحرائق وأعملوا القتل والذبح في سكانها لعدة أيام ، وخربت نتيجة هذه الحرائق ، كنيسة القبر المقدس ، ووقع في قبضة الفرس الصليب المقدس ، أو صليب الصلبوت ، الذي يعتبرونه أقدس الآثار المسيحية ، والذي تألموا كثيرا لفقده اذ حمل الفرس هذا الصليب إلي عاصمتهم المدائن . وفي سنة ٦١٥ م. عاود الفرس هجماتهم علي آسيا الصغري ، وتوغلت بعض فرقهم حتي كريسوبوليس علي البسفور .

ويبدو أن خاقان الآفار وجد في هذه الظروف التي كانت تمر بها الامبراطورية البيزنطية الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه ، فتقدم في يونيو ٦١٧ م. بطلب مقابلة الإمبراطور هرقل ، فاستجاب الإمبراطور لطلبه ، ورتب أمر هذه المقابلة، البطريق أثاناسيوس ، ووزير الخزانة كوزماس ، وتمت المقابلة في هرقلية Heraclea وهي احدي ضواحي القسطنطينية ، وتقع إلي الشرق منها وتطل علي بحر مرمرة ، وتوقع هرقل أن يطلب الخاقان زيادة الجزية السنوية التي يدفعها للآفار ، لكن ما

ث أن خاب ظن الامبراطور حينما لم يعرض الخاقان لهذا الموضوع ، وانما طلب ما
و أفضل وأثمن ألا وهو تسليم العاصمة البيزنطية نفسها (١) .

وكان من الطبيعي أن يرفض الامبراطور هذا الطلب ، ومن إشارة بسوط
خاقان ، اندفع الآفار من مخابئهم نحو الامبراطور الذي أدرك مدي الخطر الذي
واجهه وتتعرض له العاصمة البيزنطية ، فخلع تاجه وعباءته الأرجوانية ، وإخفاهما
حت ذراعه ، وانطلق هاربا ، فأخبر الحامية والأهالي بالخطر الذي بات يتهددهم ،
ما لبثت حشود الآفار أن أخذت تتدفق إلي سهل هبدومون Hebdomon علي
طرف الجنوبي الشرقي للقسطنطينية ، حيث نهبوا كنيستي القديس كوزماس
لقديس داميان ، ثم عبروا إلي القرن الذهبي وهو إلي الغرب من العاصمة ، حيث
اجموا كنيسة كبير الملائكة Archangel ، وحطموا المائدة المقدسة بها ، ووقعت
ي ايديهم أعداد هائلة من الأسري والسبايا ، جمعوهم من ضواحي القسطنطينية ،
ذكر المؤرخ نورمان بينز أن عددهم وصل إلي المائتين وسبعين ألف رجل وإمرأة .
ن كان هذا الرقم يبدو مبالغا فيه ، وعاد الآفار بالغنائم والأسري إلي ما وراء
انوب (٢) .

وفي ربيع عام ٦١٩ م. غزا الفرس مصر أغني أقاليم الامبراطورية
يزنطية، فأدي ذلك الغزو إلي نقص امدادات العاصمة القسطنطينية من المؤن ،
سيما القمح الذي كان يصلها من مصر . وهكذا أصبحت معظم ولايات الشرق

---

(1) Baynes : Op. cit , P. 291 .
Brchier : Vie et mort de Byzance , P. 54 .
Ostrogorsky : Op. cit , P. 95 .
(2) Baynes : Op. cit , P. 291 .

ـــــار

الأدني في قبضة الفرس ، وبدأ وكأنهم سيسترجعون أمجاد امبراطوريتهم القديمة . وبلغ من سوء الأحوال في بيزنطة أن فكر الامبراطور هرقل ، في نقل عاصمته من القسطنطينية إلي قرطاجة Carthage في شمال أفريقية ، ليقود من هناك حركة المقاومة ضد أعدائه المتربصين به من كل ناحية . لكنه لقي معارضة شديدة من جانب البطريرك سيرجيوس Sergius ، الذي نجح في اقناع الامبراطور بالتخلي عن هذه الفكرة ، ووضع تحت تصرفه ثروة الكنيسة من الذهب والفضة لتستخدم في مواجهة هذه الأزمة ، كما أصلحت الكنيسة ذات البين بين حزبي الخضر والزرق ، وتفهم الجميع حدود وأبعاد الخطر المحدق ببيزنطه حتي بلغ الأمر إلي حد أن توزيع الخبز مجانا ، وهو حق لأهالي العاصمة وامتيازا لهم منذ افتتاح قسطنطين الأكبر للعاصمة البيزنطية في مايو ٣٣٠ م. ، قد أمكن ايقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة بين الأهالي لفقدهم هذا الامتياز [١] .

ولما كان الامبراطور يريد أن يتفرغ لحروبه في آسيا ضد الفرس ، فقد وقع معاهدة صلح مع خاقان الآفار في عام ٦١٩ م. ، وتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال كجزية سنوية ، ثم عين الامبراطور هرقل مجلس وصاية علي ابنه وولي عهده قسطنطين الثالث ، ورأس هذا المجلس البطريرك سيرجيوس والماجستر بونوس ، وفي يوم الاثنين ٥ أبريل ٦٢٢ م. أقيم احتفال ديني كبير للإمبراطور غادر علي أثره العاصمة إلي آسيا الصغري ، حيث قضي الصيف بكامله يدرب جنوده ، ثم بدأ القتال مع الفرس في الخريف من نفس العام ٦٢٢ م. وتمكن عن طريق مناورة عسكرية بارعة ان يشق طريقه إلي أرمينيا وأجبر الفرس علي ترك مواقعهم في

(1) Nicephori Patriarchae : Breviarum , PP. 10 - 12 .
Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 93 .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص . ٢٣٣

المرات الجبلية في آسيا الصغري ، فتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي علي أرض أرمينية ، وجرت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار البيزنطيين وبذلك حقق هرقل أول أهدافه ، وحرر آسيا الصغري من الفرس الذين كانوا يحتلون بعض مقاطعاتها (١) .

وأثناء غياب الامبراطور هرقل عن عاصمته القسطنطينية حاول خاقان الآفار أن ينقض الصلح مع البيزنطيين ، لكن هرقل عاد سريعا إلي العاصمة ، وزاد في مقدار الجزية التي كان يدفعها للآفار بناء علي الاتفاق السابق بينهما كما أرسل بعض أقربائه كرهائن لديهم (٢) ، وذلك حتي لا تفتح أمامه جبهة قتال ثانية مع الآفار ، يكون لها تأثير سئ علي حربه مع الفرس .

وشهد عام ٦٢٦ م. أحداثا هامة وخطيرة في الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس من جهة ، وبين البيزنطيين والآفار من جهة أخري ، فقد صمم حاكم الفرس كسري الأول انوشروان (٥٣١ – ٥٧٩ م) علي حشد جيوشه لسحق البيزنطيين وقامت خطته علي أساس أن يستوقف أحد جيوشه هرقل بينما يزحف جيش آخر علي خلقيدونية Chalcedon ويهاجم العاصمة (القسطنطينية) ، ومن أجل ذلك اتصل الفرس بالافار أعداء بيزنطة ، وقام تحالف بين الفرس من جهة والآفار ورعاياهم من الجهة الأخري (٣) ، وكان هذا التحالف هو ما يخشاه هرقل ، وربما من

(1) Baynes : Op. cit , PP. 292 - 293 .
Ostrogorsky : Op. cit , PP. 100 - 101 .
(2) Ostrogorsky : Op. cit , P. 101 .
Baynes : Op. cit , P. 292 N. 2.
(3) Baynes : Op. cit , P. 295 .
Vasiliev : Op. cit , P. 197 . ==

أجل ذلك كان يحاول دائما أن يشتري ود الأفار بدفع الجزية لهم وزيادتها مرة تـ
الأخري ، حتي لا يضطر لخوض حرب ضد خصمين في وقت واحد ولكن حدث هـ
ذلك العام (٦٢٦ م.) ما كان يخشاه هرقل ويحاول تفاديه ، وهو تعرض العاصمه
البيزنطية للحصار برا وبحرا .

ففي الوقت الذي ظهر فيه القائد الفارسي شهر براز أمام مدينة
خلقيدونية في أول يونية ٦٢٦ م. حيث قام باحراق ضواحي المدينة بكل ما
تحتويه من كنائس ودور للسكن ، انتظر الفرس وصول الأفار ، الذين ظهرت
مقدمة جيشهم أمام مدينة أدرنة في يوم الاحد ٢٩ يونية وأصبح موقف
بيزنطة في غاية الخطورة ، لهذا حاول البيزنطيون تقويض هذا التحالف
الفارسي الأفاري ، وأرسلوا إلي الخاقان رسولا بيزنطيا هو البطريق
أثاناسيوس Athanasius الذي عرض استعداد البيزنطيين قبول كل طلبات
واجابة رغباته علي شرط واحد فقط هو أن يتخلي عن خططه في غز
القسطنطينية ، . لكنه رفض وأكمل الأفار سيرهم حتي وصلوا إلي
الضواحي الشرقية للعاصمة وذلك في يوم ٨ يولية ٦٢٦ م. ، وأرسلوا دوريات
استطلاعية تجاه القسطنطينية قامت بعمل اتصالات بجيش الفرس المرابط
أمام خلقيدونية ، عن طريق أشعال النيران . كما قاموا بتخريب القناة المائية
التي تمد العاصمة بالمياه ، وفي يوم الثلاثاء ٢٩ يولية ٦٢٦ م. وصل الأفار بجيشهم
كاملا إلي أسوار العاصمة البيزنطية وكان جيشهم يبلغ عدده نحو ثمانين ألف
رجل من الأفار والسلاف والجيبيداي والبلغار والسيكثيين وغيرهم من القبائل
الأخري الخاضعة للأفار ، وعسكروا أمام الأسوار الواقعة في الجهة الشرقية من

:= Brehier Op. cit P. 56

القسطنطينية [١] .

وقد اتخذ الماجستر بونوس عدة اجراءات سريعة من أجل الدفاع عن القسطنطينية ، بينما أخذ البطريرك سيرجيوس يشجع ويقوي من عزيمة الشعب ، الذي كان يعاني من شدة الخوف ، وقد أرسل الامبراطور هرقل الذي كان بعيداً عن عاصمته يقاتل الفرس فصيلة من جيشه لتقوية دفاعات العاصمة وكلفها بابلاغ المسئولين في بيزنطة بأوامر الامبراطور الخاصة بخطط الدفاع ، وأخذ البطريق بونوس والبطريرك سيرجيوس يتفقدان الأسوار ويلهبان حماسة الدافعين عنها [٢] .

وفي يوم الخميس ٣١ يولية أخذ الآفار يتفقدون الأسوار ، ووقع اختيارهم علي المكان المتوسط من الأسوار ، الواقع بين بابي بمبتون Pempton ، وبولياندريون Polyandrion في جنوب القسطنطينية ، وركزوا علي هذا الجزء من الأسوار ، وحشدوا أمامه الجانب الأعظم من قواتهم ، فكان السلاف علي خط المواجهة ، يليهم الآفار ، أما باقي الأسوار فقد حشدوا أمامها قوات من السلاف وباقي العناصر الأخري المشتركة معهم والخاضعة للآفار .

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , ed . Bekker , in C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 , V , PP. 194 - 201 , 401 .

Theodore Syncellus , ed . Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum impressum ex tomo XXX , Dissertationum philologicarum Academiae , Litterarum Cracoviensis , 1900 , PP. 8 , 21 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium ed. de Boor , leipzig , 1880 , PP. 17 , 25 .

Theophanes : Chronographia , ed. de Boor , Leipzig , 1883 , P. 315 .

(2) Theodore Syncellus, PP. 9 , 12 .

Barisié F. : Le Siége de Constantinople , par les Avares et les Slaves en 626 , dans (Byzantion) revue international des Etudes Byzantines , tome XXIV , Bruxelles , 954 , P. 380 .

ويبدو أن الآفار قد أدركوا أنه ينبغي أن تحاصر القسطنطينية بحرا أيضا ، لأن العاصمة كانت تمثل رأس مثلث يطل ضلعان منه علي المياه بينما يطل الضلع الثالث علي البر وحصارها من البر فقط يتيح لها أن تحصل علي المؤن والأغذية والامدادات العسكرية عن طريق البحر فيطول الحصار ويفشل في النهاية ، واذا حوصرت بحرا فقط ، فانها تستطيع أن تحصل علي ما يلزمها من مؤن عن طريق البر ، ويطول الحصار ويفشل أيضا ، لذلك استعان الآفار باسطول السلاف وحاصروا القسطنطينية بحرا وكان تركيزهم أشد ما يكون علي مياه القرن الذهبي في الناحية الغربية من العاصمة.

وقد اقتصرت الحرب بين الطرفين البيزنطي والآفاري حتي ذلك الوقت ، علي المناوشات المحدودة ، سواء في البر أو في البحر علي حد سواء ، وأرسل الماجستر بونوس إلي خاقان الآفار يعرض عليه أن يرفعوا الحصار عن القسطنطينية ويرحلوا، مقابل أن يدفع لهم تعويضا ماليا كبيرا ، بالاضافة إلي الجزية السنوية ، لكن الخاقان رفض هذا العرض ، وأصر علي أن يتم تسليم العاصمة له ، بعد اخلائها من أهلها ، الذين عليهم أن يغادروها دون أن يحملوا معهم أية أمتعة أو ثروات(١) .

ويبدو أن خاقان الآفار رأي أنه تشدد في مطالبه ، وأراد أن يفتح باب المفاوضات مع البيزنطيين من جديد ، فأرسل إلي المسئولين في بيزنطة يوم الأحد ٢ أغسطس ٦٢٦ م. يطلب ارسال سفارة اليه من أجل التفاوض ، وبعد مشاورات في القصر الامبراطوري بين ولي العهد قسطنطين الثالث ، والبطريرك سيرجيوس ، والماجستر بونوس ، ورجال مجلس الشيوخ (السناتو) فتقرر ارسال وفد إلي

(1) Theodore Syncellus , PP. 15 - 20 .

Barisić : Le Siége de Constantinople , P. 383 .

الخاقان علي رأسه رجل الدين ثيودور سنكيلوس ، حاملين معهم الهدايا الثمينة للخاقان ، وعروض بيزنطة للسلام ، ويبدو أن القائد الفارسي شهر براز الذي كان يعسكر أمام مدينة خلقيدونية ، قد علم بأمر هذه المفاوضات ، فسارع بالعمل علي تقويضها ، فارسل ثلاثة رسل من طرفه إلي الخاقان وافوه في معسكره ، واجتمعوا به ، ويبدو انهم حرضوه ضد البيزنطيين اذ سرعان ما تغيرت سحنته ولهجته مع الرسل البيزنطيين " مثلما تتغير الحرباء " علي حد تعبير ثيودور سنكيلوس ، فعاد يصر من جديد علي ضرورة اخلاء القسطنطينية من أهلها وتسليمها اليه . وعندئذ رفض الرسل البيزنطيون شروطه وغادروا معسكره عائدين إلي القسطنطينية (١) .

كان ذلك مبررا لاشتعال المعركة بين البيزنطيين وجيش الأفار برا وبحرا في يوم الأربعاء ٦ أغسطس ٦٢٦ م. واستمر القتال علي امتداد الاسوار طوال النهار وجزء من الليل ، أصيب خلاله الطرفان باضرار بالغة ، وان كانت خسارة الأفار أكبر من خسارة البيزنطيين ، واستونف القتال بيوم الخميس ٧ أغسطس ، واختلطت أصوات آلات القتال بصيحات الحرب المرعبة ، في نفس الوقت جرت معركة بحرية كبيرة بين الأسطول البيزنطي واسطول المهاجمين كان مسرحها خليج كيراس Keras في القرن الذهبي ، وتمكن الأفار من الاستيلاء علي ملحقات قصر بلاكرناي ، الذي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من القسطنطينية ، وأخذوا في الاقتراب من القصر شيئا فشيئا ، لكن الماجستر بونوس أصدر أوامره للسفن الحربية بالالتفاف حول سفن المعتدين فأحاطوا به من كل جانب واشتعل القتال ، واندفع المقاتلون من الجانبين مهاجمين بالرماح والسيوف والحراب ، وثقب البيزنطيون سفن عديدة لاعدائهم فغرقت بمن فيها ، وكثر عدد القتلي الذين ذبحوا

(1) Theodore Syncellus : PP. 11 , 14 - 40 .

Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 323 - 348 .

بسيوف البيزنطيين ، لدرجة أن اصطبغت مياه البحر باللون الأحمر لكثرة ما سال فيها من دماء ، وأبلي المقاتلون الأرمن في الأسطول البيزنطي بلاء حسنا وقتلوا وأغرقوا عددا كبيرا من البحارة السلاف ، ونجحت اعداد أخري منهم في السباحة والوصول إلي الشاطئ ، لكن خاقان الآفار الذي كان يراقب المعركة أمر بقتلهم حتي يجبر الباقين منهم علي القتال وعدم الفرار ، الا أن اعدادا أخري منهم آثرت الفرار والاختباء في الجبال ، وانتهي أمر اسطول الآفار تماما في هذه المعركة ، وامتلأت مياه القرن الذهبي القريبة من قصر بلاكرناي بجثث القتلي وبالزوارق الخاوية التي تتقاذفها المياه هنا وهناك ، وحينما أدرك خاقان الآفار أنه خسر المعركة ، أسرع إلي خيمته وجثي علي ركبتيه وظل يلطم رأسه وصدره (١) .

وأعلن المدافعون عن القسطنطينية نبأ انتصارهم علي الملأ ، ورفعوا رؤوس القتلي من الاعداء فوق رماحهم ، مما أدي إلي انسحاب كتائب السلاف واحدة في أثر الأخري ، وخوفا من الفرسان الآفار ، انطلق السلاف فارين ، وانتقلت عدوي الفرار إلي البحارة السلاف الذين كانوا مختبئين في الجبال ، فأخذ الفرسان الآفار في مطاردتهم ، علي حين أخذ المشاة في إخلاء أماكنهم تحت أسوار القسطنطينية . وأصدر الماجستر بونوس أوامره إلي كل الجنود البيزنطيين الذين كانوا خارج أسوار العاصمة أن يدخلوا إليها ، وأخذ الجميع يحتفلون بهذا النصر العظيم ، سواء في الكنائس أو المنازل أو الشوارع ، وخرج الماجستر بونوس والبطريرك سيرجيوس في يوم ٨ أغسطس إلي خارج أسوار العاصمة واشرفا علي حرق جميع آلات الحرب التي تركها

(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المعركة في المصدرين التاليين :

Theodore Syncellus , PP. 12 - 40 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , PP. 6 - 24 .

المعتدون تحت الأسوار (١) .

أما القائد الفارسي شهر براز وجيشه ، فقد استمروا معسكرين أمام خلقيدونية ، وقال ثيودور سنكيلوس أنهم استمروا أمامها (أياما عديدة) (٢) بعد رفع الأفار الحصار عن القسطنطينية ، علي حين ذكر ثيوفانيس وسكيليتزيس أن شهر براز " قضي فصل الشتاء " (٣) أمامها ، والغالب أن شهر براز انسحب من أمام خلقيدونية في فصل الربيع من عام ٦٢٧ م. (٤) .

والملاحظ أن شهر براز لم يكن له دور كبير في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. ، اذ لم يشترك في هذا الحصار لا بالرجال ولا بالآلات ولا بالأسطول ، والأرجح أنه أراد من وصوله أمام خلقيدونية أن يشل حركة هجوم هرقل علي أرمينية، ويظهر للبيزنطيين أن ما أحرزه هرقل من انتصارات علي الفرس لم يكن لها قيمة كبيرة ، بدليل وصول الفرس إلي خلقيدونية المواجهة للعاصمة البيزنطية وربما أراد أن يجبر هرقل علي العودة لانقاذ عاصمته ، والدفاع عنها ضد الأعداء ، وبذلك تتاح للفرس فرصة استعادة مراكزهم في الاقاليم التي انتزعها منهم . لكن هرقل كان بعيد النظر فصمد في ميدان المعركة في الشرق ، وآثر عدم العودة إلي العاصمة ، فأفسد علي الفرس خططهم ، وهكذا لم يحقق الفرس أية مكاسب من وراء هذا التحالف الفارسي الأفاري .

(1) Theodore Syncellus , PP. 7 - 37 .

(2) Theodore Syncellus , PP. 17 - 22 .

Manjlovic : Le peuple de constantinople , dans (Byzantion) tome II , 1936 , P. 632 .

(3) Theophanes : P. 316 .

Skylitzes : Excerpta Exbreviaro Historiae , webri , Bonnae , 1840 , P. 729 .

(4) Barisié : Op. cit , P. 390 .

هذا عن الفرس ، أما الآفار ، فقد كانت خسارتهم فادحة ، ولا نكون مبال
اذا قلنا أن فشل الآفار في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. كان نقطة تح
خطيرة في وضعهم السياسي والحربي ، علي النحو الذي يتضح من خلال عرض
التالي للحوادث .

ذلك أن العاصمة البيزنطية بما لها من موقع ممتاز علي مضيق البسفور
وبما تملكه من ثراء ورخاء ، جذبت الآفار اليها وبهرت أنظارهم منذ أمد بعيد
وبعد تجربة لهم فاشلة في عام ٦١٧ م. للاستيلاء علي المدينة عنوة ، لم يقنع
لا بالأموال ولا بالهدايا التي قدمت لهم مع هدنة عام ٦١٩ م. ، وأصر
علي الاستيلاء علي العاصمة نفسها ، وقاموا بمحاولتهم هذه في عام ٦٢٦ .
وكانت الظروف مهيأة لهم تماما في ذلك الوقت ، فالتوقيت كان مناسبا نظ
لانشغال الإمبراطور هرقل بحربه ضد الفرس ، وكان بعيدا عن عاصمته هو
ومعظم فرقه العسكرية ، كما أن الاستعدادات العسكرية كانت أيضا في صال
الآفار ، اذ وصل جيشهم إلي نحو ثمانين ألف مقاتل ، وهو عدد يفوق ثلاث
أربع مرات عدد المدافعين عن العاصمة البيزنطية ، كما أنهم أتوا بآلات حصا
كافية ، وتنبهوا إلي ضرورة حصار المدينة برا وبحرا ، حتي لا تستفيد من أ
امدادات عسكرية أو تموينية يمكن أن تصل إليها ورغم ذلك كله فش
الحصار ، وليس هناك من تعليل لذلك سوي أن الآفار ورعاياهم من البلغا
والجيبيداي والسلاف وغيرهم من القبائل كانوا يفتقرون إلي النظام ، كما أن بعض
هذه العناصر أخذت تقاتل بعضها البعض أمام العاصمة البيزنطية مث
السيكثيين الذين أخذوا في قتل السلاف ، ثم تغلب عليهم السلاف بعد ذل

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 78 - 81 .
Barisić : Op. cit , P. 395 .

وقتلوهم [١] . وقد حالت هذه المذابح المتبادلة بين هذه العناصر وبين تحقيق أهداف الحرب التي جاؤا من أجلها . وذلك علي عكس الحال بالنسبة للبيزنطيين ، الذين تكاتفت فئاتهم ، والتفوا حول قادتهم من أجل هدف معين ، وخاضوا معركة كانت بالنسبة لهم معركة حياة أو موت ، فأما الانتصار علي هذه القبائل، والإحتفاظ بعاصمتهم ، وإما يفقدون كل شئ ويصبحون عبيدا لهؤلاء البرابرة . أضف إلي ذلك أنهم كانوا يدافعون عن عاصمتهم وفقا لخطط وتدابير مدروسة ومنظمة ، اشترك في وضعها الامبراطور هرقل نفسه ، والماجستر بونوس ، كما قام الاسطول البيزنطي بدور هام في الدفاع عن العاصمة وألحق الدمار باسطول السلاف في مياه القرن الذهبي . كما قامت الكنيسة أيضا ممثلة في البطريرك سيرجيوس ورجال الدين بدور رئيسي في تقوية عزائم الشعب وبث الحماس في النفوس للدفاع عن العاصمة . وهكذا قدر للحضارة أن تنتصر علي البربرية ، وقدر لبيزنطة أن تنجو من مصير مظلم .

وقد ترتب علي فشل الآفار أمام القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. نتائج علي جانب كبير من الأهمية والخطورة . فقد أخذت قوتهم في التداعي وتخلوا وبصفة نهائية عن حلمهم في فتح العاصمة البيزنطية ، فتراجعوا إلي اقليم بانونيا مدحورين ، ولم يجرؤا بعد ذلك علي الاقتراب من القسطنطينية .

كذلك انهار نفوذهم وفقدوا هيبتهم بين رعاياهم المغلوبين علي أمرهم ، وأخذت هذه الشعوب في التمرد وخلع طاعتهم ، ولا سيما سلاف مورافيا ، الذين ثاروا ضد الآفار وأسسوا لانفسهم مملكة تحت حكم سامو [١] Samo ، وهكذا ظهرت للوجود

(١) سامو هو أحد التجار الفرنجة تولي زعامة السلاف وحكمهم لمدة ٣٥ عاما ، راجع :

Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome , XVII , 1944 - 1945 , P. 112 .

أول دولة صقلبية في مورافيا (١) .

كما ثارت عليهم أيضا القبائل البلغارية التي كانت تسكن شمالي البحر الأسود وبحر الخزر ، وسلموا قياداتهم إلي زعيم منهم يدعي كوفرات Kouvrat ، وساعد البيزنطيين كوفرات في نضاله ضد الآفار ، وعقد معه الامبراطور هرقل تحالفا ومنحه لقب قائد بيزنطي ، وعمده عضوا في الكنيسة النصرانية ، وظل البلغار في صراعهم مع الآفار حتي استقلوا عنهم في النهاية حوالي عام ٦٤٠ م. (٢) .

ومن الشعوب التي استقلت أيضا عن الآفار بعد هزيمتهم عام ٦٢٦ م. الكروات (٣) و الصرب ، الذين كان موطنهم الاصلي وراء جبال الكربات ثم هاجروا

(1) Dvornik : The Slavs , Their early History and civilization , Boston , 1956 , American Academy of Arts and Siences , PP. 60 - 61 .

(2) Nicephori Patriarchae : P. 24 .

Theophanes : P. 357 .

Gregoire : L'origin , PP. 112 - 118 .

Runciman : A History of the First Bulgarian Empire , PP. 13 - 16 .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٩٧ .

(٣) يذكر الامبراطور قسطنطين السابع أن كلمة كروات Croats تعني في اللغة السلافية (الذين يحتلون الكثير من الاراضي) راجع :

Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio , Chapter 31 .

ويذكر المؤرخ الفرنسي هنري جريجوار أن الكروات والصرب اسمان لشعب واحد ، فقد اتخذ الكروات اسمهم من اسم قائدهم واسمه كروات Croate ، واتخذ الصرب اسمهم من اسم قائدهم ويدعي صرب Serbe ، راجع :

Cregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , P. 100 .

إلي شبة جزيرة البلقان ، وأخضعهم الآفار لسيادتهم ، وعمد الامبراطور هرقل إلي أن يضرب بهم الآفار عقب هزيمتهم عام ٦٢٦ م. ، فحرضهم علي قتالهم ، وتغلبوا عليهم ، فسمح لهم الامبراطور هرقل بالاستقرار في شبه جزيرة البلقان ، حيث سكن الكروات في المناطق الشمالية الغربية من البلقان ، وسكن الصرب في المناطق الجنوبية الشرقية ، واعترفوا جميعا بالسيادة البيزنطية [(١)] .

وتجدر الإشارة إلي أن الامبراطور هرقل لم يدعو الكروات والصرب لسكن البلقان ، لكنهم هم الذين كسبوا بالقوة أراضيهم داخل حدود الامبراطورية ، وكل ما فعله هرقل أنه اعترف بهم وأضفي الصفة الشرعية علي وضعهم كتابعين للامبراطورية ، وأخذ علي عاتقه تعليمهم استيعاب الحضارة البيزنطية واعتناق الديانة المسيحية . والواقع أن السيادة البيزنطية علي هؤلاء السلاف لم تكن الا سيادةاسمية ، وكل ما جنته بيزنطة من هذه التغييرات في البلقان ، هو الخلاص من غارات الآفار المتكررة علي أراضيها وطمعهم في امتلاك العاصمة البيزنطية ذاتها ، وهو الأمر الذي سبب قلقا دائما لهرقل حتي تمكن في النهاية من القضاء عليه .

واذا كان الامبراطور هرقل قد نجح في ابعاد خطر الآفار عن امبراطوريته وشجع رعاياهم علي خلع طاعتهم مما أدي إلي انكماش امبراطوريتهم واقتصارها علي اقليم بانونيا ، الا أن الفضل يرجع للامبراطور شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤) في القضاء علي الآفار بصفة نهائية .

فقد اهتم شارلمان بمد نفوذه إلي بافاريا في الجنوب الشرقي من دولته ،

---

(١) بخصوص الكروات والصرب وعلاقاتهم بالآفار وبيزنطة راجع :

Constantine Porphyrogenetus : Op. cit , Chaptes 29 - 36 .

Cregoire : L'origine , PP. 101 - 103 .

وأذعن له البافاريون في البداية علي أساس الاعتراف بسيادته عليهم ، وتحويل مملكتهم إلي دوقية تحظي بنوع من الاستقلال الذاتي سياسيا وكنسيا . علي أن خروج ملك البافاريين عن الطاعة وإعلانه العصيان في ٧٨٨ م. وطلبه المساعدة من جيرانه الآفار في بانونيا ، كل ذلك دفع شارلمان إلي المبادرة بخلعه ونقله إلي أحد الأديرة ، وإجباره علي التنازل عن كل حقوقه وحقوق أسرته في بافاريا وإدخالها في دائرة أملاك الفرنجة (١) .

وهكذا تم ضم بافاريا إلي أملاك شارلمان مما جعله في مواجهة مباشرة مع الآفار ، وقد بادرت جيوش شارلمان باتخاذ خطة الهجوم ، وتقدم اريك دوق فريولي Eric Duke of Friuli علي نهر الدانوب ، فاقتحم الحلقة الكبيرة التي أقامها الآفار من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسي لهم ، ثم توالت بعد ذلك الحملات علي الآفار حتي بلغ عددها ثماني حملات علي مدي خمسة عشر عاما من ٧٩١ - ٨٠٥ م. ، قاد منها شارلمان نفسه حملة واحدة فقط في عام ٧٩١ م. بينما قاد ابنه بيبن Pepin باقي الحملات ، وكان بيبن يحكم اللومبارديين في ايطاليا بعد انتصار شارلمان عليهم ، ويقول اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان ، انه خلال هذه المعارك سالت دماء الآفار كالنهر ، حتي أن جميع نبلائهم قتلوا ، وخربت قصورهم وديارهم في بانونيا ولم يعد أحد من الآفار يعيش هناك (٢) .

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ص ٢٥٧ .

(2) Einhard and Notk the Stammerer, Two lives of Charlemagve, P. 67.

The Royal Annals, in " The Reign of Charlemagne " Documents on carolingian, Government and Administration, by H. R. loyn and Percival, 1975, PP. 38 - 39.

كما استولي الفرنجة علي كنوز هائلة من الذهب والفضة والمنسوجات الغالية والأواني النفيسة ، وكلها من الغنائم التي غنمها الآفار علي مدي أجيال متعاقبة . والمرجح أن معظمها كانوا قد نهبوه من مدن الامبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها التي طالما تعرضت للنهب من جانب الآفار . ويقول المؤرخ فيشر أن الأسلاب التي غنمها الفرنجة من الآفار ، قد اسهمت في رفع شارلمان من حالة الغني والثروة إلي حالة الثراء الفاحش والثروة الوفيرة (١) .

وهكذا تم لشارلمان القضاء علي الآفار ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، واختفوا من مسرح الحوادث التاريخية ، وتحولوا إلي سطور في كتب التاريخ .

تلك كانت سيرة شعب من الشعوب الآسيوية والقبائل الهمجية التي غادرت موطنها جريا وراء الغنائم والأسلاب ، وطمعا في الامبراطورية البيزنطية التي كانت تمثل قمة الثراء والحضارة في نظر هذه الشعوب ، وفي رحلتهم علي مدي ما يزيد علي القرنين من الزمان ، منذ اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، وحتي قضاء شارلمان عليهم في أوائل القرن التاسع الميلادي ، روع الآفار سكان المنطقة التي مروا بها أو تلك التي استقروا فيها ، وقاموا بدور يماثل الدور الذي قام به أسلافهم الهون ، وظل الآفار حتي النهاية علي وثنيتهم ، ولم يكن اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية من أجل الثقافة أو التهذيب ، أو تذوق الحضارة ، أو التأثر بالديانة المسيحية ، علي عكس الشعوب والعناصر الأخري التي أغارت علي الامبراطورية ، ثم تأثرت بحضارتها واعتنقت ديانتها المسيحية ومذهبها الارثوذكسي ، كالقوط الشرقيين ، والروس ، والبلغار ، والكروات والصرب

(١) فيشر : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، ص ٩٤ .

وغيرهم ، في الوقت الذي ظل فيه الآفار وحتي النهاية ، عناصر همجية هدفها السلب والنهب واغتصاب الأرض واخضاع الشعوب التي ساقها حظها التعس للوقوع في طريقهم .

ورغم التخريب والنهب والسلب والتدمير الذي مارسوه في الأماكن التي حلوا بها ، من بحر البلطيق إلي شبه الجزيرة المورة ، الا أنهم أثروا في مجريات الأمور في تلك المناطق بل وامتد أثر هذا التغيير إلي منطقة البلقان حتي العصور الحديثة .

فقد استعبد الآفار شعوبا كثيرة ، وضغطوا علي شعوب أخري ، مما دفعها إلي ترك أماكن استقرارها والهجرة إلي مناطق أخري ، مثلما حدث مع اللومبارديين الذين تركوا مقرهم علي نهر الدانوب ، تحت ضغط الآفار وهاجروا إلي شمال ايطاليا . كذلك ما حدث مع الأهالي من اليونان والرومان في شبه جزيرة البلقان ، والذين اختلف المؤرخون حول ما حدث لهم من جراء هذه الغارات المدمرة ، فهناك رأي يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماما في المناطق التي تعرضت لغزو الآفار والسلاف خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع ، ومن هذا الفريق ، المؤرخ أزيدور أسقف أشبيلية ، الذي سبق عرض رأيه في ثنايا هذا البحث ، وهناك أيضا العالم الألماني الكبير الأستاذ فلّمرير Fallmerayer ، الذي كان استاذاً للتاريخ العام بالجامعات الألمانية ، والذي عرض رأيه بهذا الشأن في كتابه عن " تاريخ شبه جزيرة المورة في العصور الوسطي " ونشر في مدينة شتوتجارت الألمانية في عام ١٨٣٠ م. اذ قال الاستاذ فلّمرير ، ان ظهور الآفار في أوروبا كان عهد جديد في التاريخ اليوناني ، لان الآفار دفعوا أمامهم السلاف وقادوهم لفتح بلاد اليونان ، وأضاف قائلا : " لقد أبيد العنصر اليوناني تماما في أوروبا ، واختفي جمال الجسد ، وسمو الروح ، وبساطة التقاليد ، والابداع الفني ،

بنقاء العنصر ، وعظمة المدن ، وهدوء القري ، وفخامة الاعمدة والمعابد ، وحتي أسماء الناس اختفت من البلاد اليونانية ، وغطت قبور اليونان القدامي ، طبقتان من مخلفات الخراب والأنقاض التي أحدثها عنصران مختلفين جديدين [١] . وتمثل بعض الأعمال الخالدة ، التي تتميز بروح الهللينية وبعض الآثار القديمة علي الأرض اليونانية ، الدليل الوحيد علي الحقيقة الساطعة ، بأن ثمة شعبا هللينيا كان يعيش علي هذه الأرض منذ زمن بعيد . ولقد انتشر هذا الاعصار المروع فيما بين الجزء الأدني من نهر الدانوب ، وحتي أقصي ركن في البلوبونيز ، لذلك فانه لا توجد نقطة واحدة من الدم الهلليني النقي ، تجري في عروق السكان المسيحيين في بلاد اليونان الحديثة " [٢] .

وهناك فريق أخر من المؤرخين يؤكد علي أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ، وتمركزت في مناطق السواحل المطلة علي البحر الايجي كما تمركز الرومان علي السواحل المطلة علي البحر الادرياتي ، ومن هذا الفريق المؤرخين نورمان بينز [٣] ، لرل [٤] Lemerle ، استروجورسكي ، وموص .

وعلي سبيل المثال ، قال المؤرخ استروجورسكي [٥] : " انه رغم خضوع البلوبونيز للغزو السلافي لاكثر من قرنين من الزمان ، الا أن الأقاليم اليونانية لم تصبغ بالصبغة الصقلبية ، اذ حرصت السلطات البيزنطية علي المحافظة علي

(١) المقصود بهذين العنصرين الجديدين ، الآفار والسلاف

(2) Fallmerayer J. P : Geschichte des Halbinsel Morea Während des Mittelalters, Stuttgart , 1830 , vol I , PP III – XIV

(3) Baynes : Op. cit , P. 296

(4) Lemerle : Invasions et migrations des les Balkans , PP 303 ff

(5) O Strogorsky : Op. cit , P 9 .

الطابع اليوناني بهذه الجهات ..... وبذلك استعاد العنصر اليوناني قوته مرة أخرى وبطريقة تدريجية ، وساد علي السواحل الجنوبية والشرقية .... كما أكد العنصر الروماني وجوده علي السواحل الغربية " .

وقال المؤرخ موصي [1] . انه رغم غزوات الآفار والسلاف للبلقان الا أن السواحل المطلة علي البحر الايجي وشبه جزيرة البلوبونيز ظلت مراكز للحضارة والحياة الهللينية ، كما أن الرومان الذين فروا إلي الجزر والخلجان الادرياتية أقاموا حافة منعزلة من اللاتينية ، ظلت قائمة حتي العصور الحديثة ، وقد مات آخر ناطق باللغة اللاتينية في ١٨٩٨ م. ولم تكن لغته الا سلالة من اللسان الروماني القديم .

وهكذا نجد رأيين مختلفين تمام الاختلاف ، فالرأي الأول يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماما ولم يبق له أثر نتيجة لغزوات الآفار والسلاف . والرأي الثاني يؤكد علي أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ولم تندثر . والأرجح أن الرأي الثاني هو الأصح لانه منذ حل الآفار بمنطقة البلقان في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، استعبدوا سكان هذه المنطقة من مختلف العناصر ، وخاصة السلاف وانطلق اعصار الآفار يعصف بموجات تتابع السلاف ويحيلها إلي تيارات عنيفة ، بما أضافوه لهذه القبائل من قوة دافعة ، وبما حرصوا عليه من انتشار في جميع أركان شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان وقد أدي ذلك إلي احتلال دائم من السلاف لمناطق ايلليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، وتراقيا ، والغالب ان هذه هي الفترة التي تم فيها صبغ المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان بالصبغة الصقلبية ، وما ترتب علي ذلك من فصل روما القديمة عن روما الجديدة

(١) موص · ميلاد العصور الوسطي ، ص ص ٢٩٥ – ٢٩٦

(القسطنطينية) ، بعد أن وجدت كتلة من العناصر الصقلبية في شبه جزيرة البلقان . ورغم الجهود العسكرية لبيزنطة لرد اعتداءات الآفار والسلاف الا أن الامبراطورية لم تعد تستطيع السيطرة علي حدودها في منطقة الدانوب بعد عام ٦٠٤ م. كما سبق أن أوضحنا .

وفي وسط الفوضي التي عمت هذه المنطقة ، بدأت تظهر مستوطنات جديدة في بلاد البلقان ، تلك المستوطنات التي كونت نواة الأمم الصقلبية الحالية ، اما السكان الاصليين من اليونان والرومان ، فقد دفعوا أمام ضغط الآفار والسلاف إلي حافتي شبه جزيرة البلقان المطلتين علي البحر الادرياتي حيث استقر الرومان ، والبحر الايجي ، حيث استقر اليونان واستمرت الهللينية داخل هذه الأراضي بنفس مستواها الطبيعي في اللغة والشخصية ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في ثنايا البحث .

لذلك فان المقولة التي رددها الاستاذ فلّمرير ، ومن قبله ازيدور أسقف أشبيلية وملخصها أن الشعب اليوناني أبيد في المناطق التي تعرضت لغزو الآفار في البلقان وبلاد اليونان ، هي في واقع الأمر مقولة مبالغ فيها .

واذا كان هذا ما أحدثه ظهور الآفار في منطقة البلقان ، فان اضمحلال قوتهم وانهيار نفوذهم كان له أيضا آثار بعيدة المدي ، وكانت بداية هذا الاضمحلال هو فشلهم في الاستيلاء علي العاصمة البيزنطية في عام ٦٢٦م ، وتمرد شعوب كثيرة عليهم وخروجها عن طاعتهم ، واستمر اضمحلالهم حتي تم في النهاية تدمير قوتهم علي يد شارلمان في أوائل القرن التاسع الميلادي . وقد ترتب علي ذلك أن أصبح الطريق مفتوحا أمام عنصر

الفيكنج (١) ، للوصول إلي حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود ، فقد دأبوا سواء أكانوا قراصنة أم تجارا علي الاغارة علي مناطق الصقالبة علي شواطئ بحر البلطيق ، وأقاموا بهذه الشواطئ معاقل دائمة لهم ، واستطاعوا أن يضعوا ايديهم رويدا رويدا علي طريق التجارة العظيم ، الذي يتألف من شبكة الطرق المائية التي تربط بين بحيرة لادوجا والبحر الأسود ، ثم توغلوا جنوبا وأسسوا دوقية كييف التي أصبحت نواة الامبراطورية الروسية فيما بعد (٢) .

وشمل انهيار قوة الآفار مجموعة الشعوب السلافية أيضا ، التي انحسر مدها غربا ، وارتد من أعالي النمسا لتؤلف تلك البلاد اذ ذاك جزءا من امبراطورية شارلمان ، وشرع مستوطنون من جرمان بافاريا يستقرون فيها ، ويستقرون أيضا في الجزء الغربي من المجر ، التي أصبحت مناطقها الشرقية بصفة خاصة جزءا من امبراطورية شارلمان ، وبذلك عاد إلي الوجود خط حدود بانونيا الذي كان معروفا عند الرومان .

وهكذا امتد تيار النفوذ الفرنجي امتدادا حثيثا حاملا معه سمات الحضارة

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية (سويديون ، نرويجيون ، ودانيون وهم سكان الدانمرك) التي سكنت شبه جزيرة سكنديناوة وشبه جزيرة الدانمرك ، وهم ينتمون من الناحية العنصرية إلي الأصل التيوتوني أو الجرماني . واسم الفيكنج بمعني سكان الفيوردات أو الخلجان وهي الظاهرة الطبيعية التي امتازت بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا .

وعن كل ما يتعلق بالفيكنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربي في العصور الوسطي راجع :

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢١٨ - ٢٤٧.

(٢) محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٩٨ .

المسيحية اللاتينية شرقا ، صوب الأراضي التي هي الآن ، النمسا وبولندا وبوهيميا والمجر ، بعد أن تم القضاء علي العقبة التي وقفت أمام امتداده لهذه المناطق ، والتي تمثلت في شعب الآفار .



المصادر والمراجع

1 - Alexander P. : The Patriarch Nicephorus of Constativople, 1985 .

2 - Barisié F. : Le Siége de Constantinople par les Avares et les Slaves en 626 . dans (Byzantion) Revue international des Etudes Byzantines , tome XXIV , Brux elles , 1954 .

3 - Barker : Justinian and the later Roman Empire , London , 1966.

4 - Baynes N. : The Successors of Justinian , in C. Med . H. vol II, ed. Bury, Cambridge , 1976 .

5 - Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II, ed. Bury , Cambridge , 1976 .

6 - Brehier L. : Vie et mort de Byzance , Paris , 1969 .

7 - Bury Y. B. : A History of the Eastern Roman Empire , London , 1912 .

: A History of the later Roman Empire , U. S. A. , 1958 ..

8 - Chabot : La Chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904.

9 - Charanis P. : Hellas in The Greeke Sources of Six th , Seventh ,

and Eighte centuries, in late classical, and Medieval studies, in Honor of Albert Mathias Friend, Princeton University press, 1953.

10 - Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio, ed. Bonnae, C. S. H. B..

11 - Deihl et Marçais : Le monde oreintal de 395 a 1081, Paris, 1936.

12 - Dunlop : The History of the Jewish Khazars, U. S. A. 1967.

13 - Dvornik : The Slavs, their early History and civilization, Boston, 1956.

14 - Einhard and Notker the Stammerer Two lives of charlemagne, translated by thorp. Great Britain, 1969.

15 - Encyclopedia Britannica, William Benton Publisher, U. S. A., 1968.

16 - Evagrius : Historia Ecclesastica, ed. Bidez and Parmentier, London, 1898.

17 - Fallmerayer Y. P. : Geschichte der Hallinsel Morea wahrend des Mittelalters, Stuttgart, 1830.

18 - Fontaine Y : Isidore de Seville et la culture classique dans l'espagne wisigothique, Paris, 1959.

19 - Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1976.

20 - Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome XVII , Bruxelle , 1944 - 1945 .

21 - Halphen L. ed. , Eginhard , la vie de charlemagne , Paris , 1923 .

22 - Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. Vol II , ed. , Bury , 1976 .

23 - Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avers Pendant la second moitié de vi e Siécle , dans (byzantion) tome IV , 1927 - 1928 .

24 - Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London ; 1971 .

25 - Hoyet and Shodorow : Europe in the Middle Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 .

26 - Hussey Y. : The Byzantine World , London , 1955 .

27 - Johannis Biclarensis : Chronica , Chronica Minora , ed. by Th. Mommsen , Berlin , 1894 .

28 - John of Ephesus : Elcelesiastical History , translated from Syriac by Payne - Smith , Oxford , 1860 .

29 - The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , ed. Grabois , U. S. A. , 1980 .

30 - Isidore of Seville : Chronica Maiora , Patrologia Latina , LXXXIII .

31 - Lemerle : Invasions et Migration des Balkans , depuis L'epouque Romaine Jusqu'au VIII £ Siécle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 .

32 - Lot : The End of the Ancient world and the Beginnings of the Middle Ages , London , 1931 .

33 - Manojlovic : Le peuple de Constantinople , dans (Byzantion) , tome II , Bruxelles , 1936 .

34 - Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , edited by L. Dindorf , Leipzig , 1871 .

35 - Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 717) in C. Med. H. vol IV , part I , ed. Hussey , Cambridge, 1966 .

: The Birth of the Middle Ages , Oxford , 1947 .

36 - Nicephori Patriarchae : Berviarium , ed. De Boor , Leipzig , 1880 .

37 - Obolensky D. : The Empire and its Northern Neighbours (565 - 1018) , in C. Med. H. , vol IV part I , ed . Hussey , Cambridge , 1966 .

38 - O'Callaghan Y. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .

39 - Oman : The Dark Ages , London , 1908 .

40 - Ostrogorsky G. : History of the Byzantine State , English

Trans. by Hussey , Oxford , 1968 .

41 - Painter S. : A History of the Middle Ages , 284 - 1500 , London , 1979 .

42 - Paul the Deacon : History of the Lombards , trans. from latin by Foulke , ed. by peters , Penselvania press , 1974 .

43 - Pisidia : De expeditione Persica ,

: Bellum Avaricum .

: Heraclias .

ed. Bekker , C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 .

44 - Rambaud A. : Etudes Sur L'histoire Byzantine , Paris , P, 1912.

45 - The Royal Annals , in (The Reign of Charlemagne) Ducuments on Carolingian Government and Administration , by H. R. loyn and Yohn Percival , 1975 .

46 - Runciman S. : The Byzantine Civilization . Seventh Impression , Great Britain , 1975 .

47 - Simocatta Th. : Historiae , ed , by De Bor , Leipzig , 1887 .

48 - Skylitzes G. : Excerpta Exbreviario Historiae , webri C. S. H. B. , Bonne , 1840 .

49 - Syncellus Th. , ed Sternbach . Analecta Avarica , Seorsum

Impressum ex tomo XXX , Dissertationum Philogicarum , 1900 .

50 - Theophaves : Chronographia , ed. de Boor , 2 vols , Leipzig , 1883 - 85 .

51 - Toynbeé A. : Constantine Porphy\rogenitus and his world , London , 1973 .

52 - Vasiliev : History of the Byzantine Empire (324 - 11453) , 2 vols , wisconsin press , U. S. A.

المرأة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى



المرأة

في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى

دكتورة
اسمت غنيم



دار المعارف



المحتويات

الصفحه



مقدمة



بسم الله الرحمن الرحـــيم

يعتبر موضوع مركز المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى مـن الموضوعات المعقدة التى تحتاج لمعالجة موضوعية دقيقة، ذلك أنها لم تتمتع بمركز ثابت حددته الكنيسه أو القوانين أو العرف السائد . وانما اخذت مكانتها تتغير وتتبدل من وقت لآخر تبعا لتغير النظم والظروف فى المجتمع الغربى الوسيط .

وتعتبر هذه الدراسة عن مركز المرأة ووضعها فى المجتمع فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، أول دراسة من نوعها تظهر كبحث قائم بذاته باللغة العربية ، بل وفى اللغات الاجنبية لم يظهر الا عدد محدود للغاية من الكتب فى هذا الموضوع . وقد استلزمت دراسة هذا الموضوع الكثير من الجهد والوقت نظرا لاهمية الموضوع ودقته ، وقلة المصادر الخاصة به ، وتناثر المعلومات على شكل شذرات فى هذا الكتاب أو ذاك ، وتعدد اللغات التى كتبت بها هذه المعلومات من لاتينية إلى ايطالية إلى الانجليزية القديمة والفرنسية القديمة اللتين استعملتا فى الكتابة عن المرأة ، وخاصة بعض الابيات الشعرية التى قمـــت بترجمتها وساهمت فى خدمة موضوع البحث .

والبحث يعرض لوضع المرأه فى المجتمع الغربى الوسيط والنظريات التى تكونت عنها والتغيرات التى طرأت على مركزها خلال الحقب المختلفه فى العصور الوسطى ، ثم يتناول بالعرض حقوق المرأة وواجباتها كما اقرهـــا القانون والمجتمع ، ويعرض أيضا لفئة الراهبات وكل مايتعلق بحياة الراهبـــة داخل الدير ، ثم يعرض لموضوع تعليم النساء فى العصور الوسطى ، والملابس ، والدور الذى لعبته المرأه الغربية فى الحياة العامة فى هذه الحقبة التاريخية .

وقد اختتمت هذا البحث بدراسة مقارنة بين مركز المرأة الغربية ومركز معاصرتها المرأة المسلمة .

ومن أهم المصادر التى أفادت فى هذا الموضوع مؤلفات علمين من أعلام النهضة الايطالية وهما دانتى الايجيرى (١) Dante Aligeieri وفرانسيسكو بترارك (٢) Francesco di petracco ودانتى هو صاحب الكوميديا الالهية الشهيرة Divina Commedia التى خلد فيها اسم حبيبته ، بياتريس أو بياتريتشى Beatrice أما بترارك فقد خلد هو الآخر حبيبته لورا Laura فى قصائده الشعرية التى نظمها باللغة الايطالية وفى مذكراته التى كتبها باللغة اللاتينية .

ومن المؤرخين المحدثين الذين اهتموا بالبحث فى موضوع المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى المؤرخة لانجليزية ايلين بور Eleen power التى كان لعمق دراستها أن أصبحت مرجعا وحجة لاى دراسة فى هذا الموضوع .

وقد ارتكزت ايلين بور فى مصادرها على مادونته راهبات اديرة العصور الوسطى بالاضافة إلى التراث الذى تركه رجال الدين بالكنائس والكاتدرائيات العديدة المنتشرة فى جميع انحاء أوروبا .

وقد كان كل ماسبق معين لاينضب للحصول على قدر كبير من المادة العلمية عن المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى ، شغلت بها ايلين

---

(١) يوجد ص ص (٢٧) ومابعدها من هذا البحث دراسة عن دانتى ومؤلفاته والدور الذى لعبته بياتريس فى حياته .

(٢) راجع نبذه عن حياة بترارك واعماله الادبية وعلاقته بلورا فى ص ص (٣٢) ومابعدها من هذا البحث .

بور الرأى العام فى أوروبا وفى الولايات المتحدة الامريكية ، عن طريـــق محاضراتها ومقالاتها العديدة التى كانت تلقيها فى جامعة كمبريدج بانجلترا ، أو فى الولايات المتحدة الامريكية ، أو فى الاذاعة عبر موجات الأثير .

وقد ظلت هذه الثروة التاريخية بدون نشر ، حتى قام بنشرها-بعد وفاة ايلين بور – العالم والمؤرخ بوستانpostan . M .M فى كتاب ظهرباسم «نساء العصور الوسطى» The Medieval Women ونشرته جامعة كمبريدج وظهرت الطبعة الاولى للكتاب فى عام ١٩٧٥ ، ثم اعيد طبعه فى اعوام ١٩٧٦ ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ، ثم فى عام ١٩٨١ وهى الطبعة الاخيرة للكتاب التى اتيح لى الحصول عليها .

والكتاب يهتم بدراسة أحوال المرأة والدور الذى لعبته فى مختلف مجالات الحياة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى .

ولايلين بور كتب أخرى لم تقتصر على موضوع المرأة ، ولكن وردت بها اشارات عديدة تفيد الباحث فى هذا الموضوع ، وسيتم الاشارة إليها فى حواشى هذا البحث .

وبالاضافة لهذه المراجع السابقة ، هناك بعض الكتب التى وردت بهـــا اشارات سريعة عن موضوع المرأة الغربية فى العصور الوسطى واذكر منها على سبيل المثال كتاب المؤرخين كرامبGrump ,وجاكوب Jacob وعنوانـه «تراث العصور الوسطى» The Legacy of the Middle Ages الذى نشر فى اوكسفورد فى عام ١٩٢٦ .

وكذلك مؤلفات المؤرخين : بنتر painter ، وهويزنجا Huiznga كولتون Coulton وغيرهم من المؤرخين .

أما بالنسبة لمصادر البحث فى مركز المرأة المسلمه ، فان أهم مصدر هو القرآن الكريم ، وهو مصدر التشريع الاسلامى ، كذلك كتب التفسير وبعض المصادر الاسلامية لبعض المؤرخين مثل الطبرى ، والمسعودى ، وابن الاثير والجاحظ وغيرهم .

وبقدر مابذلت من جهد ووقت فى هذا البحث ، بقدر ماارجو أن أكون قد وفقت فى القاء بعض الضوء على المركز الذى كان للمرأة ، والدور الذى لعبته فى المجتمع الغربى فى العصور الوسطى .

والله الموفـــــــــق ،

إسمت غنيم

لوران

٧ أبريل ١٩٨٣ م

الفصل الأول

نظرة المجتمع الغربي للمرأة



فى المرحلة المبكرة من العصور الوسطى حيث سيطرت الكنيسه سيطرة تامة على المجتمع تكونت نظريات تنادى بان المرأة ماهى إلا اداة من ادوات الشيطان ، وهى المحرضة لآدم على المعصية والخطيئه ، وهى لذلك لاتستحق إلا الاحتقار والازدراء ، وهذه النظرية ظهرت فى تاريخ الكنيسه منذ وقت مبكر ويؤيد ذلك تلك العبارة التى ترجع إلى القديس اوجسطين (١) ، وآبـــاء الكنيسة الأول ، الذين قالوا :

---

(١) هو اوريليوس اوجسطينوس Auriius Augustinus
ولد فى ٣٥٤ م فى شمال افريقية فى مدينة Tagaste (Munidia)
وتلقى دراسته فى مسقط رأسه وفى قرطاج . وابتداء من عام ٣٧٣ أخذ يدرس علم البيان وعكف على دراسة فلسفة اليونان القدامى فى التراجم اللاتينية لها ، وذهب إلى ايطاليا فى ٣٨٤ ثم عاد إلى افريقية فى العام التالى ، واصبح شماسا لمدينة هيبو Hippo التى تقع حاليا فى الجزائر .
ولاوجسطين مؤلفات عديدة تركت بصماتها الواضحة على العقلية الوسيطة ، ومن أهم مؤلفاته (مدينة الله) Decivitate Dei وهذا الكتاب فاق أثره أى كتاب آخر فى سياسة العصور الوسطى وفيه رسم القديس اوجسطين الحدود بين السلطتين العلمانية والدينية ونادى بان السلطه العلمانية قامت على اساس من الشر لأنها من صنع البشر لذلك يجب ان تخضع لسلطة الكنيسه وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رسالته .
والجدير بالذكر انه قام خلاف لقرون طويله حول المقصود بالمدينتين اللتين ذكرهما القديس اوجسطين فى كتابه ، وماهو المقصود بها ، وقد تغلبت وجهة النظر القائلة بان المقصود بها مدينة الانسان ويعنى بها العالم الدينوى الذى نعيش فيه ومدينة الله والمقصود بها السماء .
وللقديس اوجسطين مؤلفات اخرى منها (اعترافات) التى تعتبر اول ترجمة يدونهـا شخص عن نفسه فى تاريخ الادب .
للمزيد عن القديس اوجسطين راجع :
Batiffol (P.): A Monument to st. Augustine, 1930.
Ullmann(w) : A History of political thought : The Middle Ages 1968
Thompson : The Middle Ages, London, 1931, P vol. I, pp 413 - 414
جوريف نسيم نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ ص ص ٢٩ ٣

«المرأة بوابة الشيطان ، وطريق الشر ، ولدغة الحيه ، وفى كلمة موجزة المرأة موضوع خطير » .

ليس ذلك فحسب بل أن اباء الكنيسه استكثروا أن تكون للمرأة روح علوية فبحثوا فى ذلك واوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا روح له بعد فناء جسده . (١)

هذه النظرية جعلت الكنيسه تطالب رجالها بعدم الزواج على اساس أن المرأة عامل من عوامل الغواية ، ولما كان رجال الدين الذين نادوا بأخذ التنسك مثلا أعلى للحياة هم الطبقة المثقفة والذين لهم صوت مسموع فى المجتمع خلال قرون عديدة لذلك كان لابد أن تكون النظرية التى تكونت عن المرأة تنادى بأنها شئ ناقص وشرير . وقد عبرت احدى سيدات هذا العصر عن ذلك بقولها :

«فى الواقع لن يتورع أى رجل من رجال الدين عن وصم المرأة بأية نقيصه آلا إذا كان يكتب عن امرأة من القديسات وفيما عدا ذلك لن يكتب خيرا عن نساء اخريات .»

وقد وجدت على جدار احدى القلاع مقطوعه شعريه تصور المرارة والأسى اللذين تشعر بها المرأة ، وتقول بعض ابياتها :

لست أدرى اذا ظل آدم يمضى حياته يحفر ويحرث ولا يخطو للامام
وظلت حواء ، تغزل ثم تنسج لتكسو آدم من العراء
فأين آدم اللطيف الرقيق الذى يحمى المظلومه حواء ؟

(I) Heer : The Medieval World, Europe (1100 - 1350) , London 1962, PP. 264 - 265 ..

ومنذ القرن الثامن الميلادى بدأت بذور النظام الاقطاعى تظهر فى غرب أوروبا، وفى القرن التاسع الميلادى بلغ هذا النظام مرحله حاسمه من مراحل نموه وتطوره ، وارتبط هذا النظام بالحياة الاوروبية فى العصور الوسطى ، سواء من النواحى السياسية أو الاقتصادية أو الإجتماعية ، بل والدينية أيضا.(١) ولم يتغير مركز المرأة كثيرا فى ظل النظام الاقطاعى اذ اعتمد هذا النظام فى المرتبه الاولى على الحرب والقتال ، وكان القتال أهم واجب على الفصل ان يقدمه لسيدة الاقطاعى ، وطالما ان المرأة لم تكن تستطيع ان تمارس القتال ، لذا فان مركزها فى العرف الاقطاعى كان ثانويا بحتا ، ومهما بلغت من العمر فهى قاصر ولابد ان تكون تحت وصاية رجل ، والدها فى البداية ، ثم زوجها بعد ذلك وفى حالة وفاته ، تصبح تحت وصاية السيد الاقطاعى أو أكبر ابنائها . (٢)

على انه منذ القرن الحادى عشر الميلادى، وحتى نهاية العصور الوسطى فى القرن الخامس عشر، أخذ مركز المرأة يحتل مكانة ممتازة فى الناحيتين الدينية والدنيوية على حد سواء . واذا بحثنا عن المسئول عن هذا التغيير فى مركز المرأة فى هذه الحقبة التاريخية ، وجدنا ان مسئولية هذا التغيير تقع على عاتق كل من الكنيسة ونظام الفروسية .

ذلك ان سمو المرأة والتفانى فى احترامها وتبجيلها ، انعقد على شخصية العذراء مريم فى السماء ، وشخصية المرأة على الارض . بمعنى ان التفانى فى

(I) Eyre : European civilisation, vol 3 (The Midfle Ages), London, 1935, P . 100 .

Hoyt & Chodorom : Europe in the Middle Ages, Third Edition U . S . A . 1976, PP . 210 - 250 .

(2) painter : Mistory of the Middle Ages, 284 - 1500, great Britain, 1979, P . 121 .

احترام المرأة الذى ابتدعه نظام الفروسية ، كان الشطر الدنيوى لعبادة العذراء تلك العبادة التى كانت أقوى ظاهرة فى مسيحية العصور الوسطى حتى بلغت العذراء أسمى مكانه لها فى القرن الحادى عشر الميلادى وظلت كذلك حتى نهاية العصور الوسطى .

كذلك كان الحال بالنسبة لنظام الفروسية الذى ظل حتى القرن الخامس عشر يعد بعد الدين أقوى المفاهيم الخلقية جميعا التى تسلطت على العقول والأفئدة ، وكان الناس ينظرون إلى الفروسية على انها تاج على مفرق النظام الاجتماعى باجمعه . (١)

وقد سارت عبادة العذراء ، وتقديس الفرسان للمرأة جنبا إلى جنب ، وتجاوب احدهما مع الآخر تجاوبا مستمرا ، وكانت عبادة العذراء واحترام المرأة هما المثل الأعلى للفروسية .

والشائع ان عصر الفروسية يعتبر العصر الذهبى للمرأة فى غرب أوروبا وان النساء تمتعن فيه بمكانة رفيعة سامية حتى قيل « ان الفارس نصير الله والمرأة » . وتظهر فكرة تبجيل الفرسان للمرأة واضحة فى اشعار التروبادور (٢) التى

---

(١) هويز نجا : اضمحلال العصور الوسطى ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٨، ص ٦٠ .

(٢) الغالب أن هذا اللفظ تحريفا لتعبير (طرب دور) أى (دور طرب) باللغة العربية، مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال فى معظم اللغات الاوربية نظرا لتأثر هذا الشعر بالموشحات الاندلسية العربية التى تمتاز بخفة اوزانها ورقتها وخيالها فضلا عن موضوعاتها التى تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى ، والمعروف ان هذا الشعر نشأ فى البداية فى جنوب فرنسا ، فى اقليم بروفنسال على وجه التحديد ، ومن أشهر شعراء التروبادور وليم التاسع امير اكويتين (١٠٨٧ - ١١٢٧ م) الذى عرف بالمرح وحب الموسيقى والغناء وسرعان ازدادت اعداد شعراء التروبادور واخذوا يتجولون من مكان لآخر وقد حمل كل منهم قيثارته ليغنى اشعاره على انغامها وامتلأ

تبين كيف كان جمال المرأة ورقتها وعقلها تستهوى قلب الرجل ، وان المحب لم يستهدف شيئا سوى ادخال السعادة على قلب محبوبته ، فلا يأبه بطعام أو شراب ولا يتأثر بحر أو برد فى سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها .

واذا استعرضنا بعض العبارات التى قيلت عن المرأة فى ذلك العصر ادركنا مدى المكانة التى تبوأتها المرأة آنذاك .

قال القديس برناردينو (١٣٨٠ - ١٤٤٥ م) : « انه شرف كبير ان يكون الانسان امرأة ، لان عدد النساء التى تخلص رواحهن إلى الجنة يزيد على عدد الرجال » .

وقال قديس آخر : « لو لم تكن المرأة خيرة مريحه لما خلقها ربنا اله السموات ولما دعاها (عون الرجل) بل لكان دعاها (خيرة الرجل) » .

وقال ثالث : « ان الرب لم يخلق المرأة من رأس آدم لانه لم يقصد إلى ان يجعل منها حاكمة له ، ولم يخلقها من قدمه لانه لم يقصد إلى ان يجعلها عبدة له وانما خلقها من ضلعه على وجه التحديد لانه اراد ان يجعلها رفيقة وشريكة له»

وجاء فى أحد المخطوطات الدينية التى ترجع لهذه الفترة من العصور الوسطى والمحفوظه حاليا بمكتبة جامعة كمبريدج مايلى :

=بهم بلاط الملوك مثل هنرى الثانى ملك انجلترا وابنه ريتشارد قلب الأسد ولويس السابع ملك فرنسا وفردريك بربروسا امبراطور المانيا ، وقد ترجم بعض الأدباء فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر قصيدة (فن الحب) Ams Amoiooria للشاعر اللاتينى أوفيد ovid (٤٣ ق . م - ١٦ م) وهذه القصيدة أصبحت بمثابة انجيل شعراء التروبادور .

انظر عن ذلك :

Paris : Esquisse Historique de laliterature francaise au Moyen Age, paris, 1907, P. 162.

Lanson : Histoire de Ia Literature francaise, paris, 1916, PP . 86 - 87 .

« ان المرأة تفضل الرجل من حيث المادة ، فآدم خلق من طين على حين خلقت حواء من ضلع آدم ، وهى تفضله من حيث المكان فآدم خلق خارج الجنة ، على حين خلقت حواء داخلها . ثم ان المرأة تفضل الرجل من حيث مقدرتها على الحمل ، فالمرأة هى التى حملت بالمسيح وهذا أمر يستحيل على الرجل ، والمرأة تفضل الرجل من حيث الرؤيا فالمسيح تبدى بعد البعث لأمرأة هى مريم المجدليه ، واما من حيث المنزله ، فالمرأة ورمزها مريم تحتل مكان الصدارة بين المترنمين من الملائكه فى السموات . (١)

وكان الاخلاص للمرأة واحد من أهم واجبات الفارس ، فكان يجب عليه ان يبذل كل ما يستطيع من جهد لمساعدتها ، وخاصة اذا كانت فى محنة من أى نوع ، وكانت هذه الروح هى التى دفعت السيرجون اوف هينولت Sir John of Hainault لكى يصبح المدافع عن الملكة ايزابيل Isabel زوجة الملك ادوارد الثانى EdwardII (١٣٠٧ - ١٣٢٧ م) التى كان الملك يسيء معاملتها .

وكانت المرأة من وجهة نظر الفارس، هى الاكثر كما لا بين جميع المخلوقات ، وكان يسر سرورا بالغا اذا نفذ جميع طلباتها مهما كانت بعيدة المنال . (٢)

وكان الفارس يختار واحدة من الفتيات أو السيدات ليحصها بحبه ، ولذلك فهو ينخرط فى خدمتها من أجل ان ينال حبها ؛ أو بمعنى آخر البطل الذى يعمل ابتغاء الحب وهنا تتحول مشاعرة الى الولع بالتضحية بالذات

(1) Grump a Jacob : The Legacy of the Middle Ages, oxford 1926, P. 402.

(2) Abram · Chivalry, in C . M . H . ed. Tanmer, canbridge, 1968, vol VI , P . 804 .

والرغبة فى اظهار شجاعته وفى اقتحام الاخطار واستعراض قوته ومكابدة العناء ونزف الدماء امام حبيبته مالكة الفؤاد .

ولكى يكسب رضاها ويرفع سمعتها كان دائما يرسل يتحدى الفرسان الآخرين من اجلها ، كذلك فأنه كان دائم البحث عن المغامرات سواء فى ميدان الحرب أو فى المبارزات التى تتم بين الفرسان فى الحلبه Lists وتعرف باسم منازلات البرجاس Tournaments وكان من العادات السائدة فى منازلات البرجاس هذه ان يحمل الفارس خمار محبوبته أورداءها ، وكانت السيدات اللاتى يشهدن النزال يخلعن حليهن قطعه بعد قطعة ليقذفن بها إلى الفرسان المشتركين فى الحومه ، حتى اذا ماانتهى النزال اذا بهن عاريات الرؤوس مجردات من الاكمام .

وكان الفارس يحاول جاهدا ان يكسب شعور حبيبته باصرار ومثابرة تجعل من المستحيل عليها ان تقاومه حتى لوكانت متزوجة ، ونسوق هنا فكرة قصة على شكل قصيدة ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، عنوانها « عن الفرسان الثلاثة والقميص» Des tre s chevaliers etde la chemise ومضمونها ان ثلاثة من الفرسان كانوا يتنافسون على حب سيدة متزوجة من أحد النبلاء ، وكان الثلاثة يعملون فى خدمتها ابتغاء الحب ، وكل منهم يحاول ان يظهر ولاءه واخلاصه بشتى الطرق والوسائل ولكى تعرف السيدة أيهم أكثر حبا لها وتضحية من أجلها أرسلت قميصها اليهم حتى يرتديه أحدهم فى منازلة البرجاس التى سيعقدها زوجها ، بدلا من درعه وبغير أى دروع تحته . فاعتذر الفارسان الاول والثانى ، أما الفارس الثالث وهو رجل فقير فانه قبل واخذ القميص فى شغف بالغ ، ونزل إلى حومة البرجاس مرتديا ذلك القميص بدون درع يقيه كما اشترطت السيدة ، فاصيب بجرح غائر

وتمزق القميص وتضرج بدمه . وعندئذ أدرك القوم مدى شجاعته الخارقة ومنح الجائزة ، وأدركت السيدة مدى حبه لها ومنحته فؤادها .

وقد طلب ذلك الفارس من السيدة ان ترتدى نفس القميص المدرج بدمائه فوق ثوبها اثناء المأدبة التى يختتم بها الحفل ، فأخذت القميص وضمته إلى صدرها وخرجت إلى الحضور وهى ترتديه ، ولامها غالبية من حضر الحفل ، وصعق زوجها ووقع فى خزى شديد .ويختتم المنشد قصيدته بتوجيه هذا السؤال ، أى الحبيبين اعظم تضحيه من أجل الآخر ؟ (١)

وهكذا دفع الحب ذلك الفارس إلى التضحية بحياته من أجل حبيبته ، لذلك كان حب الفارس يصنع منه بطلا شديد البأس فى أعمال الحرب ، لأنه كان يبعد عنه الخوف ، ويجعله يغفل عن الشعور بالألم . ويترجم أحد شعراء ذلك العصر هذا المعنى فى هذه الابيات التى يقولها على لسان أحد الفرسان .

عندما نجلس فى الحانـه نحتسى الخمور القويـة
وتمر السيدات وتنظـرن الينـا
باعناقهن البيضاء وصداراتهن الضيقة المحبكـه
وتلك الاعين اللامعـه المتألقـه بالجمـال الباسم
تحرضنا الطبيعة ان تكـون لنـا قلوب تشتهـى
وعندئذ كنا نستطيع التغلب على يومونت واجولان
ويتغلب الآخرون على اوليفييه وورولان . (٢)

وبدأ يظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى فى اماكن

(1) Abram : chevalry, pp . 810 - 812

نويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ص ص ٨٤ — ٨٥ .

٢) هذه كلها اسماء لأبطال عرفوا بالشجاعة الفائقة والتضحية بالذات .

كثيرة فى الغرب الاوروبى مايعرف باسم (محاكم الحب) The Courts of Love وهى عبارة عن مجلس من السيدات اللاتى يجبن على أسئلة عن (الحب فى الفروسية) Chivalric Love وكانت هذه الاسئلة ترفع اليهن عن طريق ثلاثة اشخاص ينوبون عن الفرسان المحبين الذين تظل اسماءهم سرا وكانت اولئك السيدات تصدرن فتاوى تحكم (فن الحب) The Art of Love وكانت هذه الفتاوى والاحكام تخضع للاسس الهامة لفن الحب الموجوده فى اشعار التروبادور ، وكتاب (فن الحب الصادق) De Arte Honeste Amandi الذى كتبه اندرياس كابلانوس Andıaes Capellanus الذى عاش فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . (١)

والكتاب عبارة عن رسالة بحثية عن فن الحب تظهر حياة واسلوب مجتمع الفروسية فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وقد تأثر فى كتابته بكتاب الشاعر اللاتينى أوفيد عن (فن الحب) Ars Amotoria ، وكذلك تأثر اندرياس باشعار الحب التى كتبها الشعراء المسلمون فى اسبانيا ، وقد أجرى اندرياس فى كتابه هذا مانطلق عليه فى الوقت الحاضر (البحث الميدانى) اذ اختبر موقف مختلف طبقات المجتمع فى فرنسا فى عصرة تجاه الحب ، وقارن بين الشهوة ، ومظاهر الحب الافلاطونى . (٢)

وقد ظهرت محاكم الحب هذه أول ماظهرت فى جنوب فرنسا وخاصه فى دوقية اكويتين ومنها انتقلت إلى شامبنى Champagne ثم إلى باقى انحاء أوروبا .

---

(1) Abram : chivarly : 805.

(2) parry (Y) : The Artof Courtly Love by Andreas capellanus, 1941, p. 10 FF.

وانظر الصورتين ١ ، ٢ كظهرين من مظاهر الحب فى عصر الفروسية .

وقد اخذ الافتاء فى شئون الحب يستحوذ على حيز ضخم من احاديث القصور حتى رفع إلى حد الاشكال الادبية فكانت السيدات والنبلاء والشعراء يعقدون الجلسات للاجابة عن مجموعة من الاسئلة عن « تباريح الحب ومخاطرة » ويجرى بحث كل قصة غرام وفق قواعد صارمه . وعلى سبيل المثال يكـــون السؤال هكذا :

ـ ايها السيد العاشق أى الامرين تفضل ، ان يقول الناس قالة السوء عن حبيبتك ثم تجدها طيبة قويمه أم ان تحسن سيرتها على افواههم ثم ينكشف لك انها سيئة الطويه ؟ وكان التصور السليم والصائب للشرف يحتم على الفارس أن يجيب على النحو التالى :

ـ سيدتى انى لأفضل ان تحسن سيرتها على أفواههم وأن أجدها سيئة الطويـــه .

وسؤال آخر مثل : هل تخون العهد سيده أهملها حبيبها ان هى اختارت آخر ؟

وسؤال ثالث يقول : هل يصح أن يعمل فارس حُرم من كل أمل فى لقاء حبيبته التى يحبسها زوج غيور إلى البحث عن حبيبة اخرى ؟ وهكذا (١)

وكانت للالوان والزهور والخمارات والاشرطة والخواتم وجميع الجواهر والهدايا ، وظائفها الخاصة كرموز للحب ، وكـــان المعنى الرمزى للـــونين الازرق والاخضر ملحوظا وعجيبا إلى حد جعلهمـــا لايصلحان للارتداء العادى ، اذ انهما كانا اللونين الخصوصيين للحب ، فكان الازرق يعنى الوفاء والاخضر يعنى العواطف والاحاسيس الغراميـــة .

وتقول اغنية من اغانى القرن الخامس عشر :

ستضطر إلى ارتداء الاخضـــــر

فهـــــــــوزى العشـــــاق

---

(١) هو . . . اضمحلال العصور الوسطى ، ص ١٢١ .

ويقول شاعر من نفس القرن الخامس عشر عن عشاق أحدى السيدات:

يرتـــدى بعضهم مـــن أجلها اللون الاخضـــر
ويـــرتـــدى آخــــــــــر الأزرق
فـــأمـــا من اشتدت بـــه الـــرغبـــه فيهـــا
بسبب شجـــاه المبرح فـــيرتـــدى الســـواد

وقد كابدت الكنائس تدنيسا شديدا بسبب الخدمات الغرامية ، اذ انتشرت عادة جعل الكنيسه ملتقى للشبان والشابات ، وتقول الاديبه الفرنسية كريستين دى بيزان (١) Chrestine de pisan التى عاشت فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر على لسان أحد المحبين :

ان كنت أكثر من الـــــتردد على الكنيســـــه
فـــا ذلك الا لـــرؤيـــة الحلـــــوة الحسناء
وهى نـاضرة كـــوردة تفتحت مـــن توهـــا

وكثيرا ما كان الفارس يقدم إلى محبوبته (قبلـــه السلام) فى القداس Pax ويقول أحد الشعراء مصورا ذلك :

منحتـــنى قبلـــة السلام بـــرقـــة وحنـــان
بـــين عمـــوديـــن مـــن الكنيســـــة
وكنت حقـــا فى حـــاجـــة اليهـــــا
وذلك لأن قلـــبى المولـه كان يضطـــرب
اذ كـــان علينـــا ان نفـــترق سريعـــا

وحتى الحج إلى الكنائس البعيدة والمزارات لم يسلم هو الآخر من التدنيس. وقد استخدمت العاب كثيرة للدلاله على رقة العاطفة كلعبة (الملك الذى

---

(١) يوجد من ص (٨٧) وما بعدها من هذا البحث نبذة عن كريستين دى بيزان واعمالها الادبية .

لا يكذب) و (اوكازيونات الحب) و (العاب للبيع) و (قلعة الحب) .

وكانت لعبة (قلعة الحب) تتألف من مجموعة من الالغاز المجازية وتدور على النحو التالى :

ـ عن قلعة الحب اسألك فخبرنى ماهو الاساس الأول ؟

ـ ان تحب بولاء .

ـ والآن اذكر الحائط الرئيسى الذى يجعلها بديعه وقوية ومكينه !

ـ ان تدارى بحكمه .

ـ خبرنى ماهى فتحات الرمى وما النوافذ والقذائف ؟

ـ النظرات الساحره .

وهكذا يدور الحوار بين الطرفين .

والواقع ان (قلعة الحب) لم تكن شيئا خياليا ، وانما كانت حقيقة واقعه وقد بناها بالفعل البزود افيور Albizze dafiure رئيس جمهورية بادوا Podesta of padua فى ايطاليا . وكان البزو قد تولى حكم بادوا فى ١٢١٤ م. وكان رجلا عاقلا حصيفا ، دمث الاخلاق ، مهذب ، كريم ؛ وبرغم كل هذه الصفات التى امتاز بها ، الا أنه كان مولعا بالمرح ، وفى خلال سنوات حكمه اقام عند Trevise قلعه للتسليه والمرح اطلق عليها اسم «قلعة الحب » (١) The castle of Love وقد حصنت هذه القلعه بالفراء والسندل (٢) والساميت (٣) ومختلف أنواع الاقمشه الثمينه . وكان يقوم بالدفاع عن هذه القلعة اثنى عشر سيدة من أجمل وأعرق النساء فى بادوا

(١)انظر الصوره رقم (٣) لقلعة الحب .

(٢) السندل هو قماش حريرى رقيق .

(٣)الساميت هو نسيج حريرى تخالطه خيوط ذهبية وفضية .

ومعهن وصيفاتهن . وكانت اولئك السيدات يحلين رؤسهن بتيجان من الذهب مرصعة بالاحجار الكريمه كالزمرد والتوباز واللؤلؤ ومختلف انواع الزينات التى تدافعن بها عن انفسهن ضد المهاجمين .

وكان يقام مهرجان سنوى لهذه القلعه فيأتى الفرسان من البندقيه وهم يحملون راية القديس مرقص ويتنافسون مع اهالى بادوا من اجل اقتحام القلعه . ويأخذ الجميع فى قذف السيدات المدافعات عن القلعه بمختلف انواع الاسلحه الهجومية ، التى استبدلوها بحبات التفاح والكمثرى والسفرجل والكعك والبندق ، ومختلف أنواع الزهور كالزنبق والبنفسج ، والعنبر والكافور وغيرها من الزهور الجميلة .

ويشتد الصخب والمرح بين المتنافسين ، وأول من يقتحم القلعه من الفرسان يكون له شرف حكم السيدات اللاتى فى القلعه وجميع من بها من الفرسان . (١)

ولعل اكبر تعظيم وتبجيل حصلت عليه المرأة فى غرب أوروبا من جانب الكتاب والادباء فى العصور الوسطى ، تلك المكانه التى رفعها اليها كل من دانتى الليجيرى Dante Alighieri باختياره لبياتريس Beatrice أو بياتريتش لتقوم بالدور الذى اسنده اليها فى الكوميديا الالهيه Divina Commedia وبترارك Petrarch فى قصائده الشعرية Canzoniere التى خلد فيها اسم حبيبته لورا .

وقد ولد دانتى فى فلورنسا فى منتصف مايو ١٢٦٥م . من اسرة نبيلـه وماتت امه وهو طفل صغير ، ثم توفى والده وهو فى سن الثلثة عشر ،

(1) Coulton : life in the Middle Ages, cambridge, 1967, pp . 47 - 48

وتعرف دانتى منذ طفولته على التراث اللاتينى القديم ، وتلقى علومه فى بادوا وبولونيا وباريس. ودرس الفلك ،الرياضيات، الفلسفه، المنطلق ، وعلوم الدين ، كذلك قرأ الشعر الذى وجد فى ايطاليا فى ذلك الوقت والذى كتب بالعامية الايطاليه

وكان دانتى معتزا بنفسه يميل إلى العزله والسكون والبعد عن الناس ، وقد شارك فى الحياة السياسية فى ايطاليا ، وشغل بعض المناصب السياسية الهامه بها ، وكان اشتراكه فى الحياة السياسية سببا فى نفيه من فلورنسا واستقراره فى رافنا من سنة ١٣١٣ وحتى توفى بالملاريا سنة ١٣٢١ م .

وقد كتب دانتى باللغة اللاتينية رسالة «الملكية» De Monarchia قرر فيها ان الحرب هى آفة التقدم وان السلام العالمى يجب ان يكون هدف الحكام كما وضع باللغه الايطالية كتابا اسمه «الوليمه» De conivivio عالج فيه موضوعات مختلفة فى السياسه والحكمه والاخلاق والحب ، وكتابا آخر بالايطالية كذلك سمى «العاميه الفصحى» De vulgaris Eloquenta .
كذلك نظم دانتى بالايطالية الكثير من القصائد العاطفية جعلته من اعلام الشعر والادب فى نظر معاصريه ، واطلق على هذه القصائد اسم «ديوان القصائد» Canzoniere ومنها قصيدته «الحياة الجديدة» Vita Nouva التى خلد فيها اسم حبيبته بياتريس .

على أن أشهر أعمال دانتى هى الكوميديا الإلهية التى ظل دانتى يكتبها على مدى ثمان عشرة سنة ، والتى كان من أهم أسباب كتابته لها هو تمجيد بياتريس وتخليدها . وهى موجودة فى الكوميديا الإلهية بصور مختلفة ، فهى تارة مستترة ، وتارة ظاهرة ، وهى تمديد المساعدة لدانتى بشخصها حينا

وعن طريق الآخرين فى أحيان أخرى . وتظهر مرة كأنها بشر ، ومرة أخرى كأنها ملاك أو نور سماوى يقود دانتى إلى رحاب الله .

وبياتريس هى حب دانتى الوحيد — رغم معرفته لنساء عديدات بعدها — وقد عاشت فى فلورنسا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، ووالدها هو أحد وجهاء فلورنسا ويدعى فلولكوبورتينارى . وقد أحبها دانتى حبا عميقا ، لكنها لم تبادله شعوره وتزوجت من أحد الأثرياء ويدعى سيمون دى باردى ، لكن الأجل لم يمتد بها طويلا فماتت فى شرخ الصبا ، وحزن دانتى لوفاتها حزنا كبيرا ، وصارت فلورنسا بعدها من وجهة نظره مدينة ثكلى ، وبكت عليها الشمس والنجوم وزلزلت الأرض واكتست الطبيعة بالسواد .

وقد عكف دانتى بعد موتها على الدرس والقراءة للعزاء والتسلية وتحولت بياتريس فى نفسه وتجلت إلى تلك الصورة التى سجلها فى الكوميديا الإلهية فهى عنده ربة الفضائل وهى توحى إليه بشعلة من الرحمة والمحبة تجعله يصفح عن كل من أساء إليه . وهى تبذل فى سبيله كل مافى وسعها لكى تخلصه من أدران الدنيا وتسمو به إلى عالم الخلود .

وبياتريس عند دانتى هى فتاة وأمرأة . وفكر ورمز فى آن واحد ، فهى أمرأة بصفاتها الأنثوية التى أستطاع دانتى أن يقدم لنا من صورتها شيئا محدودا فلونها يشبه لون اللؤلؤ وعيناها خضراوتان ؟ وهى ترتدى اللونين الأخضر والأبيض .

ولاشك أن دانتى قد تأثر برمزية الألوان السائدة فى ذلك الوقت من العصور الوسطى فأختار لبياتريس اللون الأخضر بالذات لما يرمز إليه من

العواطف والأحاسيس الغرامية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، أما الأبيض فهو رمز الطهر والبراءة .

أما الصورة الرمزية لبياتريس عند دانتي فهي مستمدة من أصول سابقة ولكنها قريبة العهد بالعصر الذى عاش فيه . فهي متأثرة بصورة المرأة عند شعراء التروبادور وفنهم الغنائى الموسيقى الراقص . فأحد هؤلاء الشعراء وهو جيوم الأكويتانى أخذ حبه فى أشعاره ينمو ويتشكل فى صورة حب روحى نبيل بلغ حد التبجيل والتقديس والعبادة . وشاعر آخر من شعراء التروبادور هو اندرياس كابلانوس — الذى سبق أن أشرنا إليه — فى كتابه عن (فن الحب) يعبر عن مضمون هذا الحب النبيل الذى من شأنه أن يدفع الفارس النبيل إلى التحلى بالفضائل والحرص على الصدق والوفاء والأخلاص والشهامة والعفة والسمو بالنفس إلى أرفع المعانى ، وهناك أيضا اليانور الأكويتانية (١) التى تعمل على تعليم النساء كيف يأسرن قلوب الرجال ، وكيف يقمن بتعليمهم

(١) ELeanor, Aleonor, Elienor, Eonor .

اليانور اوف كوتين هى ابنة ويليام العاشر آخر دوقلا كويتين WiLLiam X وبعد وفاة والدها انتقلت إلى بلاط الملك لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧) الذى تولى رعايتها وتزوجت من لويس السابع فى ١١٣٧ ، واصبحت ملكة فرنسا ، وصحبته فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) واشتد الخلاف بينهما اثناء وجودهما بالشرق ، وانتهى الأمر بأعلان انفصالهما وفسخ زواجهما فى مجمع Beaugency فى ١١٥٢ ، وعادت اليانور إلى بلاط بواتييه Poitiers ثم تزوجت من هنرى الثانى ملك انجلترا (١١٥٤ — ١١٨٩) وتدخلت فى شئون الحكم وشجعت ابنائها على الثورة ضد والدهم الملك هنرى .

وعرف عن اليانور حبها الشديد وشغفها بالأدب والمجادلات الأدبية وجمعت فى بلاطها الشعراء والفنانين واسبغت عليهم حمايتها ، وبعد وفاتها دفنت فى مقبرة Fonrcvanlt بجوار زوجها هنرى الثانى وابنها الاثير لديها ريتشارد قلب الأسد. للمزيد عن اليانور راجع :

kelly (A) : Alienorof A quitaine, London, 1952 .

وتهذيبهم وقيادتهم ، وبذلك تكون قد أسهمت فى ظهور شخصية بياترس .

وبياتريس فى معناها الرمزى مستمدة كذلك من شخصية العذراء مريم والدة السيد المسيح ، والتى أصبحت موضوعا للتقديس والعبادة منذ القرن الحادى عشر كما سبق أن أوضحنا ذلك .

وفى بدء الجزء الأول من الكوميديا الإلهية وهو (الجحيم) يوضح دانتى كيف ضل طريقه وسط الغابه المظلمة ، وكيف هرعت بياتريس من عليائها. وجاءت إلى فرجيليوس (١) باكيـة وحملته على أن يبادر إلى تخليص دانتى مما تعرض له من المخاطر وسارع ، فرجيليوس إلى أنقاذ دانتى الذى أستعان باسم بياتريس لكى يمده بالقوة التى تمكنه من متابعة رحلته الشاقة خلال (الجحيم) وأغلب (المطهر) وهو الجزء الثانى من الكوميديا الإلهية ، أما الجزء الثالث وهو (الفردوس) فقد ظهرت بياتريس لدانتى فى موكب عظيم يجمع بين المعانى الواقعية والمثالية والإلهية فى آن واحد .

وفى الفردوس تحتفظ بياتريس بخصائصها الدنيوية والإلهية على السواء ، فهى تصعد بدانتى صوب الأعالى وهى تحنو عليه وتداعبه فى رفق وتسخر منه فى رقة وتعلمه وترشده وتدفعه إلى المزيد من الدهشة والعجب وهى تبعث من عينيها نورا يكسبه القدرة على رؤية الله الواحد الخالق . وفى أثناء ذلك لاتنسى بياتريس شئون الأرض فتتناولها من آن لآخر على سبيل السخرية أو العظة .

(١) بابليوس فرجيليوس Publius Virgilius ولد فى سنة ٧٠ ق . م . بالقرب من مدينة مانتوا فى شمال ايطاليا ، وقد انخرط فى حاشية الامبراطور اوجسطس (٢٧ق . م - ١٤م) . وكتب قصائد عديدة فى مدحه ، ويعتبر فرجيليوس من اشهر الشعراء اللاتين ، ومن أهم اعماله الملحمه الكبرى Aeneid ، وتـوفى فرجيليوس فى سنة ١٩ ق . م . ، للمزيد عنه راجع

Burgh The Lgacy of the Ancient world, London, 1955, Vol I, PP. 30?, 306, 313 - 314

وفى الأنشودة الثلاثين فى (الأمبريوم) أو سماءالسموات، أخذدانتى برؤية النور الألهى وقد أحاطت به حلقات الملائكة وحينا تعذرت عليه الرؤية أتجه بعينيه إلى بياتريس وعبر عن عجزه عن وصف جمالها بقوله :

«ولو أن كل ماقيل فيها حتى هذه الآونة قد جمع فى أمد وحه واحده ، لقصر عن الوفاء بما ينبغى لهذه المهمة ، ولايتجاوز الجمال الذى شاهدته ، أدراكنا فحسب ، بل أنى أعتقد حقا أن صانعه هو وحده الذى ينعم به كله إذ أن تذكرى لبسمتها العذبة يسلبنى قواى المدركة كأنه أثر الشمس على العينين اللتين يشتد بهما أضطرابهما » .

أما فى الأنشودة الثالثة والعشرين من الفردوس فيقول دانتى عن بياتريس :

كعصفور بين ماهو إليه حبيب من أوراق الأشجار
يحتضن عش صغاره الأحباب فى الليل الذى يحجب عنا الأشياء
ولكى يجتلى الوجوه التى إليها يتوق ويجمع الغذاء
الذى به يطعمها وهو مايستعذب فى سبيله عناء السعى
اذ به يتعجل الزمن فوق الغصن الممتد ويرتقب
الشمس بمحبه عارمة وينظر متلهفا على بزوغ الفجر
هكذا وقفت سيدتى (بياتريس) ممشوقة القوام متنبهة
وقد أتجهت إلى الناحية التى بدت من تحتها الشمس أقل سرعة

....

وبدا لى أن وجهها قد توهج كله وأمتلأت عيناها
بالنشوة حتى لم يكن بد من أن أتجاوز ذلك دون أن أعبر عنه

....

ايه بياتريس ، يامرشدتى اللطيفة الحبيبة

لقد قالت لى : «أن مايبهرك لهو فضـــــــــل
ليس لاحد أن يدرأ منــه نفســـــــــــــ ٨٤.

هذه هى بياتريس عند دانتى ، هى الحب الأول وهى الحب الأخير ، هى الماضى وهى الحاضر ، وهى المستقبل ، هى أمرأة حية ، وهى قديسة مسيحية ، وهى رمزا للصورة المثلى ، وهى وسيطة بين الانسان والله خالقه ، وقد تجمع هذا كله فى بياتريس فى آن واحد، كما أراد لها دانتى أن تكون .(١)

أما فرانسيسكو دى بتّرارك Fiancesco di petraceo فهو شاعر أيطالى كبير وهو أحد مؤسسى حركة أحياء الدراسات الانسانية الكلاسيكية ويعتبر واحد من أعلام النهضة الايطالية ، ولد فى مدينة أريزو Arezzo فى ٢٠ يوليو ١٣٠٤ ، ووالده هو السير بتّرارك Sir petracco ، وكان يشغل منصبا هاما فى بلاط فلورنسا .

وقد درس بتّرارك القانون فى الفترة من ١٣١٩ — ١٩٢٥ وقد أشتهر عن بتّرارك حبـه للترحال من بلد لآخر وفى الفترة من ١٣٣٠ — ١٣٣٧ أخـذ يتجول فى فرنسا وألمـانيـا وأيطاليـا وكان شغوفا بالـتزود بالعـلم والمعرفـة

(١)فيما يتعلق بدانتى واعماله الا دبية راجع مايلى فى مواضع متفرقة

Dante Alighieri : La Divina Commedia illustrata da Sandro Botteicelli, Roma, 1964 .

Parodi E. G. : La Peesia di Dante, 1921 .

Ricci : L' ultimo rifugio di Dante, new ed . 1921 .

Zingarelli : Vita di Dante in Compendip, Milan, 1905 .

Toynbee : Dante Alighieri, his life and works, 4 th ed 1910 .

دانتى : الكوميديا الا لهية ، ترجمة حسين عثمان الجزء الاول (الجحيم) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، والجزء الثانى(المطهر) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ . والجزء الثالث (الفردوس) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨

وخاصة الدراسات الكلاسيكية ونسخ الكثير من المخطوطات القديمة .

أما عن لورا فكان قد رآها فى يوم ٦ أبريل ١٣٢٧ وكان بترارك فى الثانية والعشرين من عمره وكان يعيش وقتذاك فى مدينة أفينون Avignon وقد ذهب صباح ذلك اليوم إلى كنيسة سانت كلارا Saint Clara لتأدية الصلاة وهناك وبالصدفة البحتة التقى بالسيدة التى ملكت فؤاده وأستولت على مشاعره ، التقى بلورا Laura .

وكانت لورا سيدة متزوجة ، ورغم الحب العنيف الذى حمله لها بترارك والذى دونه فى قصائده الشعرية عن حياة وموت السيدة لورا Rime in Vita e Morte diM adonna laura إلا أنها لم تبادله حبا بحب . فقد كان من دواعى سرورها أن تكون محورا لقصائد الحب التى نظمها فيها بترارك وثنائه على جمالها ورقتها ، غير أنها رفضت العلاقات الحميمة التى تنشأ عادة بين المحبين . وهكذا كان حب بترارك للورا حبا عذريا أفلاطونيا .

على أن الأجل لم يمتد بلورا طويلا وتوفيت فى ٦ أبريل عام ١٣٤٨ ، وحزن بترارك عليها حزنا كبيرا ، حتى وفاته فى قرية Aıqua المطلة على البحر الادرياتيكى فى ١٨ يوليو ١٣٧٤ .

ويقول بترارك أن حبه للورا قاده إلى معرفة الله ، وبدأت أحاسيسه ، تتفتح وترتبط بحب الخالق ، وكانت أشعاره فى لورا وخاصة بعد موتها مليئة بالنغمة الدينية .

كذلك فان حب بترارك للورا أرتبط فى قلبه بحب الحرية ، وقد أستمر

حب بترارك للورا لمدة واحد وعشرين عاما وكتب بترارك مصورا قوة هذا الحب : «هذا الحب أستمر عشرون عاما ، ووجد فى اليوم الأخير بنفس الحالة التى كان عليها فى اليوم الاول ، بلا تغيير ولاتبديل» .

كما قال أيضا فى القصيدة الثالثة Sonnet III فى موت السيدة لورا In Mortedi Madeonna Laura «العلاقةالتى تأججت نارها فى كل ساعة طوال واحد وعشرين عاما ، فصمها الموت» .

ويصور بترارك معرفته بلورا للمرة الاولى وحبه لها ثم موتها وكيف وصله خبر وفاتها فيقول فى مذكراته التى كتبها باللاتينية :

«لورا ، أشتهرت بفضائلها ، ولزمن مديد سيذيع صيتها بفضل شعرى . أتضح للمرة الاولى أمام ناظرى أننى بدأت سن المراهقة فى سنة ١٣٢٧ من ميلاد المسيح ، فى اليوم السادس من شهر أبريل وفى كنيسة سانت كلير فى أفينون ، فى ساعات الصباح .

وفى نفس شهر أبريل ، وفى نفس اليوم السادس ، وفى نفس ساعات الصباح ، ولكن فى عام ١٣٤٨ ، خطفت (لورا) فى وضح النهار ، حيث كنت فى فيرونا ، جاهلا بما حدث ، واحسرتاه على قدرى .

الخبر المشئوم ، جاءنى فى بارم parme فى رسالة من صديقى لويس صباح ١٩ مايو من نفس العام .

هذا الجسد الذى كم هو طاهر ، وكم هو جميل ، أودع فى دير الاخوة الفرنسيسكان فى مساء نفس يوم موته . أما روحه فقد عادت إلى السماء التى كانت قد أتت منها .... بفضل عناية الله سيصبح هذا الخطب محتملا ، لو

أننى واجهت بجرأة وشجاعة ، الاتجاهات غير المجدية ، الآمال التى لاطائل من ورائها ، والنهايات غير المتوقعة ، لحقبة السابقة » . (١) .

وهكذا تم تخليد بترارك لحبيبته لورا التى لم يقتصر دورها فى حياته على إدخال السعادة والبهجة على نفسه نتيجة لهذا الحب ، وإنما كان لها دورا أكبر وأعظم من ذلك كله ، حيث قادته إلى معرفة الله والحرية ، وهو أشرف وأنبل دور يمكن للمرأة أن تلعبه فى حياة الرجل .

---

(١) فيما يتعلق ببترارك وحياته واعماله الادبية راجع مواضع متفرقة من هذه الكتب .

De Sanctis : Saggip critico Sul petrarca, 1895 .
Mazzei : La vita e Le opera di petrarca, 1927 .
Tatham : Francesco petrarca, his life, and correspondence, 1925 .
De Sade : Memoires de La vie de petrarque, Amesterdam, 1764 - 67 .
Gilson : Petrarque et sa Muse, oxford, 1946 .

الفصل الثاني

حقوق المرأة وواجباتها



يقول المؤرخ فردريك هير F. Heer أنه لم يكن للمرأة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى أى حق فى أى شىء ، فالقانون كان خاص بالرجال وحدهم ، والرجل هو صاحب السلطة الوحيد فى العائلة وفى المجتمع وفى الدولة . بل أن أحدى القواعد الثابتة فى العصور الوسطى كانت :

Woman'S Voice is not to be heard in public

هذا باستثناء حق واحد فقط هو الميراث ، فقد كان من حقها أن ترث والدها أو زوجها (١) .

على أن المؤرخة بور Power توضح أن القانون الأنجليزى كان يعتبر المرأة النبيلة غير المتزوجة أو التى توفى عنها زوجها ، شخصية متميزة عن العامة ، فكان يهتم بحقوقها وواجباتها لدرجة المساواة بالرجل ، فمن حقها حيازة الأرض الزراعية ، وتحرير وصية أو عقد، ولها أن تقيم دعوى أمام القضاء أو ترفع عليها الدعاوى ، لكن بمجرد زواجها فأن هذه الحقوق كلها تنسل من يديها ليستحوذ عليها الزوج .

وإذا كانت سيدة نبيلة كبيرة السن دون زوج فانها تمنح نفوذا وسلطة واسعة ، وتصبح شخصية عامة ذات شأن كبير فى المحيط الذى تعيش فيه ، ذات كيان عن أى رجل أقل منها حيازة للارض الزراعية .(٢)

أما فيما يتعلق بحقوقها فى الزواج ، فانه لم يكن للفتاة من الطبقة العليا فى المجتمع أى رأى فى أختيار شريك حياتها ، إذ كانت المصالح المادية هى

(1) Heer : op. cit. p. 261.

(2) Power: Medieval Women, edited by postan, Cambridge university press Cambridge, 1981 p 38

صاحبة الرأى الأول والأخير فى هذا الأمر ، وكان زواج المصلحة Mariage de Convenance أمرا شائعا ومألوفا فى العصور الوسطى ومثل هذه الزيجات كثيرا ماأملتها المصالح التى تتعلق بالأرض وكانت عبارة «لاأدرى أية عوائق تحول دون الزواج بين أصحاب الاقطاعات الكبيرة» هى العبارة التى أسترشد بها كبار السادة الاقطاعيين للموافقة على زواج بناتهم أو قاصر تحت وصاية أحدهم .

وكانت قصص الزواج هذه تمتزج فيها الفكاهه بالكآبه الأليمة ، وليس أدل على ذلك من قصة طفلة تدعى جزيس دى سلبى ، زوجوها وهى فى الرابعة من عمرها نبيلا عظيما من أجل أراضيها الواسعة ، وبعد أن توفى عنها زوجها بعد عامين ، تزوجت شخصا ثانيا ، وعندما أصبحت فى الحادية عشر من عمرها تزوجها شخص ثالث . (١)

وهكذا يتضح أن الفتاة المنتمية للطبقة الارستقراطية لم يكن لها حق أختيار زوجها ولم تتح لها الفرصة لقبوله أو رفضه ، فكثيرا ماكانت تزف عفو الساعة ، أو تزف إلى رجل لم تره من قبل إما لتسهيل التحالف والأمدادات العسكرية ، أو من أجل صفقة من صفقات الضياع ، أو غير هذا وذاك من المصالح المادية البحتة . وكانت سعادة المرأة فى حياتها الزوجية متوقفة إلى حد بعيد على الحظ ، فربما سعدت بهذا الزواج ، أو حدث نوع من الألفة والمودة بينها وبين زوجها ، كما حدث مع الأديبة الفرنسية كريستين دى بيزان التى عبرت عن ذلك تعبيرا مؤثرا حين تداعت إليها ذكريات ، حياتها السعيدة مع زوجها الذى توفى عنها ، فقالت :

---

(١) Grump & Jacob : op . cit . p . 414 .

بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٣٩ ، ص ١٨٨

كان يحبنى ، وكـان هـــذا حقــه
الذى وهبه أياه سن الشباب
ولو أستطعنا تنظيم كــل شـــئ
حبنــــا وقلبينـــا
لأحــب كل منــا الآخـــــر
حبا يفوق الأخـوة والأخـوات
ولكنا أندمجنــا قلبــا وقالبــــا
فى السراء والضــــراء (١)

على أنه فى معظم الزيجات كان يحدث عكس ذلك ، حيث تظل المرأة تشقى بهذا الزواج ، وربما قضت حياتها كما قضتها دوقة برنزويك التى صورت حياتها مع زوجها وهى على فراش الموت أمام القس الذى أدلت إليه باعترافها الأخير ، فقالت :

„ياأبى العزيز ، لماذا لاأذهب الآن إلى ملكوت السماء ؟ أنى عشت هنا فى هذه القلعة عيشة الراهبة فى الصومعة ، فما هى ألوان السرور والسعادة التى تمتعت بها هنا ، ماعداأنى وضعت هذا القناع الزائف على وجهى ، حتى أبدو سعيدة أمام خدمى وحاشيتى من الفتيات ، وأمام سيدات المجتمع .أن زوجى — كما تعلم — رجل فظ ، يكاد قلبه يخلو من كل عطف وأهتمام بالنساء أو ميل اليهن ألم تكن حياتى فى هذه القلعة كأنى فى صومعة ؟“ (٢)

كان هذا مايتعلق بالفتاة من الطبقة العليا ، أما الفتاة من الطبقة المتوسطة

(1) crump & Jacob : op. cit. p. 416.

(2) Johannes Busch : liber de Reformatione Monasteriorul, ed. Karl Grube, Halle, 1886, p. 779.

أو الفقيرة فقد كانت أسعد حظا ، فلم تكن على جانب من الثروة بحيث تتحكم المصالح المادية فى أختيار شريك حياتها وإنما كان من حقها الموافقة على الخطيب أو رفضه . وفى حالة إذا لم تكن رأته من قبل ، كانت ترتب بينهما مقابلة ليتعرف كل منهما على الآخر . فيأتى الفتى مصحوبا باشقاء الفتاة إلى منزلها ، ثم تدخل هى إليه حافية القدمين . عارية الرأس ويجلسان بحضور أشقاء الفتاة يتفحص كل منهما الآخر ، ولها بعد ذلك أن تبدى رأيها أما بالقبول أو الرفض . (١)

وفى حالة الزواج يصبح على المرأة القيام بالعديد من الواجبات تجاه زوجها ، وأول هذه الواجبات ، أن تقدم له صداق عينى أو نقدى ، يتناسب مع حالتها من الغنى أو الفقر. فى حالة الفتاة التى تنتمى للطبقة الارستقراطية كان عليها أن تقدم لزوجها صداقا كبيرا يتمثل فى أقطاع واسع أو مبلغ محترم من المال . أما إذا لم يتهيأ لها ذلك ، فكان من الطبيعى أن تتعرض لادبار الرجال عنها وهو الأمر الذى كانت تخشاه الفتاه والأسرة معا ، وكانت الأسرة غالبا ماتتخذ الاحتياطات اللازمة لتلافى هذا الأمر . فكان الوالد إذا شعر بدنو أجله فعل كل مافى وسعه ليترك لبناته صداقا مناسبا لزواجهن .

ولاتعفى من موضوع الصداق هذا حتى الفتيات من أدنى الطبقات ، وقد تعاون المجتمع المسيحى فى غرب أوروبا على حل هذه المشكلة فكانت أحدى أوجه الصدقات المعروفة إذ ذاك هو الجود بالصداق للفتيات الفقيرات . (٢)

وبمجرد أتمام عقد الزواج تصبح الزوجة وجميع ماتملك ملكا خالصا

(1) Coulton : Life in the Middle Ages, Cambridge, 1828, P. 219.

(2) Crump & Jacob : 0p. cit., P. 262.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للزوج ، ومن حقه نقل ملكيتها لاى شئ سواء كان ذلك أقطاعا أو عقارا أو أموالا سائلة أو أى شئ آخر تملكه يصبح من حقه نقل ملكية هذا الشئ إليه وباسمه هو . وليس لها أية حقوق تجاهزوجهاو كمايقول المؤرخ بنتر painter كان الزوج بالنسبة لزوجته مثل الله بالنسبة له . (١)

وإلى جانب ذلك ، كان على الزوجه كواجب نحو زوجها ن تنجب له ولدا ذكرا واحدا على الأقل ، فان كانت سيئة الحظ لدرجة أن لايتحقق لها ذلك كان من السهل على الزوج أن يقنع الاسقف بفسخ عقد الزواج . (٢)

وبصفة عامة كان من أهم واجبات الزوجة الخضوع التام لزوجهـــا والطاعة العمياء لاوامره والصبر على تصرفاته . ولعلنا نلم بمعلومات أوفر عن هذا الموضوع إذا ماقمنا بجولة بين صفحات كتاب «مدبر البيت الباريسى» Managier de paris وهو رجل ينتمى إلى الطبقة البورجوازية الرفيعة ، عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ،وكان يبلغ الستين من عمره ، حين تزوج من فتاة صغيرة تبلغ الخامسة عشر ، أعرق منه نسبا.وقد ألف كتابه هذا لاعتقاده بأن زوجته ستتزوج غيره بعد وفاته ، فألف لهـــا هذاالكتاب ،ودون فيه كل مالديه من معلومات عن جميع مايلزم المرأة لتكون زوجة صالحة ومدبرة بيت وسيدة كاملة ، حتى يضمن لزوجته حياة زوجية سعيدة ومستقرة فى زواجها المقبل .

وقد بدأ مدبر البيت الباريسى كتابه بفقرة طويلة عن مراعاة الدين والتقى والورع والمسلك اللائق ، ثم أنتقل إلى مخاطبة زوجته الشابه قائلا :

---

(1) Painter : History of the Middle Ages, p. 121.
power : Medieval women, pp . 38 - 40 .

(2) Stephenson : Medieval History, New York, 1942, p . 268.

«يجب عليك أن تهتمى بزوجك ، وتراعى حاجاته . وأرجو منك أن تبقيه نظيف الثياب دائما فان ذلك من جملة وظائفك» .

بعد ذلك يتحدث عن الأعمال التى يقوم بها الزوج خارج المنزل ومايتكبده من المشقة والعمل والسفر هنا وهناك ، حتى إذا عاد للمنزل على الزوجة أن «تخلع حذاءه أمام مدفأة متأججة النيران ، وتغسل قدميه ، وتعطيه جوربا نظيفا ، وتضع على رأسه طاقية نوم جيدة الصنع ، وتغطيه بالفراء ، وتغمره بغير ذلك من الأفرح والمسرات» .

ويستطرد هذا البورجوازى الباريسى موجها كلامه لزوجته قائلا :
«وأنصحك بناء على ماتقدم أن تكونى دائمة البشاشة لزوجك فى جميع غدواته وروحاته ، دائبة عليها ، وأنصحك كذلك أن تكونى مسالمة معه ، بعيدة كل البعد عن كل مايجلب الشجار أو يؤدى إليه ، وتذكرى المثل الذى يقول : ثلاثة تبعد الرجل الصالح عن بيته ، سقف واكف ، ومدفأة داخنة وزوجة طويلة اللسان معنفة . لأجل ذلك أطلب إليك أيتها الأخت الجميلة أن تكونى محبة لزوجك ، وديعة ، دمثة الأخلاق ، حتى تنالى محبته وعطفه ورعايتـــه» .

ولاشك أن هذا البورجوازى ، يعبر فى نصائحه هذه عن وجهة نظر أبناء جيله فى موقف الزوجة من زوجها ، ولعل من الطريف حقا أن يشبه حب الزوجة لزوجها ، باخلاص الحيوانات الأليفة لأسيادها فيقول :
«ترى بين الحيوانات الأليفة أن الكلب دائم القرب من الشخص الذى يتناول منه طعامه مبتعدا عن الآخرين ، هيابا منهم ، فظ فى معاملتهم سواء أكان ذلك فى الطريق أو على المائدة ، أو فى الفراش ، فإذا لم يستطع الكلب أن

يقترب من سيده ، فان عينيه تظلان متعلقتين به ، ويظل قلبه دائم الحنين إليه ، ونجد الكلب يتبع سيده ، حتى عندما يجلده أو يقذفه بالحجارة ، وهو يهز ذنبه ويستلقى على ظهره أمام سيده محاولا استرضاءه واسترجاع عطفه، وترى الكلب يتبع سيده أينما سار فى الغابات وفى الأدغال ، وفى الأنهار ، وإذا ماصال هاجما على السارق أو على الأعداء . لهذا ولسبب أقوى وأقوم يجب على المرأة التى وهبها الرب أحساسا طبيعيا وجعلها مدركه عاقلة أن تحب زوجها حبا كاملا . مهيبا مقدسا ، ولذلك أتوسل إليك أن تكونى عظيمة الحب لزوجك ، شديدة الكتمان لأسراره » . (١)

وهكذا كان على الزوجة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى أن تتخذ من الكلب قدوة حسنة تقتدى بها وتسير على منوالها فى الأخلاص والوفاء لسيدها .

والزوجة المثالية هى تلك التى تتوفر فيها الصفات الثلاثة : المنفعة ، بحيث يكسب الزوج من ورائها أقطاعا كبيرا أو مبلغا ضخما من المال ، والجمال، بحيث تدخل السعادة على قلب زوجها فى كل وقت ، والأخلاص بحيث تكون أمرأة فاضلة تحافظ على نفسها وبيتها وأسرار زوجها . (٢)

وعلى المرأة أن تقدم هذا كله لزوجها دون أن تنتظر منه شيئا ، بل أكثر من ذلك تكون عرضه للضرب لأقل كلمة تصدر منها ويعتقد الزوج أنها أكثر مما يظنه مناسبا .

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، صص ١٥٠ - ١٥٥ .
power : Medieval women, pp . 50 - 52 .
(2) Coulton : op . cit . p. 219.

وقد أباح القانون للزوج ضرب زوجته ضربا مبرحا ، وكتب فى هذا الشأن الفارس الفرنسى جيوفرى لاتور لاندرى knight of la tour - Landry الذى عاش فى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، فى القرن الرابع عشر ، كتب يقول : «لما كان القانون قد أباح ضرب الزوجات ضربا مبرحا لتصحيح مسارهن ومسلكهن ، وهذا التعذيب ذا فائدة كبرى لتقويم أخلاق النساء لذلك يجب على الأب أن يمارس هذا العقاب البدنى عمليا على نطاق واسع مع بناته قبل زواجهن حتى تتعودن عليه» . (١)

وقد أيد كتاب العصور الوسطى حق الزوج فى ضرب زوجته وإيذائها إذا خالفته أو سببت له أية مضايقة ، ورغم أن القانون الكنسى لم يحرم أنزال العقاب البدنى بالزوجة إلا أن الكنيسة تدخلت فى هذا الأمر ، وكل مافعلته أنها حددت حجم العصا التى يحق للزوج أن يستخدمها فى ضرب زوجته . (٢)

ولم يترفع الرجال عن أستعمال حقهم هذا ، ولم يتخلوا عنه حتى فى عصر الفروسية الذى أشتهر بانه العصر الذهبى للمرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى . وتقول المؤرخة بور «أنه كثيرا مانقرأ فى الأشعار التاريخية المعروفة باسم Chamsonde Jeste وفى الكتاب الذى وضعه فى القرن الرابع عشر الفارس الفرنسى جيوفرى لاتور لاندرى عن رجال يضربون زوجاتهم وهم فى ثورة من غضب » . (٣)

---

(1)La tour - landry : liver pour L, education de mes filles ed . de Montaiglon paris, 1854, p . 27 .

(2) painter : Medieval Society, New York, 1955.

: A Histery of the Middle Ages, p . 121 .

(٣) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٤٢ .

وانظر كذلك الصورة رقم (٤) كنموذج لضرب النساء فى العصور الوسطى .

وقد أستعمل الرجال الضرب المبرح ، وهو الأمر الذى نهى عنه الأسلام وربما أحدثوا بهن بعض العاهات ، مثال ذلك الزوج الذى ضرب زوجته ضربا مبرحا أفقدها السمع باحدى أذنيهـا . (١)

وقد آمنت الزوجات من جانبهن بحق الرجال فى ضربهن ، ولم ينكرن هذا الحق وهذه زوجة البورجوازى الباريسى . تطلب منه أن يعاقبها بالضرب إذا فعلت مايوجب ذلك وهاهو يذكرها بهذا فيقول :

«فى الأسبوع الذى تزوجنا فيه ، وكنت يومذاك فى الخامسة عشر ، توسلت إلى أن أنظر لشبابك وإلى خدماتك الصغيرة الجاهلة بعين العطف .... وقد توسلت إلى بضراعة وسألتنى بحب الرب أن لاأصلح أخطاءك بقسوة أمـام الغرباء ، ولاأمام ذوى قربانا ، وأن أنصحك وأصلح أخطاءك .... وأن أعاقبك بالضرب إذا رأيت ذلك ضروريا ، ووعدتنى بأنلاتقصرى فى أصلاح أخطاءك حسب تعليمى وأرشادى ، وأن تبذلى جهد طاقتك فى السير حسب رغبتى ومشيئتى» . (٢)

وإلى جانب واجبات المرأة تجاه زوجها ، كان عليها القيام بواجبات ، كثيرة كربة منزل ومن الأقوال المأثورة فى هذا الصدد :

قـــد يرسل الطقس شيئـــــــا
من الراحــــــة لـــــلازواج
أما واجبــــــــات المـــــرأة
فلا حد لها ولانهايـــــــة

---

(1) Crump & Jacob : op. cit. p. 403.

(٢) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ص ١٤١

فالسيدة من الطبقة الارستقراطية أو البورجوازية ، كان عليها إلى جانب عنايتها بالمنزل ومراقبة الخدم داخله والأشراف على أعمالهم ، الأشراف كذلك على صناعة المواد الغذائية والملابس التى يمكن صناعتها فى الأقطاعية ، وتخزين ماتبتاعه من الحوانيت أو أقرب مدينـة أو الأسواق الموسميـة السنوية . والأشراف على عمل الخبز والجعة والجبن والزبد وتقديد اللحم وتخزينه لأستعماله فى فصل الشتاء .

كذلك التصرف فى كافة الأعمال المختصة بالضيعة أثناء غياب زوجهـا وكثيرا ماكان الزوج يتغيب ، سواء فى الحج أو فى الحرب أو فى العمل أو غير ذلك من الأسباب . لذلك كان على الزوجة أن تكون على ألمام بالقانون الأقطاعى لتدافع عن حقوق زوجها وأولادها .

والجدير بالذكر أنه رغم أن الزوجه لم تكن تتمتع بأية حقوق تجـاه زوجها إلا أنها تمتعت بكل مالزوجها من حقوق تجاة الآخرين . كذلك كان عليها أختيار العمال والمداومة على مراقبتهم أثناء تأديتهم لعملهم ، ومعرفـة المواسم الملائمة للزراعة وأنواع المحاصيل المناسبة للتربة ، والأعتناء بالحيوانات والأسواق التى تباع فيها المنتجات الزراعية بأحسن الأسعار حتى تسوق منتجات الضيعة كذلك كان عليها التجول الدائم فى الضيعة وملاحظة الحقول والمراعى والغابات . (١)

ولعل الشاعر الفرنسى ديشامب الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر يرسم صورة صادقة للاعباء الملقاة على عاتق المرأة فى الضيعة الأقطاعية حين يقول على لسانها :

---

(1) Crump & Jacob : op . cit . p . 418 .

أنى مكلفة بالأشراف على كل شـــــــــىء
وليس لـــدى وقت لتحريك قدمـــــــــى
ومسئوليتى تقع فى عشرين مكانـــــــــا
فهذا يقول لى «الأغنام فى حاجة لجز صوفهـــــا»
و ذاك يقول لى «الحملان فى حاجة إلى الفطـــــام»
وآخر يقول «الكروم فى حاجة إلى العنايـــــــة»
وآخر يقول «أنـــا مشغول بحـــــــرث الأرض»
وآخر يقول «لابد من مراقبة سير القطيـــــــع»
وآخر يقول «يجب أن أسلخ البقرة التى نفقـــــت»
وآخر يقول «لابد من تغطية الأجران والحظـــــيرة»(١).

وكان على السيدة قبل أن تأوى إلى فراشها بعد هذه الأعمال اليومية المرهقة أن تجوس خلال الدار تغلق الأبواب وتتأكد أن الخدم قد أووا إلى مضاجعهم .

ولم ينسى مدبر البيت الباريسى أن يقدم النصيحة لزوجته بخصوص موضوع الخدم ، ومما قاله فى هذا الشأن :

« إذا أستأجرت خادمة (أو خادما) وكانت أجابتها على أسئلتك بثرثرة أو بتعجرف فأعلمى أنها عندما تترك خدمتك سوف تسئ إلى سمعتك بقـــدر أستطاعتها ، وعلى العكس إذا أطرتك وكلها ملق ومداهنة ، لاتثق فيها ، فهى متفقة مع أحد ما على خداعك . أما إذا أحمر وجهها خجلا وكانت صامتة عندما تصححين أخطائها فاسبغى عليها حبك وكأنها أبنتك» .

---

(1) I b id : p . 423 .

ويستطرد فى تقديم نصائحه بخصوص الخدم فيقول « فى المساء لا بدأن يتناولوا طعامهم ثانية ، ولابد أن يكونوا قادرين على تدفئة أنفسهم حــول النيران ، وفى منتهى الأسترخاء ويجب على الزوجة أن تغلق أبواب المنزل وتقودهم إلى الفراش ، وتضع بجانب كل فراش شمعدان ليضع فيه شمعته ويجب ن نلقنهم بحكمه أطفاء الشمعة بالفم أو باليد قبل الولوج إلى الفراش وليس بقذف الشمعة بقميص» .

«وإذا أستخدمت خادمة تبلغ من العمر خمسة عشر عاما أو عشرين عاما ، أعلمى أنهن فى هذا العمر يكن حمقاوات ولايدركن مايجرى فى الدنيا ، لذلك يجب أن ينمن بالقرب من الردهة المؤدية إلى حجرة نومك . أو فى حجرة بدون منور أو نافذة منخفضة تطل على الطريق ، وأتركيها تنام وتنهض من النوم فى نفس ميعادك ، وأعتنى بها ، وإذا مرض أحد الخدم دعيه ينام بعيدا عن الآخرين ، وأوليه كل الحب والود والأهتمام ، وداومى على زيارته حتى يهدى إليه الشفاء» . (١)

كانت هذه الأعباء كلها ملقاه على عاتق السيدة المنتمية للطبقة العليا ، فإذا هبطنا درجة فى سلم الطبقات الإجتماعية ، حيث لاتوجد ضياع تتولى المرأة الأشراف عليها ولاخدم يعاونونها فى تنظيم شئون المنزل ، وجدنا أن على المرأة أن تقوم بكافة أنواع المنزل وحدها ،وعليها أن تمد أسرتها بكافة مايلزمهم حتى الملابس عليها أن تقوم بغزلها ونسجها أعتمادا على نفسها. وإذا هبطنا إلى أدنى درجات السلم الإجتماعى وجدنا من الطبيعى أن تزداد أعباء ربة

(1) Power : Medieval Women, pp . 40 - 52 .

المنزل ، إذ أنها كانت مضطرة بوجه عام لمساعدة زوجها فى حرفته وعليها كذلك أن تقوم بحرفة ثانوية مستقلة هذا بالإضافة لعنايتها بالمنزل والأطفال .

وبصفة عامة كان من المنتظر من ربة البيت فى جميع طبقات المجتمع الغربى الوسيط بالإضافة لأعبائها السابقة الذكر ، أن تعتنى بأفراد الأسرة فى الصحة والمرض على السواء لذلك كان عليها أن تكون على دراية بالطب ، والجراحه ، وكانت أسرار أعداد العقاقير الطبية تنتقل من الأم إلى الأبنة مع وصفات عمل أطباق الحلوى وزجاجات العطر . (١)

(I) Covlton : op. cit., pp. 225 - 226 .

Crump & Jacob op. cit , pp. 421 - 423 .



الفصل الثالث

الراهبات



لقد كانت هناك فئة من الفتيات اخترن حياة النسك والرهبنه (١) والجدير بالذكر أنه كان فى مطلع العصر الذهبي للرهبنة لا يدخل الدير ، الا اللاتى لهن استعداد طبيعى لحياة الرهبنة ، فكن يدخلن الدير لاشباع الناحية الدينية فى نفوسهن ، على انه بعد ذلك أصبح الوالد هو الذى يقرر ، كم من بناتـــه يتزوجن ، وكم منهن يختار لهن حياة الرهبنة فان لم يستطيع تحقيق ذلك فى حياته ، كان ينص عليه فى وصيته .

والغريب أن أبواب الاديرة كانت مفتوحة لبنات النبلاء والاغنياء وكبار التجار فقط ، مغلقةفىأوجه الفتيات الفقيرات أو ذوات النسب الوضيع ، وكانت فتيات الفئة الاولى لايدخلن الاديرة فى الاعم الاغلب ، الا بعد أن يبلغن السن التى يستطعن فيها الترهب عن ارادة حرة ورغبة اكيدة ، غير انه اذا حدث ان دخلت فتاة لم تبلغ تلك السن بعد ، كان يتحتم عليها ان تقضى بضع سنوات كراهبة مبتدئة حتى تبلغ السن التى تصبح فيها أهـــلا للترهب عن حرية واختيار .

وكان من الضرورى أن تقدم الفتاة للدير عند دخولها مبلغا من المال ، تماما كما يحدث مع الزوج الدنيوى ، وان كان الدير أقل جشعا ، اذ كان الصداق الذى يتطلبه أقل من صداق الزوج الدنيوى

---

(١) من أحسن البحوث التى ظهرت فى هـذا الموضـوع كتاب بور «الا ديرة الا نجليزية الوسيطة» ، وهو يتعرض لنظام اديرة الراهبات وحياتهن داخلها ، وهذا الكتاب هو المرجع الرئيسى الذى تم الاعتماد عليه عند معالجة هذا الموضوع إلى جانب ما سيتم الا شارة اليه من مراجع فى حواشى هذا الفصل راجع :

Power : Medieval English Nunneries, Cambridge, 1922 .

راجع أيضا :

Eckenstein : Women Under Monasticism, Cambridge, 1896 .

وكان هذا الامر يتنا فى مع قانون الكنيسة الذى يمنع تقديم أى شيء للدير ماعدا الهبات التى يقدمها صاحبها عن حرية واختيار . (١)

وفى اليوم الذى تصير فيه الفتاة راهبة ، كان على والدها أو الوصى عليها ان يولم وليمة فاخرة يدعوا اليها جميع الراهبات فى الدير وعدد من أقاربه واصدقائه ، وكان عليه أن يهب القس الذى يقرأ الموعظة فى ذلك اليوم مبلغا من المال . ومتى أصبحت الفتاة راهبة منحت لقب (دام) أو (مدام) وهو لقب غير رسمى كان يمنح لها تأدبا واحتراما .

وكان على الراهبة أن تتحلى بأمور ثلاث اساسية ، هى الطاعة والفقر والطهارة ، وتحقيقا للامر الثانى وهو الفقر ، كانت الراهبة ترتكب اثما كبيرا اذا ماادعت لنفسها ملكية خاصة مهما تضاءل شأنها ، وبناء على ذلك كانت تعتبر غير موجودة بالنسبة لعالم الاحياء، فلا تستطيع أن ترث أرضا أو غير ذلك من الاملاك العينية أو النقدية . (٢)

وكان كل دير له فى الواقع صفتان ، الصفة الدينية، والصفة الاجتماعية ، فاذا نظر اليه من حيث أنه وحده دينية ، فهو دار للعبادة والتقوى والورع ، وكانت الصلاة واجبا أساسيا على الراهبات أن يقمن به ، وكن يصلين سبع مرات فى اليوم الواحد ، وتبدأ اولى هذه الصلوات فى حوالى الساعة الثانية صباحا وهى صلاة السحر ولاشك أن الراهبات كن يعانين صعوبة كبيرة

(1) Crump & Jacob : op . cit . p . 43 .

(٢) كولتون : الديرية ، اسبابها ونتائجها ، مقال فى كتاب تاريخ العالم ، ترجمة إلى العربية الدكتور جمال الدين الشيال ، ونشره فى مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٥٧ ، ص ١٩٢ .

بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، صص ١٠٨ — ١٠٩

فى الاستيقاظ فى هذه الساعة ، وقد توقع القديس بندكت (١) هذه الصعوبة فكتب فى قواعده « عندما يستيقظ الرهبان والراهبات لاداء الصلاة المقدسة فليشجع بعضهم بعضا ، ويحثوهم بلطف على النهوض بسبب الاعذار التى يقدمها الذين مازالوا فى حالة نعاس » .

بعد هذه الصلاة يعدن إلى مراقدهن ليستيقظن فى الساعة السادسة صباحا فيقرأن قداس الفجر Prime ، ويعقب ذلك خمس صلوات اخرى هـم صلاة فى التاسعة صباحا تسمى Tierce واخرى تسمى Sext والثالثة صلاة الظهر ، ثم صلاة العصر واخيرا صلاة النوم . وقد كانت الصلاة الاخيرة تؤدى فى الساعة السابعة مساء فى الشتاء والثامنـة

---

(١) يعتبر القديس بندكت المؤسس الحقيقى للديريه فى ايطاليا ، وقد ولد بها فى سنة ٤٨٠ م ، وهو ينتمى لعائلة ايطالية ارستقراطية ثرية ، وعندما بلغ بندكت مرحلة الشباب هجر دراسته فى روما واثر الانعزال فى كهف بعيد تفرغ فيه للتعبد ، ولما كثر حولـه المريدين انتقل معهم حوالى ٥٢٠ م. للاقامة فى معبد قديم للاله ابو لو عند مونتكاسينو فى منتصف الطريق بين روما ونابلى ، وتم اعداد هذا المعبد لاقامة أول دير اسسه القديس بندكت وهو دير مونت كاسينو ، ووضع له النظم الدينية التى سار عليها والتى كان اهمها انكار الذات والطاعه والعمل والمساواة التامة بين افراد الدير ، وقد انخرط كثير من بنات الطبقة الارستقراطيه وخاصة فى انجلترا فى سلك الرهبنه واخترن النظام البندكتى كأساس لحياتهن الديرية وكن على مستوى مرتفع جدا من الثقافه ، كما كانت الاديرة البندكية تمتاز بالتنظيمات الدينية الهامه والنفوذ الاجتماعى الكبير الذى استحوذت عليه فى المجتمع .

للمزيد عن النظام البندكتى راجع :

Butler : Monas'icism, C . M. H, ed Bury, Cambridge, 1975 , vol, ch .xv III , pp . 535 - 542 .

Workpan : The E volution of the Monastic Ideal, London, !957 .

Thompson : The Middle Ages, Vol I, London 1931 .

مساء فى الصيف . وبعد تأدية هذه الصلاة كان يفترض ان تأوى الراهبات إلى مضاجعهن دون ابطاء .

وقد كانت الراهبات يتناولن ثلاث وجبات فى اليوم . الاولى هى وجبة الفطور وكن يتناولنها بعد صلاة الفجر وكانت غالبا تتكون من الخبز والبيرة اما الغذاء فكن يتناولنه عند منتصف النهار تصاحبه قراءة جهورية ، والوجبة الاخيرة وهى وجبة العشاء كن يتناولنها بعد صلاةة العصر مباشرة فى الساعة الخامسة أو السادسة مساء . (١)

وكان يفترض ان يسود السكون المطلق فى الدير . اذ كانت قوانين الرهبنة تفرض على الراهبات الصمت . ولم يكن المقصود الصمت التام غير ان المصلحين المتزمتين كانوا يفسرونه على هذا الوضع ، لذلك كان عـلى الراهبات ان تتحاشين المحادثات العامة سواء كان ذلك فى مكان العمل أو فى اى مكان أخر . ولذلك كن يتفاهمن بالاشارات ، وقد كانت هناك قوائم خاصة بالاشارات التى يتعين على الراهبة استعمالها داخل الدير تحاشيا للكلام .

وقد كانت هذه الاشارات تستعمل حتى حول موائد الطعام ، ولاشك انها كانت كفيلة باحداث جو من المرح اكثر مما تثيره الاحاديث المرحـــة . فقد كان يتعين على الراهبة التى تريد ملح مثلا ان تنقر بابهام وسبابة اليد اليمنى ابهام اليد اليسرى ، والتى تريد سمكة ان تهز ذراعيها هذا تقلد به السمكة ، والتى تريد نبيذ ان تحرك السبابة صعودا وهبوطا على نهاية الابهام امام العين واذا ارادت لبنا يجب عليها أن تسحب أصبعها الصغيرة بطريقة تدل على حلب

(1) power : Medieval women, pp . 92 - 93 .

اللبن ، والتى نسيت احضار البخور لصلاة القداس عليها ان « تضع اصبعها فى فتحى الانف » . وهكذا .(١)

وقد احتوت احدى القوائم الموضوعة للراهبات على مالا يقل عن مئة وست أشارة وقد كان نظام الراهبات ينص على أنه « غير مسموح اطلاقــا استعمال هذه الاشارات دون سبب مبرر ، ودون حاجة نافعة » . غير أنه فى وقت متأخر ابيح للراهبات استعمال غرفة المحادثات Parlaterium لاوقات معينة اثناء النهار . (٢)

أما من حيث ان الدير كان وحده اجتماعية فهو يضم بين جدرانه جماعة انسانية من البشر تطعم وتكسى ، ويعاونها مستخدمون يديرون مزرعة الدير ويقومون بعمليات البيع والشراء وتدوين حسابات الدير ، وعلى الراهبة المشاركه فى هذه الاعمال كلها ، شأنها شأن صاحبة الضيعه .

وكانت الاعمال والواجبات اليومية تمارس تحت اشراف عدد من المسئولات يطلق عليهن اسم «صاحبات الطاعه والانقياد الرهبانى» Obedientieries يخترن من بين الراهبات ذوات الخبرة والدراية . واهمهن جميعا « خادمة الكنيسة « أو » القندلفت » Sacristan التى يوكل اليها أمر ترتيب الكنيسة وانارة الدير .«وخادمات غرف النوم» Chambresses وهن اللاتى يعتنين بملابس الراهبات و (خازنات المؤنه) Cellaress وهن اللاتى يشرفن على الطعام ويدون منزل الضيعه .

وكان يوجد بكل دير (منزل الضيعة) وهو المكان الذى يخزن به الخبز

---

(1) Aungier G : History and Antiquities of syon, London, 1840 , 405 - 409.

(٢) كولتون : الديرية ، اسبابها ونتائجها ، ص ١٩١ .

واللحم والجعه والخضروات ومنتجات الالبان وكل مايتعلق بالطعام ، وخصوصا ثلاث سلع استهلاكية مهمه وهى السمك ، الملح ، والتوابل ، وهى السلع التى كانت الراهبات يستهلكن منها كميات كبيرة . اذ كان الطعام الرئيسى أثناء الصوم الكبير قبل عيد القيامه هو السمك المجفف والملح وقطعة من اليخنى مع بعض الحلوى المكونة من التين والزبيب واللوز. وكانت المواد الغذائية تختلف من دير لآخر تبعا لحجم الدير . والاديره الكبرى كانت تستخدم طباخا وصانع جعه وخبازا وامرأة تشرف على منتجات الالبان ، ونساء يغسلن ويكوين ملابس الراهبات ، وحارس على بوابة الدير (بواب) وواحده أو اكثر من الخادمات.وفى بعض الاديرة الكبيرة كانت هناك راهبات متميزات يزودن بخادمات خصوصيات يقمن على خدمتهن دون باقى الراهبات هذا كله غم أن القديس بندكت كان يوصى دائما بان تقوم الراهبات بتأدية اعمال الخدمة بانفسهن . على ان هذه التعاليم نبذت شيئا فشيئا حتى نبذت تماما فى القرن الثالث عشر ، واذا وجدت بعض حالات لراهبات فى الاديره الصغيرة يقمن بطهى الطعام وادارة اعمال الدير بانفسهن ، فهذا يرجع إلى اضطرارهن لذلك بسبب فقر الدير وعادة يصحب ذلك شكوى الراهبات .

وكثيرا ما وجدت امثله لاديرة فقيرة وانعكس هذا الفقر على مظهر الراهبات حيث كن يلبس ملابس مليئه بالثقوب وكثيرا مابدى الاسقف اثناء زيارته الرسمية التفتيشيه على الاديرة ملاحظاته ولفت الانتباه إلى تلافى هذه الثقوب الواضحه للعيان . كذلك وجدت امثله لاديرة خربه تسمح سقوفها بتسرب المطر على رؤوس الراهبات بها كما وجدت اديرة أخرى غارقه فى الديون بصفة مستمره .

والواقع ان الكثير من الاديره عانت اشد المعناه من العديد من المتاعب

منها الفيضانات المدمره وهجمات الغزاة مثل غزوات الاسكتلنديين المفاجئه على الاديرة فى شمال انجلترا والخارجين على القانون وما يفرضونه على الاديرة من اتاوات ، إلى جانب عدم كفاءة المشرفات على الاديرةوموظفاتهن المسرفات ، اللائى فى سبيل حصولهن على النقود كن يلجأن إلى طرق ليست سليمه كأن يبعن الاخشاب اللازمه للدير ويؤجرن الضيعة الخاصة به آجالا طويلة مقابل مبالغ ضئيله ، أو تقمن برهن الضيعه أو الصحاف الفضيـــه المقدسه إلى آخر هذه الطرق .

وقد وجدت الراهبات انفسهن فى الاديره فى حالة أفضل ، اذا اسبغت عليهن الرهبنه احترام النفس واحترام المجتمع ، ولكن خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أصبح مركزهن على جانب من الصعوبة ، واحجم الرجال عن تحمل مسئولية التوجيه الروحانى لهن واجتنبوا ذلك بقدر استطاعتهم واستمر رجال الدين يرتابون فيهن ، وكانت طبيعتهن القلقة فى نظرهم سببا فى اتهامهم لهن بالهرطقة فى كل حين (١)

وفى اواخر العصور الوسطى ، بدأت الشبات تدخلن اديرة الرهبنـــة واخذن ينظرن للرهبنة على انها حرفة أكثر منها خدمة ربانية . وقد حطت اولئك الفتيات من مستوى الرهبنة لأنها كانت صعبةعليهن ، مخالفةلطباعهن ، لذلك أصبحت الراهبات فى هذه الحقبة أكثر كسلا وتراخيا ، وكن يقمـــن بقليل من العمل بأيديهن ، واقل من ذلك بعقولهن بعد ان تناسين التقاليد التى تحثهن على التعلم ، وتشجعهن على الاستزادة من المعرفة وبعد أن اصبحت الكثيرات منهن يجهلن اللاتينية المكتوبة بها الكلمات الدينية اللاتى يرتلنها .ومن ثمة

(1) Heer : op . cit . , p . 264 .

فقد اصبحت الصلاة التى يقمن بها مجرد اشكال فارغة ، يسرعن بها بقليل من الورع احيانا وبشيء من عدم الاحترام احيانا اخرى .

كذلك فان الراهبات اصبحن يملن إلى التسلل من القداس قبيل انتهائه لسبب وجيه احيانا ، وبدون سبب فى كثير من الاحيان ، فمثلا يعتذرن بانهن ذاهبات للمساعدة فى اعداد الغذاء ، او للاشراف على دار الضيافة ، اولان حديقة الدير بحاجة إلى اقتلاع الاشواك والاعشاب الضارة ، او لانهن منحرفات المزاج مريضات . . الى اخر هذه الاعذار التى لاتنتهى ابدا .

اما اذا اضطررن لتأدية القداس ، فانهن كن يسرعن فى تلاوته حتى يخلصن منه فى اقصر وقت ممكن ، لذلك كن يهملن قراءة المقاطع الاولى والأخيرة من الكلمات ويحذفن مواطن الوقف بحيث ان جانبا من المترنمات يبدأن فى انشاد السطر الثانى قبل ان ينتهى الجانب الآخر منهن من انشاد السطر الاول . وقد يتركن تلاوة جمل بكاملها ويغمغمن ويجمجمن الكلام وبذلك يحلن الانشودة الفخمة الواضحة إلى مجموعة متنافرة من الاصوات والكلمات غير المفهومة . (١)

وقد اعتبر الاخلاقيون ان الاختلاط بالعالم الخارجى هو اساس كل هذا

(1) Power : Medieval women, pp . 97 - 98 .

هذا ولم يقتصر هذا الفساد على أديرة الراهبات فقط وانما كان موجود كذلك فى اديرة الرهبان ، وقد دفع ذلك القائمين بالاشراف على الاديرة إلى اصدار مرسوم فى عام ١٣٣٠ يحرم « الضحك والنكت أثناء القداس وتنقيط دهن الشموع الساخن من الاماكن العليا بالكنيسة على رؤوس المترنمين الحلبقة والمتواجدين بالاماكن السفلى للكنيسة » .

الشر الذى زحف إلى حياة الرهبنة وانظمها ، ورب قائل وكيف تختلط الراهبات بالعالم الخارجى وهن يقضين حياتهن داخل جدران الدير ؟

والاجابة عن هذا ان الراهبات لم يكن حبيسات الاديرة وانما كان يسمح لهن بقضاء بعض الوقت خارج الدير . وقد كانت الراهبات بارعات فى اختلاق الاسباب المعقولة التى تدعوا إلى مغادرة الدير ، فتارة تزعم الراهبة ان والديها مريضان ولابد من زيارتهما ، وتارة اخرى تزعم انها ذاهبة لتعترف فى دير آخر . . . . . وهكذا ، وبذلك اتيحت لهن الفرص للطواف خارج الدير فى هذا العالم الواسع .

أضف إلى ذلك ان اتصال الراهبات بالعالم الخارجى كان يتحقق بطريق آخر ، ذلك ان النبلاء فى الارياف والاغنياء بالمدن كانوا يستخدمون الاديرة نزلا تأوى اليه نساؤهم وبناتهم اذا ماذهبوا للحرب أو للحج فتأتى زوجاتهم وبناتهم إلى الدير ويعشن فيه على نفقتهن الخاصة .

وقد كان لهذا الامر مساوئه اذ كانت اولئك السيدات الدنيويات قدوة سيئة للراهبات فقد كن يرتدين الثياب البهيجة الزاهية الالوان والقبعات المرتفعة إلى غير ذلك مما سنعرض له بالتفصيل عند الكلام عن الملابس ، وكذلك كن يعتنين بتربية الكلاب ، ومن هنا فقد حذت الراهبات حذوهن . وقد حاولت المجامع الدينية والاساقفة والمصلحون طوال العصور الوسطى ان يقضوا على اتصال الراهبات بالعالم الخارجى ، سواء كان ذلك عن طريق الخروج من الدير أو ايواء السيدات الدنيويات فى الاديرة ، غير ان هذه المجهودات ذهبت ادراج الرياح .

وقد ظهرت عظمى هذه المحاولات فى عام ١٣٠٠ م.عندما اعلن البابـــا

بونيفيس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣) فى نشرة بابوية امره بان تلزم الراهبات اديرتهن لايغادرنها ابدا الا عند الضرورة القصوى ، وان يمنعن اى انسان علمانى من الدخول إلى اديرتهن أو زيارتهن بدون ترخيص وبدون سبب معقول يدعوا للزيارة .

وحدث ان الاسقف جاء بنفسه إلى احد اديرة ابرشيه لنكولن واودع فيها نسخة من النشرة البابوية وطلب من الراهبات اطاعة ماورد فيهامن الاوامر والنواهي ولكن الراهبات لحقن به إلى الباب ورمين النشرة على رأسه وهو يهم بالركوب صارخات انهن لن يطعن هذه الاوامر ولن ينفذن حرفا واحدا منها(١)

وهكذا فشل الاساقفة فى ايجاد حل لهذه المشكلة وكثيرا ما كان الاساقفه ورؤساء الاساقفة يهزون رؤوسهم الوقوره وهم فى حيرة من امر دبابيس الشعر الذهبية والاحزمه الفضية والخواتم المرصعة بالجواهر والاحذية المزينة بالشرائط والفساتين المفتوحة الصدور واطواق القمصان الواطئة واهدابهـا الطويلة الفضفاضه والالوان الفاتحه والملابس المرتفعه الاسعار والفراء الثمينه التى ترتديها الراهبات. ولعل فى وصف تشوسر(٢) Chaucer فى مقدمـة

(1) Registrum Simonis de Gandavo Episcopi Sarisbiriensis, ed Flower, Canterbury and York socienty, 1914, pp . 10 FF .

(٢) هو الشاعر الانجليزى الشهير جوفرى تشوسر عاش فى انجلترا فى الفترة (١٣٤٠– ١٤٠٠) ومن أهم اعماله واضخمها قصص كنتربرى التى توفى قبل اتمامها ، للمزيد عنه انظر :

Chaucer : canterbury tales in complete works, ed Pollord, 1908 .
Clemen : Chaucer' S early poetry, London, 1963 .
Halliday : Chaucer andhis world, London, 1968 .
Hussey : Choucer an Introduction, Londen, 1968 .
Myers : England in the Later Middle Ages, London, 1953 .

قصص كنتربرى لرئيسة احد الاديرة وتدعى مدام اجلينتاين التى عاشت فى القرن الخامس عشر ، وحجت إلى كنتربرى بصحبة جماعة من رفاقها، اصدق دليل على ما اعترى الراهبات من تغير ابعدهن عن البساطة والتقشف والزهد . قال تشوسر فى وصفه لمدام اجلينتاين :

وكان بين تلك الرفقة المختلطة راهبة رئيسة ديـــر
تبتسم ، حــين تبتسم ، ببساطــة وخفـــر
واذا اقسمت كــان قسمهـــا الاعظـــم
وحـــق القــديس لــــويس
وكـــانت تعرف بمـــدام اجلينتـــايـــن
وكـــانت تـــرتـــل القـــداس تـــرتيلا رائعـــا
وتنغـــم الكلمات تنغيمـــا جميـــلا لائقـــا
وكانت تتكلـــم الفرنسية بطـــلاوة واناقة عظيمـــة
بـــاسلوب مـــدرسة ستراتفورد ــ ات ــ بـــاو
فـــا كـــانت لتعرف فـــرنسية البـــاريسيـــين
وزد عـــلى مـــاتقـــدم أن اسلوبهـــا فى تناول اللحـــم
كـــــان حسن التهـــذيـــب
فما كانت لتدع كسرة واحدة تسقط من بين شفتيهـــا
ومـــا كانت تغمس اصابعهـــا فى المـــرق عميقـــا
لقد كـــانت تستطيع ان تـــرفـــع اللقمة إلى فمهـــا
دون ان تدع قطرة واحدة من المرق تسقط على صدرها
وكانت لهـــا حماسة خـــاصـــة لمجاملـــة النـــاس
وكـــانت تحـــرص على مسح شفتها العليا مسحا نظيفـــا

بحيث لاتترك للشحم اثرا يرى على الكأس
بعد ان تفرغ من الشراب
واذا اكلت مدت إلى اللحم يدها برصانة وهدوء
وكانت يقينا ، لطيفة المعشر
مسلية ، مبهجة ، ودودة
وكانت تجهد نفسها لتصطنع لطف الندماء الظرفاء
ولتتخذ سمتا يليق بمكانتها
ولتبدو وقورة فى كل تصرفاتها
اما عن عطفها الشامل وشعورها الرقيق
فقد كانت تسفح دموعها الحارة عطفا وحزنا
لمجرد ان ترى فأرة فى المصيدة ، مدماة أو ميتة
وكان لها كلاب صغار تطعمها اللحم المشوى
والحليب والخبز الابيض اللطيف
وكانت تبكى بكاء مرا اذا مات احدها
او اذا ضربه احد الناس بالعصا ضربا موجعا
لقد كانت كلها عواطف ، كلها قلب رقيق رؤوم
وكانت تضع خمارها على رأسها بشكل جميل لائق
وكان انفها دقيقا ، رشيقا ، وعيناها فى زرقة الزجاج
وكان فمها صغيرا ، ناعما ، احمر الشفتين
اما رأسها فكان بكل تأكيد ، جميل التكوين
يفصله عن الحاجبين جبين عرضه شبر
يقينا انها لم تكن ناقصة التكوين ابدا

ومما لاحظته ان ثوبها كان رائع السحر فتانا
وكانت تضع على ساعدها سبحة
من حبات المرجان الصغيرة طوقت طوقتين
وكان يتدلى من هذه السبحة المفصلة بحبات خضر
قرص ذهبي رائع التألق ، شديد اللمعان
خط في اعلاه حرف « أ » وخطت أسفله هذه الكلمات
« الحب يقهر كل شيء » (١)

(١) بور : نماذج بشريه من العصور الوسطى ، ص ٩٩ – ١٠١ .



الفصل الرابع

التعليم والملابس



لقد كان حظ الفتاة من التعليم فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ضئيلا . وكان للمجتمع الغربى نظرة خاصة فى تعليم الفتيات . فميزوا فيما يتعلق بالتعليم بين الاميرات وبنات النبلاء وبين سائر الفتيات فمثلا نجد أحد المعاصرين ويدعى فرنسيسكودا باريارينو Fransesco da Bardarino يسمح لطبقة الفتيات النبيلات أن يتعلمن القراءة والكتابة ليتمكن فيما بعد من ادارة ضياعهن ، واما فيما يتعلق ببنات السادة من رجال البلاط ، وكذلك بنات القضاة والاطباء ومن على شاكلتهن فانه تردد لمدة طويلة فى الحكم عليهن ، ثم قرر انه من الخير لهن الا يتعلمن القراءة والكتابة ، وبالنسبة لبنات التجار والصناع فقد كان الحكم حازما بالا يتاح لهن أى لون من ألوان التعليم .

إذن فقد حبذ المعاصرون تعليم الفتيات من طبقة النبيلات فقط ، ولم يكن المقصود من تعليمهن أفادة الفكر أو حبا للثقافة ذاتها ، وإنما الدافع لذلك كان اداريا بحتا وحتى يتمكن من إدارة ضياعهن . لذلك كانت الفتاة من هذه الطبقة تقضى بضع ساعات مع مؤدب خاص . أو ربما التحقت بنوع من المدارس يلتحق به الهواة ليتعلمن القراءة . وجدير بالذكر أن معظم كتاب العصور الوسطى حبذوا تعليم الفتيات حتى من هذه الطبقة القراءة دون الكتابة حتى لايستخدمن معرفتهن للكتابة فى تحرير الرسائل الغرامية . (١) وربما عبر فارس لاتورلاندرى عن وجهة النظر المعاصرة بقوله : «أحب أن تكون بناتى قادرات على القراءة ، وفيما عدا ذلك فالبنت يجب أن تتعلم الفضائل من الكتاب المقدس لتعيش فى بيتها عيشة غير شريرة» . (٢)

---

(1) Painter, History of the Middle Ages, P. 465.

(2) La Tour-Jandry : Iiver pour L' educatıon de mes filles, P. 36.

أما مدبر البيت الباريسي Managier de Paris وكريستين دي بيزان فقد تمسكا بضرورة تعليم النساء القراءة والكتابة . (١)

وبالنسبة للراهبات فقد أتاحت لهن الديرية نوعا من التعليم أرقى كثيرا من التعليم الذى كان متاحا للرجال والنساء خارج نطاق الدير ، فقد كان لزاما على الراهبة المبتدئة أن تقضى سنوات عديدة تتعلم القراءة والترتيل ؛ إلى جانب قضاء الراهبات بعض الوقت يوميا فى مكتبة الدير يقرأن فى الكتب الموجودة بها . (٢)

وقد ساهمت الراهبات بدور ملموس فى تعليم البنات ، إذ كان يلتحق بكل دير كبير مدرسة صغيرة ، ومدرسة أخرى أصغر منها لتعليم التراتيل وكانت راهبات الدير يقمن بالتدريس فى هاتين المدرستين .

ولكن ليس معنى ذلك أن كل دير كان لابد أن توجد به مدرسة لتعليم البنات لانه كان هناك أديرة صغيرة وفقيرة ولاتستطيع أن تتولى فتح مدرسة للتعليم ، وحتى الأديرة التى أتيح لها فتح مدرسة ، فقد كانت هذه المدارس الملحقة بالأديرة صغيرة ولاتستطيع أن تستوعب أكثر من عدد محدود من الأطفال ، وكانت هذه المدارس مختلطة أى يلتحق بها البنات والبنين فى آن واحد ، كما كانت تضم قسما للداخلية يقيم فيه الأطفال أقامة كاملة وكانت الأديرة تتقاضى أجورا مرتفعة نظير ماتقدمه لهم من تعليم .

وقد كتب فروسارت Froissart (٣) ، فى حوالى سنة ١٣٥٠ ،

---

(1) Power : Medieval women, PP. 97-80.

(2) Crump Jacob : op. cit., P. 431.

(٣) يوحنا فروسارت Johan Froissart (١٣٣٥ - ١٤٠٤ م) ولد فى اقليم الفلاندرز وتربى فى بلاط كونت هذا الاقليم ، واصبح ملما بفنون الفروسية والسياسة

فى قصائد شعره Espinette Amoureuse يوضح كيف أنه ذهب إلى المدرسة ليتعلم اللغة اللاتينية عندما كان فى الثانية عشر من عمره ، ولكنه كان لايهتم بدروسه لأنشغاله فى تقديم دبابيس الشعر والتفاح كهدايا للبنات الصغيرات اللاتى يجلسن بجواره على نفس المقعد ، ويتعجب كيف أنه عندما نمى وكبر أمكنه أن يبادلهن الحب . (١)

وفى باريس كان هناك مايسمى بالمدارس الصغيرة Little Schools تحت إدارة قائد جوقة الترتيل فى كنيسة العذراء Contor of Notre Dame وكان يدرس بهذه المدارس القراءة ومبادىء النحو والصرف فى اللغة اللاتينية وكانت هذه المدارس أيضا مفتوحة أمام الفتيات والفتيان على حد سواء .

وإلى جانب الدور الذى قامت به الأديرة فى تعليم البنات ، فإنه كان من الممكن إرسال الفتيات إلى قصور سيدات الطبقة العليا فى المجتمع ليتعلمن هناك ويتدربن على أصول التربية الجيدة . (٢)

ومن الأهمية بمكان أن نتعرف على المواد الدراسية التى كانت الفتيات

=وفى عام ١٣٦١ ذهب إلى انجلترا حيث عمل كسكرتير للملكه فيليبا philippa زوجة الملك ادوارد الثالث (١٣١٢ - ١٣٧٧) وبدأ يجمع المادة التاريخية اللازمة للحوليات التى كتبها واستغرقت كتابتها زمنا طويلا ، وغطت الفترة التاريخية الممتدة من١٣٢٧-١٤٠٠ ، وضمت كذلك حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا . وتعتبر حولياته هذه من أهم مصادر تاريخ غرب أوروبا فى القرن الرابع عشر . وقد احتوى الجزء الأكبر من حولياته على قصص الفرسان وبطولاتهم وقد نشرت هذه الحوليات فى ١٨٦٩ - ١٩٥٧ نشرها كل من :

S. Luce, G Raynaud and Mirot.

للمزيد عن فروسارت راجع :

Wilmotte : Froissart, 1958.

(1) Power : Medieval women , P. 83.

(2) Power : Medieval women : P. 82.

تتعلمها فى هذه الفترة الزمنية ، وهذه المواد كانت عبارة عن اللاهوت ، والترانيم الدينية ، وأعمال التريكو وتربية الأطفال وتضميد بعض الجروح وكيفية مداواة بعض الأمراض ، والكتابة والرسم. وفى منتصف القرن التاسع كن يتعلمن الحساب .

وقامت مدارس ستراتفورد Stratford الفرنسية بتدريس فن الزخرفة والموسيقى وأيضا تحضير العطور وعمل المربى والمسكرات والحلوى بصفة عامة . ويقال أن أحدى البنات الحقت بمدرسة بأحد الأديرة وهناك تعلمت كثيرا لدرجة أنها تعلمت كيفية تحضير الأرواح . وهذا يدل على إضافة مادة السحر الأسود إلى مناهج الدراسة بمدراس الأديرة . (١)

ولم يقتصر الأمر على تلقى البنات للعلم بل قامت بعض النساء بالتدريس فى المدارس وفى عام ١٢٩٢ سجل أسم أحدى المدرسات اللاتى التحقن بالمدارس الصغيرة Little School فى باريس . وفى القرن التالى أى القرن الرابع عشر ذكر أحد رجال التعليم أن «النساء بقين ودرسن فى المدارس فى فن النحو والصرف » وفى ١٣٨٠ وجد اسم واحد وعشرين مدرسه مسجلا مع اسماء المدرسين بهذه المدارس .

وقد أثمر تعليم البنات وأخرج أديبات يشار إليهن بالبنان مثل مارى دى فرانس (٢) Marie de France وكريستين دىبزان Christine de Pisan التى أطلق المعاصرون عليها اسم (المرأة المثقفة) والتى دافعت بقوة وحماس وبلاغة عن تعليم النساء .

---

(1) Power : Medieval women, P. 82.

(٢)يوجد صفحة (٨٧) نبذة عن مارى دى فرانس .

وقد ذكرت كريستين دى بيزان أن أحد أساتذة الجامعات فى إيطاليا ، قد عمل على تثقيف أبنته ، وكان يرسلها فى بعض الأحيان لتلقى المحاضرات نيابة عنه ، ولما كانت هذه الأبنة رائعة الجمال ، فقد كان والدها يطلب منها أن تضع حجابا على وجهها حتى لاتصرف أنتباه الطلبه عن الدرس . (١)

وفى نهاية العصور الوسطى زادت نسبة المتعلمات ، وتقول المؤرخةبور «أنمعظم الرجال والنساء فى القرن الخامس عشر كانوا يعرفون القراءة ، والكتابة وأن كانت تهجئتهم للكلمات وطريقتهم فى الترقيم غريبة ، ولكن ليس فى هذا بأس كبير ، فقد كانت معانيهم جلية الوضوح» . (٢)

وفى عام ١٤٠٥ فى عهد الملك هنرى الرابع (١٣٩٩ — ١٤١٣) ملك أنجلترا صدر المرسوم الشهير الذى ينص على مايلى :
„كل رجل أو أمرأة ، مهما تكن حالته، سوف يكون حرافى الحاق أبنه أو أبنته للتعليم فى أى مدرسة يشاء داخل المملكة„ . (٣)

وفى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أوضحت الوصايا التى تركها أصحابها حيازة النساء لبعض الكتب ، وكانت هذه الكتب فى معظمها كتبا دينية مثل سفر المزامير وترتيل الصلوات وفى بعض الأحيان كتب القصائد الشعرية وقصص البطولة والمغامرات العاطفية ، وأن كانت إحدى السيدات قد تركت لزوجة أبنها «كل كتبي اللاتينية والأنجليزية والفرنسية» ومعنى ذلك معرفة هذه السيدة لكل هذه اللغات ، كما كانت بعض السيدات

---

(1) Power : Medieval women, P. 82.

(٢) بور : نماذج بشرية من العصالوسطى ، ص ١٨٥ .

(3) Power : Medieval women, P. 84.

يقمن بترجمة بعض الأبحاث الطبية وخصوصا فى أمراض النساء لتستفيد بها السيدات فى علاج بعض أمراضهن دون الحاجة لعرض أنفسهن على طبيب من الرجال .

وأحد هذه الأبحاث يرجع للقرن الرابع عشر ، ترجم إلى الأنجليزية . وكتبت فى مقدمة الترجمة مايلى : ,,من المستحسن للنساء اللائى يتحدثن بلغتنا ويقرأن ويفهمن هذه اللغة عن أى لغة أخرى ، وعلى كل أمرأة متعلمة أن تقرأ لأخريات غير متعلمات وتساعدهن وتشير عليهن بالنصح فى أمراضهن دون أن يطلعن على مرضهن الرجل,, . (١)

أما فيما يتعلق بملابس النساء فقد كانت عرضة للتطور من وقت لأخر ، وكانت هذه الملابس فى باذئ الأمر بسيطة للغاية إذ كانت عبارة عن فستان طويل يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض . غير أنه بعد ذلك أدخلت عليها تطورات فأصبحت ذات ذيول طويلة وبعضها أصبح ذا فتحات من الصدر . والبعض الأخر كان على جانب من الأحتشام بحيث يكون مقفلا وذا (ياقة) وكان ينبغى على السيدة المهذبة أن تولى (ياقة) ثوبها عناية خاصة . كذلك أصبحت أثواب السيدات مطرزة بالشرائط الحريرية ومزينة بالأحزمة الفضية ومرصعة بالدبابيس الفضية والمجوهرات . وقد كانت السيدات يعنين بثيابهن الثمينة كعنايتهن بمجوهراتهن وقد كن يرتدينها سنة بعد سنة على مدى العمر ، وكن يوصين بها لغيرهن بعد وفاتهن .

كذلك أرتدين المعاطف وأستعملت سيدات الطبقة الراقية الفراء الثمين . وكن يضعن فى رؤوسهن دبابيس للشعر ذهبية ، وبعد تصفيف شعورهن

(1) Essays in the Histroy of Medicine, Presented to Karl Sudhoff, ed. charles singer and Henry Sigerist, oxford, 1924, P. 129.

كن يضعن فوقها عصائب للرأس . وأستعملن أيضا القبعات العريضة المبطنة بالفرو والتي يبلغ عرضها (عرض الدرقة والتراس) . كما أستعملن غطاء للرأس ذا قرون وعرفن الشعور المستعارة وقد كانت الجباه العريضة هـي المودة الشائعة فى أواخر العصور الوسطى . لذلك كانت السيدات يحلقن شعر مقدم الرأس لتبدو جباههن أعرض مما هي عليه . (١)

أما عن الراهبات فقد كان عليهن أرتداء الملابس السوداء القاتمة ، وعليهن أيضا أن يرخين خمرهن حتى تلامس حواجبهن . (٢) غير أنه بعـد الفساد الذى تطرق للأديرة أصبحت الراهبات يقلدن السيدات الدنيويات فى ملابسهن خاصة وأنهن كن يختلطن بهن حين ينزلن ضيوفا على الدير ، أو أثناء خروج الراهبات وقيامهن بزيارات لبعض الأسر . وهكذا أخذت الأزياء الحديثة تغزو حتى الصالحات من الراهبات ، فأصبحن يرتدين الملابس الغالية الأسعار الفاتحة الألوان العارية الصدور المطرزة ، بالشرائط الحريرية والأحزمة الفضية والأحذية المزينة بالشرائط ، وأستعملن الفراء الثمين ودبابيس الشعر الذهبية والقبعات العريضة المبطنةبالفروإلىغير ذلك ، تماما كالسيدات الدنيويات .

وقد جاء فى وصف رئيسة أحد الأديرة أنها «تتزين بخواتم ذهبية فادحة الأثمان وأحجار كريمة مختلفة الأشكال والألوان ، وأحزمة مموهة بالفضة والذهب ، وخمر حريرية وأنها ترفع خمارها فوق جبينها عاليا ، بحيث يصبح جبينها العارى نهبا لانظار الجميع ، وأنها ترتدىالفرو الثمين ، ثم أنها ترتدى

(1) Stephenson : Medieval Fendalism New Yoık, 1942, PP. 61 - 62.

بور : نماذج بشرية ، ص ١٢٨ ، ص ١٦٤ .

انظر الصورة رقم (٥) لنماذج من ملابس النساء وقبعاتهن .

(٢) انظر الصورة رقم (٦) لملا بس الراهبات التقليدية .

ثيابا مطرزة بالشرائط الحريرية مرصعة بالدبابيس الفضية والفضية المموهـة بالذهب . وقد جعلت الراهبات يصنعن صنيعها ، ويحتذين مثالها ، وهــى ترتدى فوق خمارها قبعة فاخرة مبطنة بالفرو . وتتدلى من عنقها قلادة طويلة من الحرير تنتهى أسفل صدرها بحلقة ذهبية وماسة» . (١) وهكذا نجد أن الراهبات لم يتركن شيئا لم يأخذنه عن السيدات الدنيويات ، حتى مودة الجباه العريضة أنتقلت إليهن سريعا ، فكن يرفعن خمرهن عاليا حتى تظهر جباههن..

وبالإضافة إلى رئيسة الدير هذه جاء فى وصف تشوسر لمدام إجلينتاين مايلى :

أما رأسها فكــان بكل تأكيد جميل التكويـــــــــن
يفصله عن الحاجبين جبين عرضه شـــــــــــــبر

وبديهى أنه لو لم تكن هذه الراهبة الرئيسه قد خالفت التقاليد التى تحتم عليها أن ترخى خمارها حتى يلامس حواجبها لما أستطاع هذا الشاعر الأنجليزى أن يرى هذا الجبين الذى يبلغ عرضه شبر .

وقد حاول الأساقفة طوال ستة قرون متتالية محاربة الأزياء الحديثــة داخل الأديرة غير أن محاولاتهم أنتهت بالفشل . فالمرأة هى المرأة دائمـا ، والنساء مولعات فى كل الأزمنة بكل ماهو جديد وخاصة إذا كان هــذا الجديد يتعلق بالأزياء المبتكرة .

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٢٨ .

الفصل الخامس

المرأة في الحياة العامة



يقول المؤرخ ستيفنسن Stephensen : «لقد سلم عصر الإقطاع بالقول المأثور أن مكان المرأة هو البيت ، فطالما كانت المرأة لاتستطيع أن تكون فارسا ، فأى شئ تريد أكثر من أن تكون زوجةوأم لعدة أبناء» (١)

وهناك قول آخر عرف فى العصور الوسطى هو : «أن المرأة خلقت لتكون رفيقا للرجل ولكن دورها الوحيد يجب ألا يتعدى الحمل والولادة»(٢)

على أن هذه الأقوال ليست صحيحة فى كل الأحيان ، فقد ساهمت النساء فى أوروبا فى العصور الوسطى فى مختلف ميادين الحياة العامة ، فى ميدان السياسة والحرب شاركت المرأة فى حضور الاجتماعات السياسية رغم تحذير الأساقفة للنساء ونهيهن عن حضور تلك الاجتماعات .

ففى القرن التاسع نهى أسقف مدينة Nantes النساء عن حضور الاجتماعات السياسية ولكن رغم هذا ظل لهن نصيب فى الانتخابات العمومية وإدارة المجالس البلدية فى جنوب فرنسا حتى القرن الحادى عشر. وفى عام ١٣٠٨ م كانت هناك نساء فى مدينة Touraine جديرات بالتعضيد فى أنتخاب نواب جمعية الولايات . (٣)

وخلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر كانت هناك حاكمات عظيمات أمثال الأمبراطورة ماتيلدا الكبيرة التى تولت حكم نورمانديا أثناء غياب زوجها وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧) فى أنجلترا. وبلانش صاحبة قشتالة التى فرضت شخصيتها على كل فرع من فروع الحياة الفرنسية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بوصفها وصية على أبنها لويس التاسع

(1) Stephenson : op. cit., P. 268.
(2) Heer : op. cit., P. 264.
(3) Heer : op. cit., P. 261.

والأميرة بلانش أميرة شمبانيا التى تولت الحكم فى بلادها وأشعلت حربا عنيفة لمدة أربعة عشر عاما (١٢١٣ — ١٢٢٧) من أجل أبنها الصغير الذى كـان لايزال تحت الوصاية .

وهناك أيضا أرمنجارد Ermengarde كونتيسة ناربون التى حكمت بلدها وقادت جيوشها لمدة خمسين عاما ، والتى أشعلت حروبا عديدة فى سبيل المحافظة على أراضيها ، والجدير بالذكر أن شهرة أرمنجارد لم تقتصر على السياسة والحرب فقط بل كانت ذات شهرة عظيمة كقاض وحكم فى كثير من المشكلات المعقدة للقانون الإقطاعى . (١)

وبينما كان فيليب أوجسطس ملك فرنسا (١١٨٠ — ١٢٢٣) مشغولا بتوحيد البلاد تحت سلطة التاج ، كانت بقاع كثيرة من فرنسا تحكمها النساء مثل اليانور دوقة أقطانيا واليكس أوف فيرجى التى حكمت برجنديا ، والكونتيسة بلانش فى شمبانيا وقد أدرن دفة الحكم بمهارة وعملن جاهدات على النهوض بالبلاد التى حكمنها .

وأثناء الحروب الأسكتلندية (٢) ظهر اسم سيدتين قامتا بدور كبير فى هذه الحروب وهما ، الكونتيسة بوشان Buchan التى دافعت عن قلعة بورويك

---

(1) Heer : op. cit., P. 261.

(٢) الحروب الا سكتلندية بدأت فى عهد ملك انجلترا ادوار الأول ، حينما انتهت السلالة المباشرة للبيت المالك فى اسكتلنده فى ١٢٩٠ ، فتدخل الملك ادوار الأول فى مسألة اختيار وريث للعرش بغرض فرض سيطرته على اسكتلنده . ولكن الا سكتلنديين ملوكا وشعبا رفضوا التدخل الا نجليزى فى شئونهم . ومن ثمة قامت الحروب بين الطرفين واستمرت خلال عهود من تلاه من الملوك الا نجليز . راجع عن ذلك :

Tout : The History of England (1219 - 1377), London, 1920, 234 - 307.

Stephenson : Medieval History, PP. 490 - 536.

Berwick ضد ملك أنجلترا أدوارد الأول (١٢٧٢ – ١٣٠٧) الذى علقها بعد أن وقعت فى يده فى قفص على أكمة حولها سور حتى يهزأ بها جنوده . والثانية هى بلاك أجنس Black Agnes الشهيرة كونتيسة دنبر Dunbar التى دافعت فى سنة ١٣٣٨ عن قلعة دنبر ضد ملك أنجلترا أدوار الثالث (١٣٢٧–١٣٧٧).

وجاء فى إحدى الحوليات الأسكتلندية أبيات من الشعر بالأنجليزية القديمة تعارض تعذيب السيدات اللاتى يتولين الدفاع عن قلاعهن ضد العدو ، لأن الدفاع عن النفس والممتلكات حق مشروع للجميع كذلك تعطى فكرة عن مدى صلابة النساء فى الدفاع عن ممتلكاتهن ، تقول الأبيات (١) :

نعاقب السيدة دون كشفها أو تأنيبهـــــــــــــا
نعاقب الأميرة دون خطأ أو جريمــــــــــــــة
عنيفة كلها رجولة ، كأنها من نوع الرجـــــــال
فلماذا تكون ضدها ، وقد كانت تدافع عن قلعتهـــــا؟

هذا ، ولم يقتصر نشاط المرأة فى ميدان السياسة والحرب على نساء الطبقة العليا فقط ، بل ساهمت بنات الريف أيضا فى هذا الميدان ولعل أشهرهن هى جان دارك Jeanne D'arc ، وهى أبنة أحد الفلاحين الفرنسيين الفقراء ويدعى جاك دارك Jaques D'arc وقد عاشت هذه الفتاة فى القرن الخامس عشر أثناء حكم الملك شارك السابع (١٤٢٢ – ١٤٦١) ، وعندما بلغت السابعة عشر من عمرها يقال أنها أخذت تسمع هاتفا يناديها ويدعوها للاسراع فى أنقاذ بلادها من الأحتلال الأنجليزى وكان ذلك خلال حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣) التى أشتعلت بين فرنسا وأنجلترا وقد دفعها ذلك إلى

(1) The Buik of the croniclis of Scotland, ed. W. B. turnbull Rl!s series, Vol III, London, 1858, PP. 341 - 342.

الذهاب إلى بلاط الملك شارل السابع فى شينون Chinon وأستطاعات أن تقنعه بتزويدها برداء عسكرى وبعض الجنود لأنقاذ مدينة أورليان من الحصار الذى فرضه الانجليز عليها ، وقد تمكنت رغم ذلك الحصار من أن تدخل إلى المدينة ومعها الأمدادات والمؤن . وقد أدى ظهورها فى أورليان وحماسها للدفاع عن المدينة إلى تقوية الروح المعنوية لدى المدافعين عن أورليان فقويت هممهم ، وتمكنوا من رد هجمات الأنجليز وأجبارهم على الأنسحاب .

وقد أخذت جان تحث الملك شارل على الحضور إلى مدينة ريمس حيث تم تتويجه بها فى ١٤٢٩ فى كتدرائية ريمس الكبرى ، وقد وقفت جان خلفه تبكى من شدة الفرح .

بعد ذلك وبعد أن قامت جان بدورها فى إنقاذ بلادها من الاحتلال الأنجليزى لها أعلنت عن رغبتها فى العودة لقريتها الصغيرة لتمارس حياتها الأولى فى رعى الأغنام. ولكن فى طريقها إلى قريتها وقعت فى أسر البرجنديين فى مايو ١٤٣٠ ، وقد باعها دوق برجنديا إلى الأنجليز مقابل عشرة آلاف فرنك ذهبى ، وأتيح لهم الأنتقام منها ، فأتهموها بالهرطقة والشعوذة ، وأصدروا حكمهم عليها بالأعدام حرقا . وتم ذلك بالفعل فى وسط ميدان سوق مدينة روان فى ١٠ مايو ١٤٣١ . وفى سنة ١٤٥٥ نظرت البابوية فى قضيتها وثبت براءتها مما نسب إليها من هرطقة وأعتبرها الشعب الفرنسى قديسه .

وقد أعلن البابا بيوس العاشر فى سنة ١٩٠٩ ثم البابا بندكت الخامس عشر فى سنة ١٩١٩ تطويبها وتمجيدها فى السماء لتصبح فى عداد الشهداء.(١)

---

(١) فيما يتعلق بجان دارك والدور الذى لعبته فى تاريخ فرنسا راجع المراجع التالية :

Chabot H. : Jeanne D' Arc , Libraire Larousse, Paris, Vie, 7 edition, Aurie 21941, PP. 12 - 80.

وفى ميدان الأقتصاد ، كانت النساء يقبلن على الأشتغال بالصناعة وكن منافسات خطيرات للرجال ، على الرغم من أن العمل كان شاقا ، وكانت ساعاته فى باريس مثلا تتراوح مابين ٨ ــ ١٦ ساعة يوميا ، وفى بعض البلاد الأخرى كانت تتراوح مابين ١١ ــ ١٤ ساعة يوميا . (١)

على أن كثيرا من اللوائح المنظمة للحرف الصناعية ، حرمت أستخدام النساء ، وبنى معظم تلك اللوائح سبب التحريم على أساس أن منافسة النساء تبخس أجور الرجال . (٢) إذ أن أجر المرأة كان يتساوى مع أجر الصبى الذى مازال تحت التمرين ، وكان هذا الأجر يقل كثيرا عن أجر المعلم ، حتى لوقامت المرأة بنفس العمل الذى يقوم به المعلم . (٣)

وفى أواخر العصور الوسطى أستغنى عن الصانعات الماهرات وأستبدلن بالصناع من الرجال ، وكان ذلك سببا فى بطالة الكثيرات من النساء . (٤)

على أنه كانت هناك صناعتان على وجه الخصوص ظلتا بأيدى النساء لسهولة مزاولتها فى المنازل وهما صناعة البيرة التى كانت شراب الغالبية العظمى من الناس فى تلك العصور ، والثانية هى ندف الصوف وتمشيطه وغزله ، تلك العمليات التى كانت تعتبر ثانوية تقوم بها النساء فى أكواخهن ، فى الجهات

Perrey : La guerre de cent Ans, Paris, 1954, PP. 248. =
Pirrene : La Fin du Moyen Ages, tome I, paris, 1931, PP. 442-443.
Painter : A History of the Middle Ages, PP. 354 - 357, 390, 456.

(1) Boissonnade (P) : Life and Work in Medieval Europe, Kegan Paul 1937, P. 221.

(2) Crump & Jacob : op. cit., P. 221.

(3) Boissonnade : op. cit,. P. 221

(4) Heer . op. cit., P. 264.

التى قامت فيها صناعة النسيج على نطاق واسع مثل فلورنسا وهولندة وأنجلترا (١).

وفى ميدان التجارة نجد أن زوجات التجار كن يساعدن أزواجهن فى هذه المهنة فأذا سافر الزوج بعيدا عن مدينته كان زوجته تحل محله فى إدارة شئون تجارته ، وكثيرا ما كان يرسل لها البضائع لتتولى عرضها وبيعها فى السوق . وعلى سبيل المثال أعتاد أحد التجار ويدعى وليم دارنر من مدينة بوسطن فى أنجلترا وكان يتاجر فى الأسماك أن يرسل لزوجته أثناء غيابه أسماكا مجففة وبضائع أخرى لكى تعرضها فى السوق للبيع كما تفعل فى البضائع الأخرى . (٢)

هذا ، ولم تتوان النساء عن طرق ميدان التجارة الخارجية ، وقد كن قادرات حقا على تصريف كافة الأعمال المتعلقة بها بمهارة فائقة . (٣)

أما فى الزراعة فقد كانت النساء الفلاحات . (٤) والنساء من طبقة الأقنان يعاون أزواجهن فى الحقول فيعملن فى بساتين الكروم والخضر ويقمن بمختلف أنواع العمل فيما عدا الحرث الذى كان عملا شاقا بالنسبة لهن .

أما بنات القن غير المتزوجات فقد كان فى أستطاعتهن أن يستخدمن سواعدهن القوية نظيرا أجر قطع الأعشاب وعزق الأرض والمعاونة فى جمع المحصول . أما الأرامل والعانسات من طبقة الأقنان فكانت لهن حصص صغيرة

---

(1) Crump & Jacob : op. cit. P. 412.

وانظر الصورة رقم (٧) كنموذج لممارسة النساء لصناعة النسيج .

(2) Crump & Jacob : op. cit. P. 426; Power, Medieval Women, P. 57.

(3) Heer : op. cit. P. 261.

(٤) انظر نموذج لممارسة النساء للفلاحة فى الصورة رقم (٨) .

من الأرض يقمن فيها بنفس الخدمات التي يقوم بها الرجال ويعشن على ماتغله تلك الحصص . (١)

وإذا تركنا الأقتصاد إلى الأدب وجدنا أسماء نساء تتردد فى هذا الميدان أمثال الكونتيسة بياتريس التى عبرت فى قصائدها الوجدانية الخمس عن حبها للكونت رامبوت أوف أورانج Raimbaut of Orange ، وهناك أيضا تيبرجا Tiberga أبنة بياتريس ، وكاستلوكس Castellox ، وكلارا أوف أندوس Clara of Anduse وأيزابيلا أوف مالا سبينا Lasabella of Malaspina ، وماري أوف فنتادور Marie of Ventadour وهناك أيضا الأدبية الشاعرة الفرنسية الشهيرة ماري دى فرانس Marie de France التى عاشت فى منتصف القرن الثانى عشر وقضت بضع سنين فى بلاط الملك هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) وزوجته الملكة اليانور وقد خلفت مارى أثنى عشر قصيدة بدأتها بقولها فى ثقة وأعتزاز :

Marie mon nom, Je suis de France

وقد برعت مارى فى كتابة قصص الحب والمغامرات وسارت على العرف الشعرى المألوف فى ذلك الوقت . (٢)

وفى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ظهرت الكاتبة الأدبية الفرنسية كريستين دى بيزان Christiene De Pisan ولــــدت كريستين فى مدينة البندقية ثم هاجر أبواها إلى فرنسا وهى طفلة صغــيرة وأستقرا بها ، وقد تزوجت كريستين فى عام ١٣٧٢ من نبيل فرنسى يدعى أتين كاستل Etienne Castel لكن حياتها الزوجية لم تستمر طويلا فلم

(1) Crump Jacob: op. cit., P. ,461.

(٢) للمزيد عن مارى انظر المراجع التالى :

Baum R. · Recherches sur les oeuvres attribueesa Marie de France, Paris, 1968.

يلبث زوجها أن توفى فى عام ١٣٨٩ ، وكانت كريستين لاتزال زهرة يانعة رائعة الجمال صغيرة السن . (١) ولم يترك لها زوجها موردا ماليا تنفق منه هى وأولادها الثلاثة ، فأخذت تكافح كفاحا مريرا بكل شرف وعفة وعملت على تثقيف نفسها وتعلمت كيف تحصل على لقمة العيش عن طريق قلمها الذى أصبح فيما بعد سيفابتارا لها أستعملته ضد أولئك الحاقدين على المرأة ، وأصبحت باحثة أدبية يشار إليها بالبنان وخصوصا بعد أن ظهرت رسالتها البحثيتان المنشورتان بأسلوب فلسفى منطقى سهل يقرأه العامة والخاصة ، وكانت الرسالة الأولى بعنوان « مدينة النساء » La cite de Dames والذى تحكى فيه قصصا من واقع الحياة ، تعبر عن الشكوى وتشرح فضائل المرأة وسجاياها .

والرسالة الثانية عن «كتاب الفضائل الثلاثة » Le Liver Des trois Vertus وهى رسالةبحثية تربوية تبصر النساء بواجباتهن ودورهن فى المجتمع بمختلف طبقاته .

وقد أطلق المعاصرون على كريستين اسم ,,نصيرة النساء,, لدفاعها المستمر عن المرأة . وقد وضعت النساء خطة محكمة تحت أشرافها للدفاع عن أنفسهن وحقوقهن فى المجتمع ،وعقدن أحتفالا كبيرافى عام ١٤٠٠ فى عيد القديس فالنتين St . Valentine لتكريم المرأة ومهاجمة الأشعار التى تعاديها ، ومطاردة الكتب التى تناصبها العداء .

ولكريستين أعمال تاريخية كذلك ، لعل أهمها كتابها عن عصر الملك شارل الخامس (١٣٦٤ — ١٣٨٠) كما مجدت كريستين شخصية جان دارك وألفت شعرا عن قيادتها للجيش فى أورليان .

---

(١) انظر الصورة رقم (٩) لكريستين دى بيزان .

وقد نشرت أعمال كريستين الأدبية والتاريخية فى ثلاث مجلدات خلال سنوات ١٨٨٦ – ١٨٩٦ . (١)

وفى ميدان الطب نجد أن بعض النساء قد أشتغلن بمهنة الطب ونالت بعضهن شهرة عظيمة ولعل أكثرهن أثارة للاهتمام ، سيدة من أسرة عريقة تدعى جاكلين فيلشى Jaqueline Felicie de Almania وكانت تلقب بالسيدة النبيلة وأغلب الظن أنها من أصل ألمانى ، وقد عاشت هذه السيدة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وكانت غاية فى المهارة وقد شفى على يديها عدد كبير من المرضى بعد أن يئس الأطباء من ذوى المؤهلات الجامعية من شفائهن . غير أن مهارتها هذه لم تحل دون أن تقدمها كلية الطب فى باريس للمحاكمة بتهمة مخالفة القانون الذى يحرم على أى شخص مزاولة مهنة الطب فى المدينة أو ضواحيها دون أن يكون حاصلا على الدرجة الجامعية وعلى تصريح مزاولة مهنة الطب من مدير الجامعة . (٢)

---

(١) فيما يتعلق بكريستين دى بيزان واعمالها الادبية والتاريخية راجع :

Nyss : Christine de Pisan et ses Principales oeuvres, Brussels, 1914.

Rigaud : Lesidees feministes de christine de Pisan, Nevfchistel 1911.

Pinet : Cnhristine de Pisan, Paris, 1927.

(2) Crump & Jacob : op. cit., P. 422.

وفيما يتعلق بالمزيد من التفاصيل عن جامعة باريس فى العصور الوسطى ، انظر المراجع التالية :

Allain, E. : "L' Universite de Paris au XIII et VIe Siecle, dans Revue du clerge Francais, lv (1895) ,PP. 193 - .322.

Crevier Y. B., Histeoire de L' universite de Paris depius son origine Jusqu' en l' annee 1600. 7 Vols., Paris 1761.

Dubarle, E. ,Histoire de l' universite de Paris, 2vols, Paris 1844.

وفى أثناء محاكمتها أقر أحد الشهود بصريح العبارة ,, لقد سمعت الكثيرين يقولون أنها طبيبة حصيفة فى فن الجراحة والعلاج أفضل من أعظم طبيب خبير أو جراح فى باريس,, ولقد أعدت جاكلين لنفسها دفاعا مجيدا دللت به على أن القانون التشريعى الذى أعد للمحكمة للحكم بمقتضاه قصد به الجهلة عديمى الدراية والأشخاص البلهاء الذين لايعرفون فن الطب . فى حين أنها فقهت جيدا ودربت فيه بمهارة كما يتضح من علاجها الحاسم الناجح ، وأخذت تتحدث عن الحاجة إلى الطبيبات عموما قائلة أن نساء عديدات يخجلن أن يكشفن عن أمراضهن وعللهن للطبيب الرجل ولهذا السبب فإن أولئك النساء يفارقن الحياة بأسرع مما يجب .

وقد حكمت عليها المحكمة بدفع الغرامة وحرمت عليها مواصلة هذاالعمل، والغالب أنها دفعت الغرامة وأستمرت فى مزاولة مهنتها هذه . (١)

ولم تكن جاكلين هى المرأة الوحيدة التى كانت تزاول هذه المهنةبباريس فى هذه الفترة ، إذ كانت هناك امرأة تدعى جوانا Joanna التى كانـــوا يطلقون عليها اسم (الأخت العلمانية) لأنها كانت متزوجة ، وهناك ايضا بلوتا اليهودية Belota the Yemess ومارجريت أوف يبرز Margaret of Yepres وقد وصفن جميعا بأنهن جراحات وحرم عليهن مزاولة مهنة الطب (٢) ، وجاء ذكر لنساء آخريات كن يشابههن وجدن ما بين أعوام ١٣٢٢–١٣٣١ . (٣)

---

(١) يوجد تسجيل لمحضر الجلسة فى المصدر التالى :

Chartularium Universitatis Parisiensis, ed H. Denifle, Paris, 1889 - 97, vol II, PP. 255 - 267.

(٢) يوجد فى نفس المصدر السابق تسجيل لمحاضر جلسات محاكمة جوانا وبلوتا ومارجريت ص ٢٥٦ .

(3) Ibid : P. 267.

وعلى الرغم من الاعباء الكثيرة التى القيت على عاتق السيدات على اختلاف طبقاتهن إلا أنه وجد لديهن بعض الفراغ ، شغلنه بكثير من الوان التسلية التى كانت أهمها وأكثرها شيوعا ، قراءة القصص والاستماع اليهاسواء كان الراوى سيده أخرى أو قريب أو بائع متجول ، ولاشك أن السيدات كن يتزاورن ، فتجتمع بعض الصديقات فى بيت أحداهن يتسلين بلعب الشطرنج أو الدومينو ، ويتبادلن الالغاز وبعض الالعاب الاخرى التى صارت منذ قرون من العاب الاطفال ، كالاستخفاء ، والفوازير وغيرها ، فان لم يرغبن فى اللعب قضين الوقت فى الغناء والرقص ، وجدير بالذكر أنسيدات الطبقة العليا كن مولعات بأقامة الحفلات الراقصة من وقت لاخر كما كان يحلو لهن الطواف بحدائق قصورهن يجمعن الزهور ويصنعن منها القلائد (١) .

وكان الاستماع إلى المواعظ الدينية يعتبر لونا من الوان التسلية إلى جانب كونه وسيلة لتنمية المعرفة – وتعبر إحدى السيدات عما قامت به فى وقت فراغها فتقول :

قمت ببعض الزيارات
وذهبت لرؤية مواكب وإحتفالات
وخطب ومواعظ دينية
والمناظر التمثيلية والزينات
وذهبت لحفلات العرس

وإذا ماذهبت السيدة من الطبقة العليا إلى ضيعتها بالريف كان باستطاعتها الخروج للصيد برفقة جماعة من الجيران المرحين . كما أعتاد

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٧٣ .

الأمراء أن يصطحبوا نساءهم معهم عند خروجهم للصيد . وقد كان الصيد بالصقور هو التسلية المفضلة عند السيدات .

أما عن الفلاحات وزوجات الأقنان فقد حظين أيضا ببعض ألوان التسلية ، وذلك فى وقت الفراغ الضيق الذى تمتعن به فى أيام العطلات ، وقد كن يقضين هذه الأيام بالأشتراك مع أزواجهن فى الرقص والغناء والمزاح والمجون ، وكان فناء الكنيسة هو المكان المفضل الذى يختارونه دائما لرقصهم وكانت كل الأغانى التى يرددونها وهم يرقصون أغانى وثنية توارثوها عن أجدادهم الأقدمين . وقد كانوا مصدر أزعاج للقساوسة إذ كانوا ، يقلقونهم ويبعدون النوم عن أعينهم بما يفعلونه فى لهوهم هذا .

ومن طريف مايذكر فى هذا الصدد تلك القصة التى تقول أن أحد القساوسة فى مقاطعة ودستر ظل يقظا طوال الليل لأن أصوات المغنين والراقصين فى فناء الكنيسة كانت تتسلل إلى أذنيه وتبعد عنه النوم . ولم يستطع القس أن يبعد عن فكرة تلك اللازمة التى كانوا يرددونها فى أعقاب أغانيهم وهى : «أعطنى على ياحبيبتى» . وفى صباح اليوم التالى وأثناء تلاوته للقداس قال : «أعطنى على ياحبيبتى» بدلا من أن يقول : «ليحفظكم الرب» . (١)

وإلى جانب ذلك كانت هناك تسلية أخرى تحدث فى العام مرة واحدة وهى سوق القديس دينيس St. Denys بالقرب من باريس ، وهو مثل أسواق الموالد فى البلاد الإسلامية ، كان يجتذب إليه عددا كبيرا من الجماهير من مختلف البلاد المسيحية يأتون إليه بقصد التبرك والزيارة والبيع والشراء . وكانت الفلاحات وزوجات الأقنان يذهبن مع أزواجهن وأولادهن للتجول

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ٣٦ .

فى هذا السوق ومشاهدة معروضاته من السلع الغريبة التى كانت تزدحم بها الحوانيت والمظلات . (١)

ولم تحرم الراهبات كذلك من وسائل التسلية ، ولاسيا بعد أن فسدت الأديرة وغدت موئلا للفتاة الخيرة والشريرة على السواء . إذ كانت الراهبات يقضين وقتا فى المسامرات الليلية والأنغماس فى الثرثرة ولغو الكلام بعد الأنتهاء من الصلاة اليومية الأخيرة بدلا من الذهاب توا للنوم كما تقضى بذلك أنظمة الدير . وقد كان يتخلل هذه المسامرات تناول بعض الشراب

أضف إلى ذلك قيامهن بالطواف خارج الدير وعمل زيارات لبعض ، الأسر أو حضور حفلات الزفاف وحفلات الرقص التى كانت تقيمها السيدات الدنيويات ، هذا على الرغم من أن رأى الكنيسة فى الرقص كان واضحا غاية الوضوح ولايحتمل تفسيرين فقد كانت تعتبر ,,أن الشيطان هو مخترع الرقص ومدبر شئونه,, . وكذلك كان رجال الدين يعتقدون أن أبليس اللعين قد أرسل ثلاثة أبالسة صغار لهلاك الراهبات هم-: «الرقص والملابس والكلاب».

وربما تطرفت بعض الراهبات فى اللهو كتلك الراهبة ,,التى قضت ليلة الأثنين بصحبة رهبان أوستن فى نورثمبتن ورقصت معهم وضربت على الطنبور وقضت الليلة التالية بصحبة الرهبان الوعاظ فى نور ثمبتن ضاربة على الطنبور مغنية راقصة كما فعلت فى الليلة السابقة .. (٢)

على أنه كانت هناك هواية مارستها الراهبات ولاشك أنهن أخذنها عن

(1) Pirrene : Economic and Social History of Medieval Euorope London, 1947, PP. 10 - 11

(٢) بور نماذج بشريه . ص ١٣٤

السيدات الدنيويات اللائى كن ينزلن ضيوفا على الأديرة تلك هى هواية تربية الكلاب .

وقد كانت الراهبات أول الأمر يشتكين مر الشكوى من أصطحاب السيدات للكلاب أثناء أقامتهن بالدير . ولكن سرعان ماألفت الراهبات الكلاب ووجدن فيهم حيوانات أليفة لطيفة المعشر فأقبلن على أقتنائها والعناية بتربيتها حتى أصبحن لايستطعن مفارقتها .

وكثيرا ماأصدر الأساقفة أوامرهم إلى رئيسات الأديرة بطرد هذه الكلاب التى كانوا يعتبرونها واحدة من ثلاث أرسلها الشيطان لهلاك الراهبات. ولعل أشهر هذه الأنذارات تلك التى أرسلها أحد الأساقفة إلى رئيسة دير روكس عام ١٣٨٧ يقول : ,,وحيث أن الصدقات المتوجهة للفقراء تبتلعها كلاب الصيد وغيرها من أنواع الكلاب التى تعيش فى فناء ديركم وأرباضه ، وحيث أن هذه الكلاب تنجس الكنيسة والدير وحيث أن القداس كثيرا مايضطرب بأصواتها المنكرة ، فنحن نوصيك أيتها السيدة الرئيسة ونأمرك أمرا قاطعا أن تبعدى الكلاب جميعا عن الدير وأن تمنعى وجودها فى حرم الدير فى مقبل الأيام,, . (١)

غير أن هذه الأوامر لم تنفذ إلا لساعات معدودات تلك التى يكون فيها الأسقف موجودا داخل جدران الدير ومتى غادرة كانت الراهبات يصفرن لكلابهن فتأتين راكضات وربما كانت رئيسة الدير نفسها هى أولى الفاعلات

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٣ .

إذ أن الرئيسات أيضا كن مولعات بتربية الكلاب والعناية بهم . وقد سبق التعرض لوصف تشوسر لعطف مدام ايجلينتا ين على كلابها حين قال :

وكان لها كلابا صغارا تطعمها اللحم المشوى

والحليب والخبز الابيض اللطيف

وكانت تبكى بكاء مرا اذا مات احدها

او اذا ضربه احد الناس بالعصا ضربا موجعا .



الفصل السادس

دراسة مقارنة مع مركز المرأة في الإسلام



لقد اتضح جليا من خلال هذا البحث عن مركز المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى ان نظرة المجتمع الغربى الوسيط للمرأة قد تطورت فبعد ان كانت النظرة اليها فى المرحلة المبكرة من العصور الوسطى انها اداة من ادوات الشيطان ووعاء للأثم وتكاد تتشابه مع الحيوان الذى لاروح لـه بعد موته ، اذا بهذه النظرة تتغير تدريجيا حتى بلغت منزلة ومكانه كبيرة وسامية فى المرحلة الاخيرة من العصور الوسطى ، واصبح لها الدور الاعظم والأهم ، ولم يقتصر دورها هذا على حياتها فقط وانما لعبته كذلك بعـد وفاتها كما فعلت بياتريس مع دانتى .

ومما لاشك فيه انه كان لنظام الفروسية الفضل الاكبر فى اسباغ ثوب من الاحترام والتبجيل على المرأة ، وصل إلى حد التقديس. وقد رأينا كيف ساهمت المرأة بنصيب فى الحياة العامة دفعها اليها واجباتهاالعديدة كزوجـة وام سواء كان ذلك اثناء غياب زوجها فى اسفاره أو اثناء اسرة، أو بعـد وفاته ، أو بصفتها وصية على ابنائها وحريصه على حفظ حقوقهم . وقـد اشتركت كذلك فى الاجتماعات السياسية والانتخابات وحكمت بعض البلاد بحزم ، وقادت الجيوش ، واحرزت الانتصار كذلك فانها شاركت الرجل فى الصناعة وكانت منافسا خطيرا له يخشى بأسه ، وادارت ميزان التجارة بمهارة وساهمت بنصيب فى ميدانى الطب والأدب ، ولمعت اسماء بعضهن فى هذين المجالين من مجالات الحياة العامة .

ورغم ذلك كله فانه اذا قارنا بين مركز المرأة فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، ومركز معاصرتها المرأة المسلمة ، لظهر الفرق واضحـا وهو رجحان كفة المرأة المسلمه . ومن الغريب حقا ، ان بعض المؤرخين الغربيين مازالوا يوجهون اتهاماتهم للمرأة المسلمة وكيف انها عاشت مهضومة

الحق ، سجينة فى اجنحة الحريم بعيدة كل البعد عن ان يكون لها دور ملموس فى الحياة العامة .

ونسوق على سبيل المثال لا الحصر ، تلك الفقرة التى ذكرها المؤرخ بنتر Painter مصورا مركز المرأة الغربية فى عصر الاقطاع ، ثم مقارنته لها بمركز معاصرتها المسلمة . يقول بنتر : « مركز المرأة فى المجتمع الاقطاعى كان بالغ التعقيد ، فطالما انها كانت لا تستطيع ان تمارس القتال ، فانها كانت قاصرا فى العرف الاقطاعى ، كانت دائما تحت وصاية رجل ، فقبل أن تتزوج تكون تحت وصاية والدها ، بعد ذلك تصبح تحت وصاية زوجها وعندما يموت ، تصبح تحت وصاية سيده أو أكبر ابنائها . لم يكن للمرأة أية حقوق قبل زوجها ، وهى بشخصها وممتلكاتها كانت خاضعة تماما لسيطرته وبينما حاولت الكنيسة تقييد وحشية الازواج تجاه زوجاتهم بتحديد حجم العصا التى يضربوهن بها ، إلا أن لمستها هذه لم تحسن وضع المرأة . فقد كانت مصدر كل الشر ، أثم وخطيئة حواء تسببت فى طرد رجل من الجنة ، وهى نفسها كانت الوعاء الذى يتراكم فيه الاثم ، علاوة على ذلك فان الكنيسة اصرت على خضوع الزوجة لزوجها وكان الزوج بالنسبة لزوجته مثل الله بالنسبة له . ولكن قبل أن نتحسر على مركز المرأة فى الفترة المبكرة من العصر الاقطاعى ، يجب أن نقارن مركزها مع مركز مثيلتها فى المجتمعات المعاصرة فالمرأة المسلمة كانت سجينة فى الحريم تحت المراقبة المستمرة للخدم» (١) .

وهكذا رغم ما عرضه بنتر من اجحاف بحق المرأة الغربية فى المجتمع الاقطاعى ، الا أنه يعتبرها أحسن حظا من المرأة المسلمة.ويبدو ان بنتر ،

---

(1) Painter : History of the Middle Ages, PP. 121 -- 122.

وبعض المؤرخين الغربيين ، ليس لديهم ادنى فكرة عن مركز المرأة فى الاسلام بعد أن كرمها القرآن الكريم ومنحها من الحقوق مالم تحصل عليه المرأة الغربية حتى وقتنا الحالى ، ولنأخذ فكرة سريعة عن هذا الموضوع .

لقد منح الاسلام المرأة المسلمه حقوقا كثيرة منها الحق فى ميراث والديها واقربائها كبرت هذه التركه أم صغرت ، قال تعالى « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون نصيبا مفروضا» (١)

ثم حدد الله سبحانه وتعالى نصيب الابنه فى تركة والديها فنص على ان يكون للابنه نصف نصيب الابن الذكر : « يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وان كانت واحده فلها النصف»(٢) .

ورب قائل بان فى فرض الاسلام للمرأة نصف نصيب الرجل يعتبر اجحافا بحقوقها ، غير اننا لو تدبرنا الأمر وجدنا ان الرجل مكلف بالانفاق على المرأة فى جميع ادوار حياتها ، مهما كانت صلته بها ، وسواء كان والدها أو شقيقها أو زوجها أو ابنها أو اقرب أقربائها .

حقيقة ان الرجل يأخذ ضعف نصيبها ، ولكن عليه من الاعباء المالية التى فى مقدمتها الانفاق عليها ذاتها مايجعل كفتها من الميراث توازى كفته ان لم تكن أرجح ، ويقول الشيخ عبد العزيز جاويش : « اذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال ان يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ،فتقدير الشارع

(١) سورة النساء ، الآية ٧ .

(٢) سورة النساء ، الآيه ١١ .

لها حظا من المواريث غاية فى الرأفه بها ورعى جانبها والعناية بشأنها»(١) .

اما عن نصيب الزوجه فى تركة زوجها فقد نص الله تعالى عليه بقوله « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم». (٢)

كذلك فرض الله تعالى للأم نصيبا فى تركة ابنائها « ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث فان كان له اخوه فلأمه السدس».(٣) وهكذا نصت الشريعة الاسلامية على نصيب للمرأه المسلمه كأبنه ، وزوجه وأم فى تركة المتوفى .

أما بالنسبة لحقوق المرأة المسلمه فى الزواج ، ففى الوقت الذى كانت فيه الفتاه الغربية دميه فى يد والدها يزوجها بمن اراد هو حرصا على مصالحه الماديه البحته نجد الاسلام يترك للفتاه مطلق الحرية فى الزواج بمن ترضاه وعدم ارغامها على الزواج بمن تأبى ، وقد جاء فى الحديث الشريف مايكفل للمرأه الحريه فى هذا الشأن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتنكح الآيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن » ، وقال ايضا « ان الثيب احق بنفسها من وليها والبكر تستأمر واذنها سكوتها ».(٤)

والمعروف عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه كان يستشير بناته فى امر زواجهن فيأت الواحده منهن ويقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت

---

(١) جاويش : الا سلام دين الفطره والحرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٠ .

(٢) سورة النساء ، الآيه ١٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٢ .

(٤) العقاد : المرأه فى القرآن ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ٨٧ .

أمضى الزواج ، وان نقرت الستر علم انها تأباه . (١)

واحدى القواعد المعروفه فى الاسلام ، ان كل عقد باطل اذا انكرتـه المرأه أوشكت لولى الأمر اكراهها عليه. وقد فصم الرسول عليه الصلاة والسلام زواج فتاة ارغمها اهلها على الزواج من شخص تأباه ، وقد أتت هذه الفتاة وهى الخنساء بنت خذام إلى الرسول وقالت : ان ابى زوجنى من ابن اخيه ، وأنا لذلك كارهه . فقال الرسول : اجيزى ماصنع ابوك . قالت : مالى رغبـه فيما صنع ابى . فقال الرسول : اذهبى فلانكاح له انكحى من شئت . قالت : أجزت ماصنع أبى ولكنى أردت ان يعلم الناس ان ليس للآباء من امـور بناتهم شيئا ولم ينكر الرسول مقالتها .

وكما اباح الاسلام للمرأة المسلمه رفض الزواج بمن تأباه ، اباح لها ايضا الحق فى الزواج بمن تختاره مادام كفءلها ، حتى ولوكره ولى امرهاتزويجها من هذا الشخص وفى هذه الحاله يتولى القاضى اتمام الزواج بناء على رغبتها ، ويكتب فى عقد الزواج بعد تعيين الصداق مايلى : « وولى تزويجها اياه بذلك القاضى فلان ، باذنها له فى ذلك ورضاها ، وبحكم ان والدها المذكور حضر إلى القاضى فلان ، وسألته ابنته المذكوره ان يزوجها من الزوج المذكور لما ثبتت كفاءته عند الحاكم ، فامتنع ، فوعظه القاضى فلان واعلمه بماله من الأجر فى تزويجها ، وما عليه من الاثم فى المنع ، فلم يرجع إلى عظته واصر على الامتناع ، وعضلها (اى منعها من الزوج ظلما) العضل الشرعى ، وقال بمحضر من شهوده : (عضلتها فلا ازوجها) وبعد ان حضر إلى الحاكم

---

(١) العقاد : فاطمة الزهراء ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ٣٠ .
عائشة عبد الرحمن : بنات النبى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٣ ، ص٩٦ ، ص ١٥٨ .

المذكور كل من فلان وفلان وشهدا عنده ان الزوجه خاليه من جميع موانع النكاح الشرعيه ، وان اباها المذكور عضلها العضل الشرعي ، وان هذا كفء لها الكفاءه الشرعية في النسب والدين والصناعه والحريه فلما وضح له ذلك من امرها ، اذن بكتبه فكتب وزوجها من الزوج المذكور على الصداق المعين وقبله الزوج لنفسه ورضيه». (١)

وفي الوقت الذي لم تكن فيه المرأة الغربية في العصور الوسطى تتمتع بأية حقوق تجاه زوجها ، بل كانت هي وجميع ماتملك تحت سيطرته التامه وكان زوجها بالنسبة لها مثل الله بالنسبه له كما يقول المؤرخ بنتر ، فضلا عن الصداق الذي تقدمه له عند زواجها منه ، نجد المرأة المسلمه تتمتع بحقوق كثيرة قبل زوجها . واول هذه الحقوق هو الصداق ، وقد نصت الشريعة الاسلامية على حق المرأة في الصداق ووردت آيات قرآنية تدل على وجوب الصداق على الزوج لزوجته منها « وآتوا النساء صدقاتهن نحله» . (٢)

وقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام احاديث في هذا الشأن ، قال : « من كشف خمارا امرأته ونظر اليها وجب الصداق ، دخل بها أو لم يدخل » . هذا وقد ثبت ان الرسول لم يخل زواجا من صداق ، فلو كان غير واجب لتركه ولومرة واحده ليدلل على عدم وجوبه .

وكان يكتب في عقد الزواج خاصا بالصداق : « هذا ما اصدق فلان فلانه البكر البالغ ابنة فلان ، صداقا تزوجها به على بركة الله تعالى وعونه ، وحسن توفيقه ومنه ملك به عصمتها واستدام به — ان شاء الله — صحبتها ،

---

(١) النويري : نهاية الأب في فنون الا دب ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ج ٩ ، ص ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤ .

مبلغ كذا وكذا ، الحال من ذلك كذا وكذا وباقى ذلك كذا وكذا ، قبضته الزوجه وتسلمته ، أو قبضه والد الزوجه لها باذنها ، وولى تزوجها اياه بذلك والدها المذكور بحكم ولايته عليها شرعا ، وباذنها له فى ذلك ورضاها بشهادة من يعنيه فى رسم شهادته » (١)

والجدير بالذكر ان الله سبحانه وتعالى لم يفرض الصداق للزوجه على زوجها مقابل ما تعده من جهاز تتجهز به ، بل ان تأثيث المنزل واجب على الزوج وهو جزء من النفقة الزوجيه الواجبه عليه شرعا . ونفقة الزوجة واجبه على زوجها مهما بلغت الزوجه من غنى وثروه خاصه بها ، وذكر الله تعالى فى سورة النساء (٢) « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » . وقد امر الرسول عليه السلام بذلك ايضا فقال فى خطبة الوداع : « اتقوا الله فى النساء ، فانكم اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

كذلك من حق الزوجة على زوجها ان يعاملها معامله طيبه حسنه ، قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » (٣) . وايضا « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة». (٤)

وقد كان الرسول عليه السلام خير مثالا يحتذى فى معاملته زوجاته وفهمه لنفسية المرأة فهو القائل « المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقه

---

(١) النويرى : نهاية الا دب فى فنون الادب ، ج ٩ ، ص ص ١١٥ — ١١٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٣٤ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٩ .
(٤) سورة النساء ، الآية .

واحده ، فان استمتعت بها استمتعت وبها عوج وان ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها » .

وكان الرسول يتلطف فى معاملة زوجاته ، وكان يتولى خدمة البيت معهن وقال فى ذلك « خدمتك زوجتك صدقه » . أما موضوع اباحة الاسلام للرجل ان يضرب زوجته ، فالمعروف أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع هذا الأمر بدون ضوابط تقيدة فلقد أمر سبحانه وتعالى ضرب النساء الناشزات فقط وحتى فى حالتهن لا يلجأ الزوج إلى عقوبة الضرب الا بعد ان ينصحها اولا ، ثم يهجرها ثانيا ، فاذا لم ينصلح حالها فله ان يلجأ إلى الضرب كمحاولة اخيرة قال تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » (١)

وقد نهى الاسلام عن الضرب المبرح واشترط الفقهاء الا يجرحها هذا الضرب ولا يكسر لها عظما ويتجنب الوجه ، هذا ولم يعرف عن الرسول عليه السلام انه ضرب واحدة من نسائه قط بل كان يكره ضرب النساء ويعيبه ، وقد بلغ من شلك كراهية الرسول لضرب النساء انه نهى الرجال عن ضربهن غير انهم شكون نساءهم له فخلى بينهم وبين ضربهن وقال « ولن يضرب خياركم » وقد تأثرت طباع المسلمين بطباع نبيهم فكانوا من اشد الناس رفقا بنسائهم حتى لقد ترفع البعض عن استعمال هذه العقوبة البدنيه وها هو أحد الشعراء يقول :

رأيت رجـــالا يضربون نساءهـــم   فشلت يمينى حين اضرب زينبـــا

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٤ .

هذا ولم تنص الشريعه الاسلامية على حقوق الزوجه فقط ، وانما حفظت للمطلقة حقها كذلك ، والواقع ان الطلاق وبالحقوق التى حفظها الله سبحانه وتعالى للمطلقة يعتبر كسبا للمرأة المسلمة اذا ماقورن بما كان سائدا فى الجاهلية . ذلك ان الرجل فى الجاهلية كان يطلق زوجته ثم يعيدها ، يفعل ذلك المرءه بعد المره دون حساب أو رقيب وذكر الامام الرازى ان الرجل كان يطلق امرأته ألفا ثم يراجعها بعد كل مرة(١). وقد روى الترمذى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ماشاء ان يطلقها وهى امرأته اذا ارتجعها وهى فى العده وان طلقها مائة مره أو اكثر ، حتى قال رجل لامرأته : والله لا اطلقك فتبينى منى ولا آويك ابدا ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : اطلقك فكلما همت عدتك ان تنقضى راجعتك ، فذهبت المرأه حتى دخلت على عائشة فاخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فاخبرته فسكت فانزل الله سبحانه وتعالى « الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف او تسريح باحسان » (٢) .

وكان هذا كسبا كبيرا حصلت عليه المرأه ، فبعد ان كانت تطلق مرات عديدة وبلا حدود حدد الله تعالى الطلاق بمرتين فقط أما إذا طلقت للمرة الثالثه فلا يجوز للزوج ان يعيدها إلى عصمته الا بعد ان تتزوج غيره « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » . (٣)

---

(١) الامام الرازى : التفسير الكبير ، الطبعة الاولى ، جـ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .

راجع كذلك : الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن (تفسير الطبرى) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآيه ٢٣١

ولا شك ان هذا تأديب نفسي للرجل حتى لا يتهور فى استعمال الطلاق لاتفه الاسباب وحفظا للاسرة من التشتت ، فليس اشق على الرجل من ان يرى زوجته فى عصمة رجل آخر خاصة اذا كان يريد ان يعيدها لعصمته .

كذلك حرم الله تعالى على الزوج ان يراجع زوجته فى العدة بقصد ان يضرها وليطول عليها مدة انقضاء عدتها كما كان يحدث فى الجاهلية ، فتظل المرأه معلقة فلا هى زوجه لها ما للزوجات من حقوق ، ولا هى خالية من الزوج حتى يمكنها ان تتزوج من جديد ان ارادت ذلك ، فقال تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا». (١)

وإذا حدث الطلاق قبل الدخول بالزوجة فلها نصف الصداق ولاعدة لها ، ,,وأن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم ,, (٢) . وجاء فى سورة الأحزاب ,,ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا,, . (٣)

أما إذا حدث الطلاق بعد الدخول بالزوجة فى تلك الحالة يصبح الصداق كاملا من حقها وحدها ,,وإذا أردتم أستبدال زوج مكان زوج واتيتم أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وأثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم مثياقا غليظا,, . (٤) ، وبعد

(١) سورة البقرة ، الآيه ٢٣١ .

(٢) سورة البقرة ، الآيه ٢٣٧ .

(٣) سورة الاحزاب ، الآيه ٤٩ .

(٤) سورة النساء ، الآيتان ٢٠ — ٢١ .

الطلاق من حق المراة المطلقة أن تظل فى منزل الزوج طوال فترة العدة «ياأيهاالنبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العده وأتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولايخرجن» (١) ، وقال تعالى «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولاتضاروهن لتضيقوا عليهن» . (٢)

وطوال فترة العدة الرجل ملزم بالأنفاق على مطلقته حتى أنه ليس لها أن تخرج من البيت لقضاء مصالحها ، لأن مطلقها متكفل بجميع مايلزمهـــا حيث أن نفقتها واجبه عليه . وقد حدد الله تعالى فترة العدة بثلاثة قروء(٣) «والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء» (٤) . وعدة الآيسة ثلاثة شهور «واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، أن أرتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن » . (٥) وإذا حدث الطلاق والمرأة حامل فمطلقها ملزم بالأنفاق عليها طوال فترة الحمل «وأن كن أولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعـــن حملهن» . (٦)

وإذا وضعت المرأة المطلقة فهى غير ملزمة بأرضاع المولود ، فأن ، أرضعته فوالد الطفل أى مطلقها مكلف بالأنفاق عليها طوال مدة الرضاع «فانأرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف ، وأن تعاسرتم فسترضع له أخرى » . (٧) وأيضاً ,,والوالدات يرضعن أولادهن حولين

(١) سورة الطلاق ، الآية الاولى .
(٢) سورة الطلاق ، الآية ٦ .
(٣) اختلف الفقهاء فى تفسير كلمة قروء فمنهم من فسرها بمعنى (الحيض) ومنهم مـــن فسرها بمعنى (الاطهار) راجع :
مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٠
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢٨ .
(٥) سورة الطلاق ، الآية ٤ .
(٦) سورة الطلاق ، الآية ٦ .
(٧) سورة الطلاق ، الآية ٦ .

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(١)

وقد أنصف الأسلام المرأة المطلقة بكل هذه الحقوق ، إذا حدث الطلاق بناء على رغبة الزوج ، على أنه يجوز للمرأة أن تجعل العصمة بيدها وتطلق نفسها من زوجها حين تشاء ، ,,وهذا مقيد بما إذا أبتدأت المرأة فقالت ، زوجتك نفسي على أن أمرى بيدى . فقال الزوج : قبلت,, . (٢)

وسواء طلبت المرأة الطلاق من زوجها فطلقها بناء على رغبتها أو كانت عصمتها بيدها فطلقت نفسها منه ، فهي غير ملزمة بأية أعباء مادية قبل مطلقها كتلك التي فرضها الله تعالى على الرجل إذ تم الطلاق بناء على رغبته . ذلك لأن الله تعالى لم يشأ أن تظل المرأة في عصمة رجل تبغضه وتود التخلص من حياتها معه ، فيسر لها ذلك دون أن يكلفها أعباء مادية يمكن أن تعيقها عن طلب الطلاق لعدم أستطاعتها الوفاء بها .

كذلك فأن الأسلام لم يحفظ للمرأة المسلمة حقوقها المادية فحسب ، بل حافظ على شعورها وكرامتها وشرفها وأمر بأنزال العقاب بمن يتناول سيرتها بالسوء قال تعالى : «والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فأجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون» .(٣) وقد بلغ من أعتزاز المسلمين بالنساء وثقتهم فيهن أن الخليفة أبا بكر الصديق أختار واحده منهن وهي أم المؤمنين السيدة حفصه بنت عمر بن الخطاب ، دون الرجال جميعا وفيهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأتمنها على النسخة الوحيدة للقرآن الكريم ، بعد أن تم جمعها بعد وفاة الرسول

(١) سورة : البقرة ، الآية ٢٣٣ .
(٢) جاويش الاسلام دين الفطرة والحرية ، ص ٨١ .
(٣) سورة النور ، الآية ٤ .

عليه السلام ، وأودعها عندها ، وظلت فى مأمن لديها حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ونسخ منها الأربعة نسخ التى وزعها على الأمصار.(١)

كذلك كان بعضهم يفتخر بأنتسابه لأمه مثل معاويه بن أبى سفيان الذى كان يفتتح مجلس خلافته بقوله ,,أنا أبن هند,, وكان يكفيه أن ينتسب لأمه حتى يصدع خصومه . كذلك لم يكن الرجل يتحرج عن أن يكنى بأبنته فينادى بابى ليلى وابى سلمى وابى بثينه . وقد وضعوا المرأة فى مكانة سامية رفيعة ، ويدلل الجاحظ على رفعة منزلة المرأة فيقول أنها ,,التى تخطب وتراد وتعشق وتطلب وهى التى تفدى وتحمى ,, . (٢) وقد وضعها بعضهم فى مكانة أرفع من مكانة الرجل ، حيث أن المرأة أنجبت دون حاجة للرجل وهذا أمر مستحيل على الرجل ، فقالوا فى ذلك : ,, أن الله تعالى خلق من المرأة ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولدا من غير أنثى ، فخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل,, . (٣)

هذا ولم تكن المرأة المسلمة سجينة فى أجنحة الحريم كما يدعى بنتربلى كان لهادورها فى الحياة العامة ، وقد بلغت بعضهن مرحلة كبيرة من العلم ، فقد أوجب الله تعالى على أمهات المؤمنين تلاوة القرآن وتعلم العلم «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة»(٤) وكانت النساء فى عصر الرسول عليه السلام يحضرن فى المسجد ويجلسن يتلقين العلم على يدى الرسول ، وقد أشتهرت السيدة عائشة أم المؤمنين برواية الحديث عن الرسول عليه الصلاة

(١) عائشة عبد الرحمن : نساء النبى ، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٦٩ .

(٣) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ص ٢٧١ .

(٤) سورة الاحزاب ، الآية ٣٤ .

والسلام كما أشتهرت بمعرفة الفقه والفتيا والتاريخ والنسب ورواية الشعر والطب وعلم النجوم حتى قال فيها الرسول ,,خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء,,

وعاشت السيدة عائشة لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة وقال الأمام الزهرى : «لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل». وقال هشام بن عروة عن أبيه «مارأيت أحدا أعلم بفقه ولابطب ولابشعر من عائشة» . (١) وقد أشتركت السيدة عائشة فى الخلاف السياسى وقادت المسلمين فى الموقعة التى عرفت باسم موقعة (الجمل) سنة ٣٦ هـ نسبة إلى الجمل الذى كانت تركبه وخرجت على رأس جموع المعارضين الثائرين ، وكانت هى القائده العليا للجيش ، تصدر الأوامر ، وتعين الأمراء، وتوجه الرسل بكتبها إلى أهل الكوفه وأهل اليمامه وأهل المدينة المنورة ، مصدرة بالعبارة التالية : ,,من عائشة أبنة أبى بكر ، أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، إلى أبنها الخالص فلان . أما بعد فان أتاك كتابى هذا فأقدم فانصرنا فان لم تفعل فخذل الناس عن على,, . (٢)

كذلك عرفت أختها السيدة أسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير برواية الحديث . (٣)

---

(١) عائشة عبد الرحمن : نساء النبى ، ص ١٠٢ .

(٢) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، الطبعة الاولى ، مطبعة الحسينية ، القاهرة ، جـ ٥ ، ص ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٣٢٢ هـ ، جـ ٨ ، ص ٤٥ ، ص ٤٨ .

ابن الاثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ ، جـ ٥ ص ص ٤ — ٥ .

وقد أبلت كثير من النساء بلاء حسنا فى الحروب ومنهم نسيبه بنت كعب المازنيه التى صاحبت الرسول يوم أحد والتى قال الرسول عنها (ما ألتفت يمينا أو يسارا إلا وأنا أراها تقاتل دونى) . وهناك خوله بنت الأزور التى قاتلت الروم قتالا عنيفا فى وقعة أجنادين وأثارت أعجاب الجميع بشجاعتها ، وغزالة الحرورية التى أبتلى بها الحجاج بن يوسف الثقفى سفاك بنى أمية ، وكانت فى أربعين فارسا والحجاج فى أربعة آلاف ، فما لبث أن أختلط عليه الأمر وخلع قلبه من الفزع وولى هاربا.وقد أتخذ أعداء الحجاج هذا الموقف بينه وبين غزاله لطعنه والنيل منه مثال ذلك قول أحدهم :

أسد على وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة جنده بعساكر تركت كتائبه كأمسى الدابر

وهناك أيضا أم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية وعكرمة بنت الأطرش ، وأم سنان بنت جشيه بن خرشه المذحجيه ، وكلهن ساهمن فى الحروب بنصيب وافر . (١)

وكان من النساء المسلمات عالمات بالدين ، يقبل الناس على دروسهن مثل سنينه بنت القاضى أبى عبد الله الحسين بن أسماعيل الضبى المحاملى وكان أبنها أيضا قاضيا ، وكانت تكنى أم الواحد ، وكانت عالمة فاضلة ، ومن أحفظ الناس للفقه وكانت تفتى مع العلماء وحدثت وكتب عنها الحديث ، وتوفيت فى عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م) . وهناك أيضا أم الفتح بنت القاضى أبى بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التى توفيت عام ٣٩٠ هـ (١٠٠١م)

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، القاهرة ، ١٩١٣ ، جـ ١ ، ص ٢٤٧ - ٢٥٨ .

وأخذ عنها كثير من العلماء ، فكانت موصوفة بالتدين والعقل والفضل . (١)

وفى جميع العصور الأسلامية المختلفة كان للمرأة المسلمه دورها فى الحياة العامة وفى العصر العباسى على سبيل المثال كانت المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية وتدخل بعضهن فى شئون الدولة كالخيزران زوجة الخليفة المهدى التى كان لها الكلمه النافذة فى عهده فكانت تأمر وتنهى ، وكان الناس يتوافدون على دارها ويلجأون إليها لقضاء حاجاتهم ، وقد بالغت فى ذلك إلى درجة كبير ة فأثارت غضب أبنها الخليفة الهادى ، الذى أراد وضع حد لهذا كله ومن خلال الكلام الذى وجهه لها ندرك مدى ماكان لها من السلطان والنفوذ فقد قال لها الهادى : « لئن بلغنى أنه وقد ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله . فمن شاء فليلزم ذلك ، ماهذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أوبيت يصونك ؟ إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولاذمى . ثم قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا بل أنتوأمك. قال: فايكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ؛ فيقال فعلت أم فلان وصنعت أم فلان ؟ قالوا لانحب ذلك . قال : فما بالكم تأتون أمى فتتحدثوا بحديثها » (٢)

كذلك تمتعت السيدة زبيدة زوجة الخليفه هارون الرشيد وأم الأمين

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، جـ١ الطبعة الاولى ، ١٣٥٩ ، جـ١ ، ص ١٢٦ ، ص ١٤٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٢٣ ص ١٧٢ .

المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

بنفوذ كبير ، وحين حجت إلى بيت الله الحرام فى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٠م) وأدركت مايعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له „أعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا ”. وذهب إلى مكة أكفأ المهندسين والعمال ، ووصلوا بين منابع الماء فى الجبال ، واعتمدوا على عين حنين فأرسلوا منها الماء تحت الصخور حتى وصل إلى الحرم الشريف ولايزال هذا الماء يجرى إلى مكة حتى يومنا هذا .

وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة وكثيرا ماكانت تبعث برسائلها الفياضة شعرا إلى زوجها هارون الرشيد . وكمثال لشعرها ، نسوق تلك الأبيات التى أرسلتها للخليفة المأمون بعد مقتل أبنها الأمين ، قالت :

لخير أمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى تستهل دموعها ... إليك أبن عمى مع جفونى ومحجرى
أصبت بادنى الناس منك قرابة ... ومن زال عن كبدى فقل تصبرى (١)

ويتضح جليا مدى تمكنها من كتابة الشعر ورقة عواطفها وأصالة أخلاقها.

ولايفوتنا فى هذا المجال أن نذكر الملكه شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) التى قامت بدور عظيم حين توفى زوجها فى ١٢٤٩م وكانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا تجثم على أنفاس مصر ، وقد خشيت شجر الدر أن هى أذاعت خبر وفاة الملك الصالح أن تحدث فتنة بين المسلمين يكون لها أثرها فى سقوط مصر فى يد الصليبيين ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٣١٦ .

فأخفت خبر وفاته وأخذت فى تدبير شئون الدولة بمقدرة وكفاءة عظيمة فى هذه الظروف الصعبة ، وأرسلت فى أستدعاء أبنة توران شاه من حصن كيفا بأطراف العراق ، وحين وصل إلى مصر سلمت له مقاليد الأمور ، ولكنه أساء إليها وإلى الأمراء وأنتهى الأمر بقتله على يد المماليك البحرية فى ٢ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأختار الأمراء أن يسلموا عرش مصر إلى شجر الدر فبايعوها ملكة عليهم فى مايو ١٢٥٠ (١٠ صفر ٦٤٨ م) وقد قبضت على زمام الأمور فى مصر بيد من حديد ووصفها المؤرخ أبن أياس بأنها أمرأة «صعبة الخلق شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة سكرانة من خمرة التيه والعجب» . (١)

وقد مثل جلوس شجر الدر على عرش مصر أعتراف المعاصرين بفضلها ودورها الهام فى العمل على أخفاق الحملة الصليبية السابعة على مصر . وتعتبر شجر الدر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة أسلامية . وقد نقش أسمها على السكة فى صيغة ,,المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » . أما الخطباء فى المساجد فكانوا يدعون لها بقولهم : «وأحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح» . (٢)

وهكذا لم يكن هناك مجال من مجالات الحياة العامة إلا وطرقته

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٣١١ ﻫ ، جـ١ ، ص ٨٩ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، جـ١ ، ص ٣٦٢ .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، جـ٦ ، ص ٣٧٤ .

المرأة المسلمة حتى العرش وصلت إليه وحكمت البلاد بمقدرة وكفاءة شهد لها بها المعاصرون ، لذلك فان قول المؤرخ بنتر ومايردده غيره من المؤرخين الغربيين من أتهامات يوجهونها للمرأة المسلمة كلها أتهامات غير صحيحة وأن دلت على شيء فانما تدل على عدم معرفة ولاأقول (جهل تام) بمركز المرأة المسلمة وجهودها فى مختلف ميادين الحياة والعلم والمعرفة . وماتم توضيحه فى الصفحات السابقة ماهو إلا نبذه سريعة وعامةعن مركز المرأة المسلمة ، وأن أعطى الموضوع حقه من البحث لاحتاج لمجلد ضخم تجمع فيه مآثر المرأة المسلمة منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وماتلاه من عصور أسلامية مختلفة .



الصــــــــــور





الصورة رقم (١)

مظهر من مظاهر الحب

في عصر الفروسية



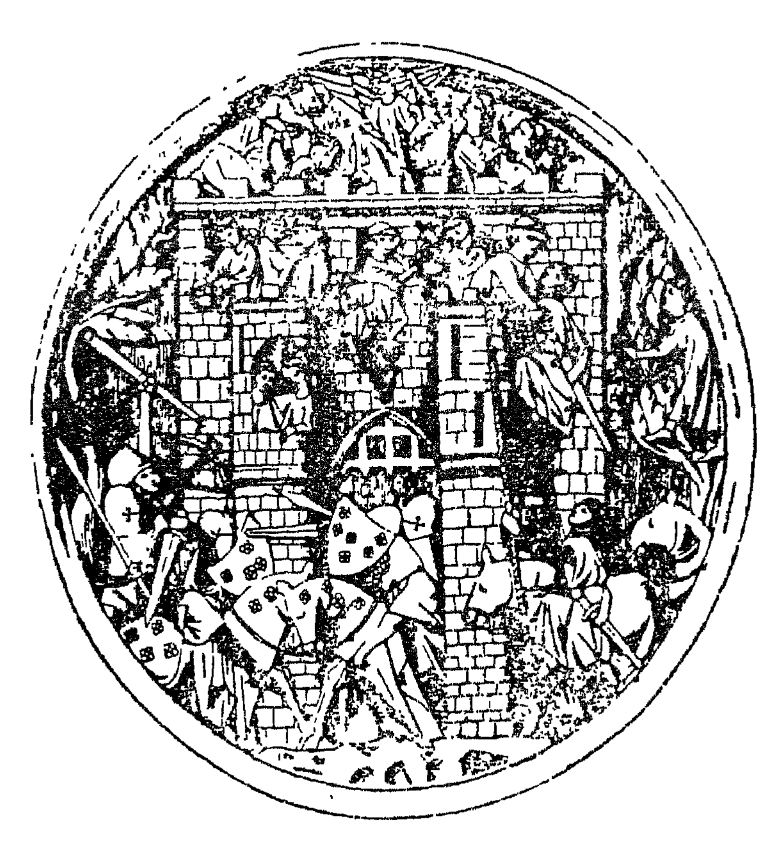


الصورة رقم (٢)

مظهر آخر من مظاهر الحب

فى عصر الفروسية





صورة رقم (٣)

قلعة الحب





الصورة رقم (٤)

ضرب النساء فى أوربا العصور الوسطى





الصورة رقم (٥)

نماذج مختلفة لملابس النساء وقبعاتهن





الصورة رقم (٦)

الملابس التقليدية للراهبات

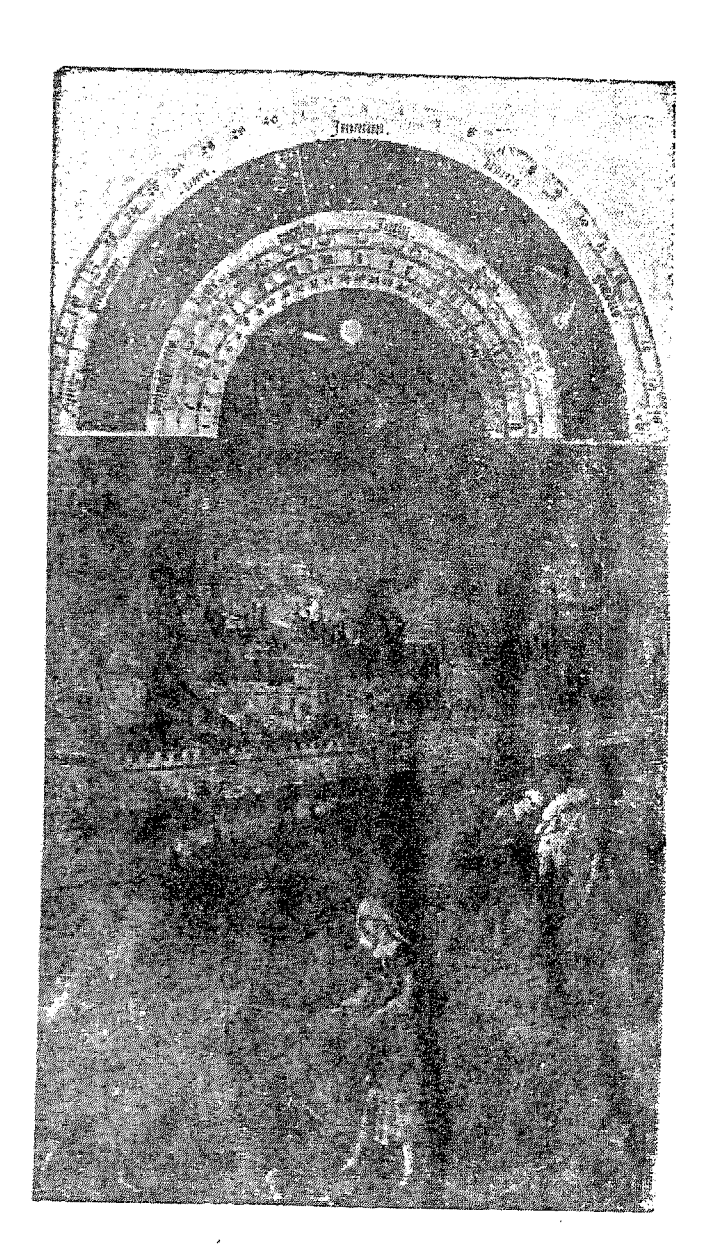

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الصورة رقم (٧)

ممارسة النساء لصناعة النسيج





الصورة رقم (٨)

بعض النساء يفلحن الأرض





الصورة رقم (٩)

كريستين دى بيزان



المراجع



أولاً : المصادر العربية

ـ القرآن الكريـــم .

ـ ابن أيـــــاس. (أبو البركات محمد بن أحمد) .

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٣١١ هـ ـ ١٣١٢ هـ .

ـ أبن الأثـــــير : (على بن أحمد بن أبى الكرم) .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ .

ـ أبن تغرى بردى : (أبو المحاسن جمال الدين يوسف)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ، ١٩٣٥ .

ـ أبن الجوزى : (أبى فرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على) ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٩

ـ أبن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٣٢٢ هـ .

ـ أبن طباطبا : (محمد بن على)

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

ـ الجاحـــظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٥ .

ـ الرازى : التفسير الكبير ، الطبعة الأولى .

ـ الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن قدير بن خالد) تاريخ الأمم والملوك ، الطبعة الأولى ، مطبعة الحسينية القاهرة .

: جامع البيان عن تأويل أى القرآن ، (تفسير الطبرى(،
دار المعارف القاهرة ، ١٩٥٨ .

ـ القلقشندى : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على) .
صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، القاهرة ، ١٩١٣ .

ـ المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)
السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق مصطفى زيادة ،
القاهرة ، ١٩٣٦ .

ـ المسعودى : (ابو الحسن على)
مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

ـ النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأدب فى فنون الأدب ، الجزء التاسع ،القاهرة،
١٩٣٣ .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة

– الين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد توفيق حسين ، مراجعة نقولا زيادةوفؤاد ترزى ، نشردار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧ .

– جوزيف نسيم يوسف : دكتور
نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ .

– دانتى الليجييرى : الكوميديا الألهيه ، ترجمة حسن عثمان ، ثلاثة اجزاء ، دار المعارف ، القاهرة .

– سعيد عبد الفتاح عاشور : دكتور
الجامعات الاوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩
اوروبا فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

– عائشة عبد الرحمن : دكتورة
بنات النبى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٣ . نساء النبى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧ .

– عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن ، دار الهلال ، القاهره .
فاطمة الزهراء ، دار الهلال ، القاهرة .

– عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة والحرية ، القاهرة ، ١٩٦٨

– كولتون : الديريه ، اسبابها ونتائجها ، مقال فى كتاب تاريخ العالم ، ترجمة الدكتور جمال الدين الشيال ، نشر فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٥٧ .

– مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان ، القاهره ، ١٩٥٦

– هويز نجا : اضمحلال العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

ثالثا : المصادر والمراجع غير العربيـــة

— Abram : Chivalry, in C. M. H. ed. Tanner, vol. VI, Cambridge, 1968.

— Allain : L'universite de Parisan XIII et VI^e Siecle, dans Revue du Clerge Francais, vol Iv, 1895.

— Aungier : History and Antiquities of Syon, London, 1840.

— Batiffol P. : A Monument to St. Augustine, 1930.

— Baum : Recherches sur lesoeuvres attriueesa Marie de Fiance, Paris, 1968.

— Boissonnxde :Life and work in Medieval Europe, Kegan Paul, 1937.

— The Buik of the croniclis of scotland, ed W. B. turnhuee, Rolls Series, London, 1858.

— Burgh : The legacy of the Ancient World, vol I, London 1955.

— Butler : Monasticism, C.M.H.ɪCambridye, 1975.

— Chabot : Jeanne d' Arc, librairie Larousse, paris, 1941

— Charlularium Universitatis Parisiensis, ed. Demfle, Paris 1889 - 97.

— Chaucer (J) : Canterbury tales in Complete works, ed. Pallord, London, 1908.

— Clemen : Chaucer' s early Poetry, London, 1963.

— Coulton : Life in the Middle Ages, Cambridge, 1928.

— Crevier : Histoire de L' universite de Paris, depuis son origine Jusqu' en l'annee 1600, 7 vols, Paris, 1761.

— Crumpe & Jacob : The legacy of the Midde Ages, oxford, 1921.

— Dante A. :La Divina Commedia illustrata da Sandra Bottice lei, Rome, 1964.

— De Sade : Memoires de la vie de Petrararque, Amesterdam, 1764-67.

— De Sanctis : Saggio Critico Sul Petrrarca, 1895.

— Dubarle : Histoire de L'universite de Paris, 2 vols, Paris, 1844.

— Eckenstein : Women Under Monasticism Cambaidge, 1896.

— Essays in the History of Medicine Presented to Karl Sudhoff ed. Charles Singer and Henry Sigerist oxford, 1924.

— Eyre : European civilisation, vols 3 (The Middle Ages 1, London, 1935).

— Gilson : Petrarque et Sa Muse, X ford, 1946.

— Halliday : Chaucer and his world, London, 1968.

— Heer F. : The Medival world, Europe (1110 - 1350), London, 1962

— Hoyt & Chodoron : Europe in the Middle Ages, Third edition U.S.A., 1976.

— Hussey J. : Chaucer an Introduction, London, 1968.

— Johannes Busch liber de Reformatione Monasteriorum, ed. Karl Grube, Halle, 1886.

— Kelly A. : Alienor of quitaine, London, 1952.

— Lanson : Histoire de la literature francaise, Paris, 1916.

— La Tour Landry : Liver Pour L'eduction de mes filles. ed. de Montaiglon, Paris, 1854.

— Mazzei : La vita e le aepera di petiarca, 1927.

— Myers : England in the later Middle Ages, London, 1953.

— Nyss : Christine de Pissan et ses Principales oevres, Brussals, 1914.

— Painter : Medieval Society, New York, . 1955

: History of the Middle Ages, great Britain, 1979

— Paris : Esquisse Historique de la Literature Francaise du Moyen Age, Paris, 1907.

— Parry Y. . The art of Courtly loue by Andreas Epellanns, 1941.

— Perroy : La Guerre de cent Ans, Paris, 1954.

— Pinet : Christine de Pisan, Paris, 1927.

— Pirrene : E Conomics and Social History of Medieval Euope, London, 1947.

: La Fin du Moyen Age, Paris, 1931.

— Pewer E. : Medieval women, edited by Postan, Cambridge, 1981.

Medieval English Nunneries, Cambridge, 1922.

— Registrum Simonis de Gandave Episcopi Saresbiriensis, ed Flomer, Canterbury and Yerk Socienty, 1914.

— Ricci : L'ultime rifugie di Dante, new ed. 1921.

— Rigand : Lesidees feministes de christine de Pisan, 1911.

— Stephenson : Medievae History, New York, 1942.

: Medieval Feudalism, New York, 1942.

— Tatham : Francesco Petrarca, his life and correspondence, 1925.

— Tout : The History of England, (1219 - 1377), London,.

— Thompson : The Middle Ages, London, 1931.

— Toynbee : Dante Alighieri, his life and workes, 4 thd ed. 1910.

— Ullmann (W.): A History of Political thought (The Middle Ages), 1968

— Wilmotte : Froissart, 1958.

— Warkman : Evolution of the Monastic Jdeal, London, 1957.

— Zingarelli ; Vita di Dante in Compendio, Milan, 1906.

معركة بلاجونيا
ونهاية الصراع بين نيقية وابيروس حول القسطنطينية

دكتورة
اسمت غنيم

١٩٨٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة
الاسكندرية






بسم الله الرحمن الرحيم



ليس هناك حدث في تاريخ منطقة شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى ، أثناء الفترة السابقة مباشرة على استرداد امبراطورية نيقية البيزنطية للقسطنطينية في عام ١٢٦١م ، أكثر أهمية من معركة بلاجونيا(١) أكتوبر ١٢٥٩م ، والانتصار الذي حققته قوات ميخائيل باليولوجوس على قوات الحلف الثلاثي ضده ، الذي تكون من ميخائل الثاني أنجيلوس اليوناني الاصل ، حاكم امارة ابيروس ، وما نفريد هو هنستاوفن ، الالماني ـ النورماني ملك صقلية ، ووليم الثاني أوف فيلها ردوين ، الفرنجي ، امير امارة آخايا في شبه جزيرة المورة .

والمعروف انه كان هناك تنافس شديد بين نيقية وابيروس ، وهما الامارتان اللتان أسستا بعد الفتح اللاتيني للقسطنطينية في ١٢٠٤م ، وظلتا تناضلان من أجل استعادة القسطنطينية ، وقد استطاع الامبراطور يوحنا فاتاتزيس (١٢٢٢ ـ ١٢٥٤م) وهو ثان امبراطور يتولى عرش امبراطورية نيقية البيزنطية ، أن يجرد امبراطور القسطنطينية اللاتيني من معظم أملاكه في آسيا الصغرى وأوروبا . ففي عام ١٢٢٥م . نجح فاتاتزيس في فتح معظم أملاك اللاتين في آسيا الصغرى ، كما قام أسطوله بالاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي Gallipoli ، وجزر لسبوس ، خيوس ، ساموس ، ايكاريا ، ورودس . وقد اضطر اللاتين الى عقد هدنة معه اعترفوا له بكل فتوحاته على حساب ممتلكاتهم في آسيا الصغرى ،

---

(١) يطلق على هذه المعركة ايضا اسم معركة كاستوريا Castoria وهو اسم المدينة التي يقع على سهل بلاجونيا بالقرب منها في غرب أقليم مقدونيا ، راجع :

Vasiliev, A, History of the Byzantine Empire (324-1453) U. S. A. 1971, Vol. 11, P. 537.

فيما عدا مدينة نيقوميديا التى بقيت فى أيديهم(١) .

ولم يلبث فاتاتزيس أن نقل نشاطه العسكرى الى الجانب الاوروبى واستولى على العديد من المدن الساحلية، ثم استولى على مدينة أدرنة وهى المدينة الرئيسية للاتين فى الجانب الاوروبى ، مما أشعل النضال بينه وبين حاكم ابيروس اليونانى ثيودور انجيلوس (١٢١٥ - ١٢٣٠م)، الذى كان قد استولى على مدينة سالونيك فى ١٢٢٤م ، وتوج بها امبراطورا وأطلق على نفسه لقب ، امبراطور وأوتوقراطور الرومان ، Basileus and Autocrator, of the Romaioi فقد اندفع ثيودور من سالونيك شرقا وفتح معظم اقليم تراقيا فى شمال بلاد اليونان ، وانتزع أدرنة من يد فاتاتزيس ، وواصل فتوحاته بتراقيا حتى وصل الى أسوار القسطنطينية(٢) .

وقد انتهى الصراع بين الطرفين اليونانيين ، باجتياح فاتاتزيس لاقليمى تراقيا ومقدونيا ، ووصوله حتى نهر ماريقا Marica فى تراقيا ، ونهر الفاردار Vardar فى مقدونيا ، ثم اتجه الى سالونيك ودخلها فى ديسمبر ١٢٤٦ ، وقبض على امبراطورها اليونانى ديمتريوس انجيلوس (١٢٤٤ - ١٢٤٦م) الذى كان يحكمها مع والده الضرير ثيودور انجيلوس، وأرسله الى نيقية أسيرا ، وعين لحكم سالونيك أحد رجاله وهو أندرونيكوس باليولوجوس ، الذى أصبح له حكم جميع فتوحات نيقية فى الجانب الاوروبى(٣) .

---

1) Nicephorus Gregoras : Historiae Byzantinae, in C. S. H. B. Ed weberi, Bonnae, valumen I, P. 29.
2) Wolff : Studies in the latin Empire of constantinople; London 1976, chapter I, P. 215.
3) Miller : The Empire of Nicaea and the recovery of constantinople in C. Med. H. Ed. Bury, Cambridge, 1923, Vol. IV, P. 493.
Ostrogorsky : History of the Byzantine state, English translation by Hussey, Oxford, 1968, PP. 439-440.

لكن أحد أبنـاء ميخائيل الاول أنجيلوس ، وهو ميخائيل الثـانى استطاع أن يستقل بابيروس وضم اليهـا اقليم تسـاليا Thessally ، وكون منهمـا امارة خاصــة به(١) ، استأنفت الصراع مع امبراطورية نيقيـة البيزنطية ، خاصـة وأن ابن يوحنا فاتاتزيس وخليفته ثيـودور الثـانى لاسـكاريس (١٢٥٤ ـ ١٢٥٨م) لم يفـرط فى فتوحات والده فى الجانب الاوروبى ، بل لقد نجح فى امتلاك مدينة سرفيا Servia ومدينة ديراخيوم Dyrrachium (دورازو) على ساحل البحر الادرياتيكى ، والمدينة الاولى تقع الى الشرق من امارة ابيروس ، أما المدينة الثانية فتقع الى الغرب من هذه الامارة(٢) .

وقد استغل ميخائيـل الثـانى انجيلوس ، حاكم ابيروس الاحداث الداخلية التى مرت بها امبراطورية نيقية البيزنطية ، ليوسع ممتلكاته على حساب أملاكها فى الجانب الاوروبى وليطرد نفـوذها من هنـاك ، تمهيدا لانفراده بالاستيلاء على القسطنطينية .

وتتلخص هذه الاحداث ، فى أن ثيودور الثانى لاسكاريس كان مصابا بمرض الصرع وفى أواخر أيامه ، حينما أخذت نوبات المرض تشتد عليـه ونظـرا لأن ابنـه الذى سوف يخلفه عـلى العـرش ، وهو يوحنا الرابع لاسكاريس ، كان لايزال طفلا صغيرا لم يتعد بعد السابعة من عمره ، فقد

---

1) Miller : Op. Cit., P. 494.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 440.

2) Pappadopoulos (J.); Theodore II Lascaris Empereur De Niceé, Paris, 1098, PP. 97-98.

وهذا الكتاب على جانب كبير من الاهمية فيما يتعلق بعصر ثيودور الثانى لاسكاريس وعلاقاته بمختلف القوى فى عصره .

Brehier(1.); vie et Mort de Byzance, ed. Albin Michel, Paris 1969, P. 316.

Gardner : The lascarids of Nicaea, London, 1922, P. 219.

أخذ اسم ميخائيل بالبولوجوس(١) يتردد بين مختلف الاوساط فى نيقية ، وكان قد شغل عدة مناصب منها منصب حاكم المدينتين التراقيتين ميلنيك وسيريس Melnik and Serres ، تحت قيادة والده الدمستق الاكبر اندرونيكوس باليولوجوس ، ثم أخذ ميخائيل فى الترقى حتى وصل الى منصب القائد الاعظم Megas Dux ثم منصب الامير Despot وتمتع بشعبية كبيرة فى مختلف الاوساط البيزنطية فى نيقية(٢) ٠

لكن الامبراطور ثيودور الثانى لاسكاريس ، اختار أحد أصدقائه من ذوى الاصل الوضيع ويدعى جورج موزالون George Muzalon وصيا على

---

(١) ينحدر ميخائيل باليولوجوس من نسل كبرى بنات الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣م) وتدعى ايرين ، التى تزوجت من اليكسوس باليولوجوس ، وأثمر هذا الزواج ابنة واحدة هى ثيودورا ، التى تزوجت الدمستق الاكبر اندرونيكوس باليولوجوس وانجبا ميخائيل فى عام ١٢٢٤ أو ١٢٢٥م فى مدينة نيقية ، أو Nymphaeum التى كان الامبراطور فاتاتزيس قد اتخذها عاصمة ثانية له ٠ ونظرا لأن والدى ميخائيل كانا من نفس عائلة باليولوجوس ، فقد أطلق عليه اسم Diplopalaiologos وحينما بلغ ميخائيل سن الصبا ، لفت نظر الامبراطور فاتاتزيس الذى نقل اقامته الى القصر الامبراطورى ، وعامله كما لو كان ابنه ، خاصة وأنه كان فى نفس عمر ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس ، وحينما بلغ سن الشباب أرسله فاتاتزيس ليتولى القيادة فى بعض غزواته فى اقليمى مقدونيا وابيروس ٠ راجع عن حياة ميخائيل باليولوجوس :

Pachymeres : Historiae Byzantinae, liberl, De Mechaele palaeologo, weberi, 1835. Bonnae; Geanak oplos (D.), Emperor Michael Paleologus and the west, 1258-1282, Harvard university press, 1959; PP. 16-38; laurent, V. la Genealogie Des premiers paleologues, dans (Byzantion), Revue internationale des Etudes Byzantines, Tome VIII, Bruxelles, 1933, PP. 125-149.

2) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 447.
Finlay (G) : A History of Greece from its conquest by the Romans to the present time B. C. 146 to A. D. 1864, AMS press, New York, vol. IV, P. 324.

ابنــه الصغير ، ثم توفى ثيودور فى اغسطس ١٢٥٨م فى سـن الســادســة والثلاثين • وبعد تسـع أيام فقط من وفاته ، وبينما كان جورج موزالون داخل كنيسة دير سوسندرا Sosandra فى مغنيسيا حيث دفن ثيودور بجوار والده فاتاتزيس ، لحضور الاحتفال باحيــاء ذكرى الامبراطور الراحل ، تم تنفيذ المؤامرة ضده ، فتم ذبحه هو وشقيقه أمام مذبح الكنيسة حيث كانا يقفان(١) وعلى اثر ذلك تولى ميخائيل باليولوجوس الوصــاية على الامبراطور الطفل يوحنا الرابع لاسـكاريس (١٢٥٨ - ١٢٦١م) • ولم يلبث ميخــائيل باليــولوجوس أن توج امبراطورا مشــاركا فى العـــرش للامبراطور الطفل ، وكان ذلك فى بداية عام ١٢٥٩م(٢) •

وقد انتهــز ميخائيل الثــانى أنجيلوس ، أمير ابيروس ، كل هذه التطورات وما صاحبها من أحداث واضطرابات داخلية فى نيقية ، وأراد أن يحقق حلمه فى تحطيـم القوة الرئيسية المنافســة له فى الصراع حول القسطنطينيــة ، وهى قوة امبراطورية نيقيــة عن طريق تجريدها من الاقاليــم الاوروبية التــابعــة لهــا ، بما فى ذلك مدينة ســالونيك عاصمة الامبراطورية التى كان عمــه ثيودور أنجيلوس قد أقامهــا ، كمــا سـبق أن ذكرت •

وكانت الادارة المدنية لممتلكات امبراطورية نيقيــة البيزنطيــة فى الجانب الاوروبى ، منذ عهد ثيـودور الثانى لاسكاريس ، فى يد المؤرخ جورج اكروبوليتيس(٣) وقد أخذ أمير ابيروس فى تحــريض سـكان هذه الاقاليم ضد النفوذ النيقى ، وحثهم على خلع الطاعة ، كما قام بحصار اكروبوليتيس فى قلعة بريلاب Prilap ، وقد تعرض اكروبوليتيس لخيانة

---

1) Poppadopoulos : Theodore II lascaris, PP. 131-132. Brehier, Op. Cit., P. 318.
2) Pachymeres : Historiae Byzantinae liber I, De Michaele palaeologe, vol. 1, P. 81.
3) Pappadopoulos, Theodore II lascaris, PP. 116-117.

الحامية التى قام أفرادها بفتح بوابات القلعة للمحاصرين ، وتم القبض علـى اكروبوليتيس وسيق مكبلا بالسلاسل حيث وضعه أمير ابيروس فى سجن مدينـة أرتا Arta ، احدى المدن الرئيسية لامارة ابيروس ، وفى سجنه أصبح لديه متسعا من الوقت ليكتب الاحداث التاريخية لعصره(١) ٠

وقد استولى ميخائيل أنجيلوس كذلك على بقية الاقاليم الاوروبيـة التابعة لنيقية فى الجانب الاوروبى ، ومد بذلك حدود امارته حتى نهـر الفاردارا ، ثم شرع فى المطالبة بميراث عمه والعمل على استعادة سالونيك ليد عائلة انجيلوس(٢) ٠

لكن أمير ابيروس ، كان يعلم أن ميخائيـل باليولوجوس ، ليس بالخصم الهين ، بل هو داهية سوف ينشد الانتقام حينما تستقر سـلطته بصفة نهائية فى نيقية ، ولذلك قرر انشـاء تحالف قوى مع بعض حـكام عصره ، فاتجه صوب ما نفريد هوهنستاوفن ملك صقلية ، ووليم الثـانى أوف فيلها ردوين ، امير آخايا فى شبه جزيرة المورة ٠ وقد استغل حاكم ابيروس بناته الجميلات لخدمة أهدافه السياسية ، فزوج ابنتـه الكبرى هيلين من مانفريد ، وزوج ابنته الثانية من وليم الذى اعتقد من جانبـه أن زواجه من يونانية سـوف يرضى رعاياه اليـونان ٠ وقد عرض المؤرخ باكيميريس لهذا الحدث بقولـه(٣) :

"Generos enin habebat et Helena quidem filia Manfredum Apulia regem fratrem Anna Augustae, quam lonnes imperator iam senier uxorem, et Anna vero altera filia principam Achaiae Gulielmum"

---

1) Miller, W. The latins in the levant, A History of Frankish Greece (1204-1566), London, 1908, P. 109.
Brehier, vie et Mort de Byzance, P. 316.

2) Georgii Acropolitae, opera, ed Heissnberg leipzig, 1093, P. 139 pachymeres, P. 82.
Gregoras, P. 71.

3) Pachymeres : P. 82.

=

ولكن لماذا اختار امير ابيروس التحالف مع مانفريد هوهنستاوفن ملك صقلية ، ووليم أوف فيلهاردوين أمير آخايا ، بالذات دون باقى حكام عصره ؟

لقد أراد أمير ابيروس أن يستفيد من فرسان آخايا الفرنجة المشهورين بمهارتهم فى القتال ، كما أراد الاستفادة كذلك من الفرسان الالمان التابعين لمانفريد ، يضاف لذلك أنه كان لمانفريد ووليم دوافع ومصالح قوية وهامة فى هذه المنطقة ، كما كان لهما نفس أهداف أمير ابيروس ضد امبراطورية نيقية ، وقد أراد ميخائيل انجيلوس استغلال هذا كله وتوجيهه لخدمة مصالحه وأهدافه .

وقد أوضح المؤرخ باكيميريس أهداف ميخائيل أنجيلوس من هذا التحالف فقال(١) :

Constituit videlicet contractas quam passet plurimas copias ipis protinus admovere constantinopli, eamque obsidere et occupare conari, tum si negotium surcederet. efficere ut ibi Romanorum imperator ipse proclamaretur. naminem enim esse putanat qui alus ad id halberet vel verisimilis spei, non lascarin, non alum quemlibet, utique quorum nulli vires sustinendo imperio idoneae adessent. quippe se et nobilem et ex Angelorum gente."

والترجمة العربية لهذا النص هى :

« جمع (اميرابيروس » قوات كثيرة بقدر استطاعته ، لمهاجمة

=

ويذكر باكيميرس أن مانفريد ملك أبوليا وشقيق الامبراطورة آنا التى كانت متزوجة من الامبراطور يوحنا . والمقصود هو الامبراطور يوحنا فاتاتزيس ، عن زواج فاتاتزيس وآنا راجع :
اسمت غنيم، زواج التحالف فى العصور الوسطى ـ الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ص ٦١ ـ ٧٥ .

1) Pachymeres : P. 82.

القسطنطينية ومحاولة الاستيلاء عليها ، وحينئذ ينادى به امبراطورا على الرومان ، لأنه يعتقد أنه لا أحد هناك ، سواء عائلة لاسكاريس أو أى عائلة اخرى ، أحق بالامبراطورية من أنجيلوس » ٠

ويعود باكيميريس للتاكيد مرة اخرى على أهداف ميخائيل أنجيلوس فيقول(١) :

"his igitur tunc congregatis in unum omnibus despota, et eodem adiecties quot ex suis ipse terris potuerat cogere, cogitabat primum quidem acie decernere cum adversaris ducibus tum is, ut sperabat, victis aggredi Thessalonicom et Occidnas regiones incursionibus vastare, ipsamque adeo tentare constantionpolim,"

« بعد أن جمع أقطاب حلفه ورجالهم الكثيرين ، خطط أولا للهجوم على القادة (قادة نيقية) ثم لمهاجمة سالونيك والتغلب على الاقاليم الغربية ، وبعد ذلك يتجه للهجوم على القسطنطينية ذاتها » ٠

كان هذا فيما يتعلق بأهداف ميخائيل أنجيلوس من وراء هذا التحالف الثلاثى ، أما عن مانفريد ملك صقلية ، فقد كان متمسكا بخطط أسلافه النورمان فى غزو وفتح بلاد البلقان ، ويذكر المؤرخ جريجوراس أن هدف مانفريد كان الاستيلاء على « كل الاقاليم اليونانية من البحر الايونى الى القسطنطينية »(٢) ٠

وقد انتهز مانفريد فرصة انشغال امير ابيروس فى بداية عام ١٢٥٨م٠ بقتال قوات نيقية فى اقليم مقدونيا وقام بغزو بلاد البلقان ، واستولى على الممتلكات السابقة للنورمان سادة ابيروس السابقين ، على ساحل البحر الادرياتيكى ٠

وهناك وثيقة مؤرخة فى ٢٣ فبراير ١٢٥٨م ٠ توضح أنها أول سنة

1) Pachymeres : liberl, P. 83.
2) Gregoras : P. 72.

لسيادة مانفريد على الاقاليم التى حول ديراخيوم وأفلونا ، وجاء في الوثيقة أن هذه الاقاليم هى ديراخيوم التابعة لامبراطورية نيقية البيزنطية ، وبلجراد ، وافلونا ، وجبال سفينا ريزا Sphinariza mountains وكلها تتبع امير ابيروس(١) .

وفى ٢ يونيو ١٢٥٩م . تم زواج مانفريد من هيلين ، والغريب أن والدها ميخائيل الثانى انجيلوس لم يعتبر فتح مانفريد لهذه الاقاليم التابعة له فى البلقان ، اغتصابا لممتلكاته ، ولكنه أكثر من ذلك أباح لمانفريد اضافة أقاليم جديدة حسبما يريد .

ويعلل المؤرخ دينو جياناكوبلوس Dino Geanakoplos ذلك بقوله ، اننا لكى نفهم ذلك يجب علينا أن نعلم أن أمير ابيروس وجد أن مانفريد احتل هذه الاقاليم بالفعل (بحق الفتح) لذلك زوج ابنته من مانفريد ، واعتبر هذه الاقاليم وغيرها مما يتاح لمانفريد فتحه فى البلقان بمثابة صداق هيلين Dowry ، وبهذه الطريقة تجنب امير ابيروس خوض صراع مع مانفريد ، يكون له أثره فى اعاقته عن نضاله ضد امبراطورية نيقية البيزنطية ، وفى نفس الوقت كسب حليفا نافعا ومفيدا له فى صراعه المرتقب ضد هذه الامبراطورية .

ويستطرد جياناكوبلوس قائلا ، أنه فى ضوء التحالف السابق بين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فاتاتزيس وفريدريك الثانى(٢) ، يبدو للوهلة الاولى أن الغاء السياسة الصقلية الودية نحو نيقية كان شيئا مستغربا ، ولكن مانفريد كان الآن فى مركز قوى بما يكفى فى ايطاليا لينبذ تحالف والده ، ولينظر باتجاه أى شخص يساعده فى تنفيذ طموحاته فى

---

1) Buchon (J.) : Recherches historiques sur la principauté française de Moreé, et ces hautes baronnies, I, Paris, 1845, PP. 103-104.

(٢) عن هذا التحالف وظروفه راجع :
اسمت غنيم : زواج التحالف فى العصور الوسطى ، ص ص ٣٣ ـ ٦٨ .

امتلاك البلقان(١) .

أما المؤرخ الالمانى نوردن فقد رأى أن مانفريد كان يريد مملكة على ساحل البحر الادرياتيكى ، وفي المقابل فانه يجيز لحماة أمير ابيروس أن يستولى على القسطنطينية(٢) .

وذكر المؤرخ الفرنسى بيشون Buchon أن مانفريد طلب اقليما تابعا لامارة ابيروس في منطقة البلقان ، ووعده ميخائيل انجيلوس بأن يحقق له ذلك ، في مقابل مساعدته في نضاله ضد امبراطورية نيقية ، ثم في الاستيلاء على القسطنطينية(٣) .

وقد أورد المؤرخ جياناكوبلوس رأيا للمؤرخ اليونانى Dendias مؤداه ان مانفريد طلب الاقاليم التابعة لابيروس كصداق لهيلين ، ليتخذها مأوى يلجأ اليه في حالة هزيمته في صراعه مع البابوية . لكن المؤرخ جياناكويلوس يرد على هذا الرأى بقوله أن سطوة ونفوذ مانفريد في ايطاليا في ذلك الوقت تعارض وجهة النظر هذه ، التى تبدو بعيدة الاحتمال ، ويضيف الى ذلك قوله انه من الهام أن نذكر أن دوافع مانفريد للاشتراك في هذا الحلف تتعلق أهدافه الاساسية الثابتة باعتراف البابوية بسيادته على صقلية ، وسيادة الهوهنستاوفن على كل ايطاليا وأن نجاحه في السيطرة على بلاد البلقان والتحالف مع اليونان في ابيروس تخدم أهدافه في ايطاليا ، ، وتظهره بمظهر القوة على الاخص أمام البابوية ، الحامية الحقيقية للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وبلاد اليونان(٤) .

كان ذلك فيما يتعلق بأهداف مانفريد ملك صقلية ، أما عن أهداف

---

1) Geanakoplos : Op. Cit., P. 50.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.
2) Norden : Der vierte Kreuzzog im Rahmem der Beziehungen des Abendandes zu Byzanz. Berlin; 1898, PP. 333-334.
3) Buchon : Op. Cit., P. 279.
4) Geanakoplos : Op. Cit., PP. 53-54.

وليم الثانى أوف فيلها ردوين أمير آخايا ، فقد أوضح المؤرخان البيزنطيان اكروبولتيس وباكيميريس ، أن وليم توقع جنى مكاسب هامة من هذا التحالف ، لاعتقاده أنه بمساعدة ميخائيل أمير ابيروس يستطيع أن يخضع البارونات الفرنجة المتمردين عليه فى وسط بلاد اليونان ، أو على الاقل يستطيع أن ينمى ولاء الحكام اليونان التابعين لامارة آخايا ومنعهم من خلع طاعته مثلهم مثل غيرهم . علاوة على ذلك فانه يستطيع أن يكسب حليفا هاما ضد ميخائيل باليولوجوس الذى أصبح اهتمامه ينمو بوضوح فى استرداد الاقاليم البيزنطية السابقة على حساب بلاد اليونان الخاضعة للفرنجة(١) .

وذكر المؤرخ ميللر Miller أن وليم كان يتوق لاحياء مملكة أسلافه اللومبارديين فى سالونيك التى أسست بعد الفتح اللاتينى للقسطنطينية فى عام ١٢٠٤م ، وكان يحلم بأن يحكم من مقدونيا حتى ماتاپان Matapan (٢) .

أما المؤرخ أوستروجورسكى فقال أن نجم دوق آخايا فى ذلك الوقت كان آخذا فى الصعود ، لأن دوقية أثينا القريبة ، واللوردات الثلاثة لايوبيا Euboea اعترفوا به سيدا أعلى لهم ، وقد شجعه هذا على أن يحقق المزيد من المكاسب الاقليمية(٣) .

لكن ما هو موقف بلدوين الثانى ، الامبراطور اللاتينى بالقسطنطينية من هذا التحالف الثلاثى بين أمارة ابيروس ومملكة صقلية وامارة آخايا ، وهل اشترك فى هذا التحالف ضد امبراطورية نيقية البيزنطية ؟

المرجح أن المتحالفين ارادوا ضم بلدوين الى جانبهم على الاقل ،

1) Acropolites : P. 165.
Pachymeres : PP. 87-88.
2) Miller : The latins in The levant, P. 110.
3) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.

حتى يتخذوا من القسطنطينية قاعدة لمهاجمة نيقية ، التى لا تبعد عنها اكثر من أربعين ميلا فقط ، خاصة وأن امبراطورية نيقية البيزنطية كانت العدو الاول للامبراطور اللاتينى وكان الهدف الاول لاباطرة نيقية واحدا تلو الآخر هو القضاء على الامبراطور اللاتينى بالقسطنطينية واسترداد العاصمة البيزنطية • وقد أراد بلدوين أن يستغل هذا التحالف الثلاثى للضغط على ميخائيل باليولوجوس ، وعن هذا الطريق يمكنه أن يكسب اقاليم تزيد من أملاكه من ناحية ومن ناحية أخرى تكون بمثابة المنطقة الحاجزة Buffer area بينه وبين الحلفاء الثلاثة فى اقليم البلقان •

وفى أواخر عام ١٢٥٨م أرسل بلدوين سفارة الى ميخائيل باليولوجوس، وكله ثقة فى أن ميخائيل سوف يرحب بتقديم تنازلات اقليمية لصالحه ، مقابل عدم انضمامه لهذا الحلف الثلاثى ، لذلك فقد طلب الرسل من باليولوجوس التخلى عن سالونيك وكل الاقاليم الواقعة بينها وبين القسطنطينية للامبراطور اللاتينى • وقد أجاب باليولوجوس أنه يعتبر سالونيك فى منزلة موطنه الاصلى ، وأنه لا يفكر فى التنازل عنها ، عندئذ طالب الرسل بمدينة سيريس Serres والاقاليم التى تقع شرقها حتى القسطنطينية ولكن باليولوجوس أعلن أن هذا الموقع كان مركز قيادته العسكرية الاولى وعلى هذا الاساس فانه لن يتخلى عنه • ولما قصر الرسل مطالبهم فى أخذ اقليم يقع من فوليرون Voleron الى الشرق ، كان رد ميخائيل باليولوجوس أن هذا هو المكان المفضل لديه لممارسة هواية الصيد(١) •

واخيرا ، سأل الرسل ، الذين أصيبوا بالاحباط ، ما هى الارض التى هو على أستعداد للتنازل عنها لامبراطور القسطنطينية ؟ وكانت الاجابة انه ليس على استعداد للتنازل عن أية أرض ، وانه اذا أراد امبراطور القسطنطينية اللاتينى أن يسالم ميخائيل باليولوجوس ، فأن

1) Acropolites : P. 161.
Wolff : Op. Cit., P. 228.

عليه أن يتنازل له عن نصف عائد الرسوم الجمركيـة للقسطنطينية وكذلك عن نصف محصول النعناع(١) .

والواضح أن رد ميخائيل باليولوجوس على هذا النحو ، هو انعكاس لثقته الكاملة فى النصر . ورغم ذلك فان المصـادر لم تشر الى اشـتراك بلدوين فى هذا الحلف الثلاثى .

والواقع أن هذا يدل على بعـد نظر من جانب الامبراطور بلدوين الثانى أو البابوية المسيطرة على المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ، لأنه يبدو للوهلة الاولى أن هذا التحالف الذى قصد به فى المرتبة الاولى القضاء عـلى امبراطورية نيقيـة البيزنطيـة وتدمير قوة ميخائيل باليولوجوس المطالب الاول بعرش القسطنطينية ، هو لصالح الامبراطور اللاتينى بلدوين الثانى . لـكن النظـرة البعيـدة العميقة للامور توضح أن القضـاء على باليولوجوس وتدمير قوة نيقية ليس معناه القضاء على المطالب الوحيـد بعرش القسطنطينة ، لأن هناك مطالبين آخرين ، أولهم ميخائيل للثاذى انجيلوس امير ابيروس ، ثم مانفريد ملك صقلية الذى كان يرى أن استمرار الامبراطورية اللاتينية فى الشرق ، عاملا من عوامل قوة البـابوية وكان تدميرها والاستيلاء عليها عاملا من عوامل القضاء على قوة البـابوية ، وكسب جولة جديدة وهامة فى سلسلة الصراع بين البابوية وآل هوهنستاوفن بصفة عامة ، وهى نفس سياسة والده الامبراطور فردريك الثانى .

وهناك أيضا وليم أوف فيلها ردوين دوق آخايا الذى لا تقل أطماعه فى القسطنطينية عن أطماع الاثنين الآخرين ، خاصة وأن وليم يعتبر تابع اقطـاعى Vassal لبـلدوين وكان يحلـم بأن يحـل محـله على عرش القسطنطينية .

وهكذا ، فقد كان القضـاء على باليـولوجوس وامبراطورية نيقيـة

I) Acropolites : P. 163.
Wolff : Op. Cit., P. 229.

البيزنطية ، ليس فى صالح بلدوين الثانى تماما ، لأنه فى حال النصر فان الحلفاء الثلاثة سيتفرغون له ، ويــكون هو الفريسة التالية الســهلة لهم ، فالأفضل أن يستمر باليولوجوس وامبراطوريته على قيد الحياة ، تناوىء وتناضل الحلفاء الثلاثة فيشغل بهم ويشــغلون به ويبقى بلدوين متخــذا موقف المتفرج .

وقد قام ميخائيل باليولوجوس بمحاولات دبلوماسية تجاه المتحالفين الثلاثة لتبديد تحالفهم ، واورد المؤرخ البيزنطى اكروبوليتيس أخبار هذه المحاولات فروى أن ميخائيل باليولوجوس أرسل الى ميخــائيل الثــانى انجيلوس، أمير ابيروس، رسولا كفيفايدعى ثيودور فيلس Theodoros philes الذى عرض عليه امتيازات اقليمية مقابل السلام ، لكن أمير ابيروس رفض ورد « ردا مهينا وتفوه بألفاظ بذيئة »(١) .

ولما لم تفلح محاولة الســلام التى تقــدم بها باليولوجوس الى أمير ابيروس ، اتجه امبراطور نيقيــة الى الحليفين الآخرين ، فأرســل الى مانفريد ملك صقلية رسولا يدعى نقفور الالياطى Nikephoros Alyattes

وقد ذكره الرسول بالحلف النيــقى الصــقلى الســابق بين يوحنــا فاتاتزيس وفردريك الثانى ، وأعلن عن رغبة امبراطور نيقية فى احياء هذا الحلف ، كما أعلن الرسول أيضــــا عن رغبــــة الامبراطور ميخـــــائيل باليولوجوس فى اطلاق سراح كونستانس (آنا) أرملة الامبراطور الراحل يوحنا فاتاتزيس وشقيقة مانفريد التى كانت فى سجن نيقية منذ وضعها به ثيودور الثانى عقب وفاة والده فى ١٢٥٤م(٢) .

لكن مانفريد رفض هذه المقترحات كلها « لأن خياله صور له مكاسب اكبر» على حد تعبير المؤرخ اكروبوليتس وقد قبض على الرسول ووضعه

1) Acropolites : P. 163.
2) Schlumberger G. le Tombeau d'une imperatice Byzantine Avalence En Espagne. dans le livere de "Byzance et croisades" pages Medievales, Paris, 1927, P. 71.

فى السجن وبقى به لمدة عامين(١) .

كذلك كان الحال مع وليم أوف فيلها ردوين حاكم امارة آخايا الذى رفض الاستجابة لمبادرة ميخائيل باليولوجوس للسلام، وكان هو الآخر يتوقع فوائد كثـــيرة من وراء هذا الحلف الثـــلاثى(٢) وهــــكذا لم يعـد أمام باليولوجوس الا أن يقوم بمحاولة أخيرة فاتجه نحو البـابوية ، العـدو اللدود لآل هوهنستاوفن والقـادرة على كبح جماح مانفريد والحـد من أطماعه وقد قدم باليولوجوس عرضا للبابوية ضرب به على الوتر الحساس لديها ، وهو اتحاد الكنيستين اليونانيـة واللاتينية ، مقـابل أن يعترف البابا باعتلاء باليولوجوس لعرش نيقية ، وأن يمنع البابا أية محـاولة للاعتداء على امبراطورية نيقية تأت من جهة الغرب . لكن البابا الاسكندر الرابع Alexander IV ، لم يرد على سفارة باليولوجوس ، لأنه وجد أن الثمن الذى سيدفعه مقابل اتحاد الكنيستين يعتبر ثمنا باهظا(٣) .

وعندما وجد باليولوجوس أن مبادراته للسلام لم تنجح لم يعد أمامه سوى اللجوء للقوة العسكرية .

وقد أراد باليولوجوس أن ينفرد بميخائيل انجيلوس أمير ابيروس ، قبل أن تصله قوات من حليفيه ، فأصدر أوامره الى شقيقه جون الذى كان يشغل منصب الدمستق الاكبر Ioani palaeologo magno Domestico والقائدان الآخران وهما اليكسيوس ويوحنا رائولى Alexios et Ioanni Rauli ليشعلوا الحرب فجاة على أمير ابيروس(٤) . وقد خرجوا بصحبة الجيش فى أواخر سبتمبر ١٢٥٨م ، أما ميخائيل باليولوجوس نفسه فقد ظل فى نيقية ، وظهـر يوحنا باليولوجوس فى أعالى مقدونيـا عن طريق

1) Acropolites, P. 165.
2) Acropolites : P. 165.
3) Wolff : Studies in the latin Empire of constantinople, P. 646 ff.
Miller : The latins in levant, P. 110.
Geanakoplos : The Emperor Michael paleologos, PP. 61-62.
4) Pachymeres : De Michaele palaeologe, liber I, P. 83.

عبور فودينا Vodena ، وفاجا أمير ابيروس وجيشــه الذى كان يعسكر بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria فى غرب اقليم مقدونيا وقد أصابت المفــاجأة أمير ابيروس وجيشــه مما أدى الى أن يســود الارتباك بينهم فتقهقروا سريعــا عبر الممرات الصخرية ، مما أدى الى قتــل الكثــير من رجاله ، أما أمير ابيروس نفسه فقد أنسحب خلف جبال بندوس Pendus وعسكر بالقرب من افلونا Avlona التى تقع داخل أملاك مانفريد ، ومنها أرسل يستدعى النجدة من حليفيه مانفريد ووليم ، أما يوحنا باليولوجوس فقد استولى على أخريدا Ochridal ديافوليس Deavolis ، برسبا ، بلاجونيا Pelagonia ، وسوســكوس Soskes (١) . وعلــى الفــور وصلت الى أمــير ابيروس مساعدة حليفيه وقد طلب الحليفان تنفيذ خطط الفتح المتفق عليها بينهم منــذ بداية تاسيس حلفهم ، وقــد أرســل مانفريد الى حمية أمــير ابيروس مساعدة عسكرية ذكر المؤرخ باكيميريس أنها تالفت من ثلاثة آلاف فارس من الفرســان الألمان المعــروفين بقوتهم وشجاعتهم فى القتــال ، فقــال(٢) :

':... et a Manfredo quidem permissos ad eum certos homines impetraverat tria millia lectorum ex Germanis militum, virorum fortium, quos ipsi caballarios Vocant".

أما المؤرخ اكروبوليتيس فقد ذكر أن المساعدة العسكرية التى أرسلها مانفريد لحمية كانت مكونة من أربعمائة فارس ألمانى مجهزين تجهيزا تاما بالاســلحة(٣) . وربما كان عدد القــوات التى ذكرها اكروبوليتيس اقرب الى الحقيقة ، خاصة وأن ما نفريد كان يخوض حربا ضد أعدائه من حزب

1) Acropolita : PP. 165-166.
Finlay : Op. Cit., PP. 338-339.
Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 319.
2) Pachymeres : P. 83.
3) Acropolites : P. 168.

الجلف فى ايطاليا(١) وبالتـالى كان فى حاجة ماسة الى قواته ، وليس من المنطق أن يرسل عددا كبيرا مثل ثلاثة آلاف فارس مساعدة لأمير ابيروس .

وقد ذكر كل من المؤرخ البيزنطى جريجـوراس(٢) وأحد أصحـاب الحوليات الايطالين ويدعى ماتيوسبينللى Matteo Spinelli أن مانفريد جاء بنفسه على رأس قواته(٣) . ولكنى أتفق مع المؤرخ دينو جياناكوبلوس الذى أوضح أن هذا القول ليس له ما يؤكده ، كما أنه مرفوض تماما من جانب المؤرخين الحديثين(٤) .

والمرجح أن مانفريد لم يات على رأس قواته ، نظرا لأنه كان مشغولا آنذاك بحروبه ضد الجلفيين فى ايطاليا ، كما سبق أن ذكرت .

وان كان وجد لدى مانفريد من الظروف ما أعاقه عن الحضور بنفسه على رأس قواته الا أن وليم اوف فيلها ردوين أمير آخايا ، قد جاء بنفسه على رأس قوات كثيرة ، بعد أن فرض تجنيدا اقطاعيا فى مارس ١٢٥٩م على كل أتباعه ، وقد اشتمل جيش وليم على قوات من الارخبيل وآثينا ، وعدد كبير من اللوردات الاقطاعيين صاحبوه بانفسهم على رأس قواتهم مثل الكونت ريتشارد صاحب كيفالونيا Count Richard of Cephalonia وتوماس الثانى صاحب سالونا Thomas II if Salona واوبرتينو صاحب بودونيتزا Ubertino of Boudonitza وفرق عسكريةمن ثيبس Thebes وآثينا Athens (٥).

---

1) Previté-Orton : Italy, 1250-1290, C. Med. H. Vol. VI ed. Hussey, Cambridge, 1968, PP. 180-182.
2) Gregoras : P. 75.
3) Geanakoplos : P. 64.
4) Geanakoplos : Op. Cit., P. 64.
   Brehier : Op. Cit., P. 319.
   Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.
5) A cropolit es : P. 168.
   Pachymeres : P. 83.
   Gregoras : P. 71.

وقد جاء ابنى امير ابيروس الى والدهما ومعهما قواتهما وهما نقفور Nikephoros والابن الآخر جون John وهو ابن غير شرعى لامير ابيروس وكان متزوجا من ابنة تارون Taron زعيم قبائل الوالاش الذين يقيمون فى والاشيا الكبرى باقليم تساليا(١) ٠

وهكذا لم يتاح لأمير ابيروس أن يقود جيشا كبيرا مثـل هذا الجيش جمع من جميع انحاء بلاد اليونان(٢) ٠ أما عن القوات التى استعدت بهـا امبراطورية نيقية لمواجهـة هذا التحالف الثلاثى ، فقـد تمت الاستعانة بالقوات المرتزقة لمواجهة سلاح الخيـالة الفرنجة ذات الصيت الذائع فى القتال ، وكانت على النحو التالى : ثلاثمائة فارس المانى تحت قيادة دوق كارينثيـا Duke of Carinthia ، ١٥٠٠ فارس من رماة السـهام من هنغاريا ، وأكثر من ٦٠٠ فارس من سرفيا Servit ، وكتيبة من الجنود من البلغار وعدد من المحاربين من اقليم الاناضول وهم معروفون بحروبهم ضد الاتراك ، ٥٠٠ فارس من الاتراك الذين يقيمون عند نهر الدانوب ، ٢٠٠٠ فارس من الخيالة من عنصر الكيومان ، بالاضافة الى رماة السهام من اليونان ، وحاميات مقدونيا وتراقيا(٣) ٠

والمرجح أن قوات الحلف الثلاثى فاقت فى العـدد قوات امبراطورية نيقية ، لذلك فقـد كان واضحـا انه اذا أراد الجـانب النيقى أن يحـرز الانتصـار ، فانه عليـه أن يخطط لاستراتيجية جديدة مبنية على أسـاس استغلال الثغرات فى جانب المتحالفين ٠ وقد لجأ جيش نيقية الى حيـل مختلفة حتى يبدو حجم جيشهم أكبر من الحقيقة بكثير ٠ وقد أرسل قادة جيش نيقية بعض رجال الكشافة سرا لنشر بذور الخـلاف والفـرقة بين العناصر المختلفة التى ضمها جيش المتحـالفين وخاصة عنصرى اليـونان

1) Pachymeres : P. 83.
2) Miller : The Latins in The Levant, P. 110.
3) Pachymeres : P. 83.
Miller : The latins in the Levant, P. 111.

والفرنجة(١) .

وقد ازداد اتساعا الافتقار الى الانسجام بين الحلفاء ذوى الاهواء المختلفة نتيجة لخلاف شخصى بين وليم أمير آخايا والابن غير الشرعى لامير ابيروس ، الذى ذهب الى وليم شاكيا من أن بعض فرسانة الفرنجة قد أبدوا اعجابهم بطريقة غ يرلائقة بزوجته الوالاشية الجميلة ، وبدلا من انصافه من جانب وليم ، فانه أهانه ولمح الى مولده غير الشرعى ، وكنوع من الانتقام ، فان جون فر وانضم الى جانب جيش نيقية فى هذه اللحظات الحاسمة(٢) .

وقد ارسل امبراطور نيقية ميخائيل باليولوجوس الى شقيقه جون بعدة تعليمات عسكرية ، أهمها أن يتجنب الصدام المباشر مع العدو ، وأن يحاول اكتشاف المناطق التى تفتقر الى الاتحاد ، وذلك عن طريق المناوشات العديدة والمفاجئة ، ونتيجة لاتباع هذه التعليمات ،قام جون باليولوجوس بتوزيع قواته ببراعة ، وذلك أثناء اقترابه من قوات العدو فى غرب مقدونيا وقد أسند جون باليولوجوس مهمة احتلال المواقع القوية فى التلال المحيطة بهم الى القوات المسلحة تسليحا قويا ، بينما أسند الى من يرمون السهام والمسلحين تسليحا خفيفا والاكثر حركة من الكيومان والاتراك واليونان مهمة ارهاق العدو فى السهول بهجمات وانسحابات مفاجئة ، وقد تقابلت طليعتا الجيشين فى مكان يدعى فوريللالونجوس فى سهل بلاجونيا Pelagonia بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria فى غرب اقليم مقدونيا ، وذلك فى أكتوبر ١٢٥٩(٣) .

وحسب الخطة التى وضعها قائد جيش نيقية جون باليولوجوس فقد

---

1) Miller : Op. Cit., P. 111.
Finaly : Op. Cit., P. 339.
2) Miller : The Latins in the Levant, P. 111.
3) Acropolites : P. 164.
Geanakoplos : Op. Cit., P. 67.
Brehier : Op. Cit., P. 319.

قامت القوات ذات التسليح الخفيف بمناوشــات مع العدو ليلا ونهارا دون انقطاع ، كما قاموا بسلب ونهب القوافل التى تحمل المؤن • وهكذا فقـد هلك سلاح الفرسان الفرنجة الذى كان يحارب على أرض لم يعتاد عليها ، كما بدأت المؤن فى النقص بسرعة ، وفقد جيش أمير ابيروس معنــوياته تمــــاما • وحسب رواية المؤرخ البيزنطى جريجــــوراس ، فان جون باليــولوجوس قام بمحاولة لبث الفــرقة والانقسـام بين صفوف الاعداء ، فارسل سرا رجلا ادعى أنه هارب من جيش نيقية ، وأخبرا أمير ابيروس أن حليفيــه عقــدا اتفاقيــة سرية لخيــانته مع جون باليولوجوس قائد جيش نيقية وذلك مقابل مبالغ ضخمة من المال ، وأن الحل الوحيد أمامه للنجاة هو الهرب ، وبعد أن اقتنع أمير ابيروس بما سمعه من الرجل ، فر هاربا ليلا وصحب معه كل من استطاع جمعه من رجاله ، أما الباقون فبعد ما علموا برحيله ، فروا هاربين هم الآخرون ليلا ، وفى الصباح عنــدما اكتشفت القوات التابعة لمانفــريد ووليــم هروب أمير ابيروس من أرض المعركة ، أدركوا فى الحال أنه تمت خيانتهم(١) •

وقد ظهر لبعض الوقت أن شجاعة أمير آخايا وليم أوف فيلها ردوين قد خانته ، ولكن قدوم أحد أتبــاعه ، وهو ابن شقيقه البــارون القوى جيوفرى دى بريير Goeffröy de Bryeres جعـــله يتغلب عــلى ضعفه ، وقد قاتل الفرنجة بكل الشجاعة المعروفة عن عنصرهم آنذاك ، واختصوا الفرسان الالمان التابعين لجيش نيقية ، وركزوا عليهم هجومهم مما أدى الى انسحابهم قبل أن يجتثوا « مثلما يجتث العشب من المروج » عندئذ أمر قائد نيقية الفرسان الهنغاريين ورماة السهام من الكيومان بالرمى فى اتجاه الفرسان الفرنجة ، وسقط فارس بعــد فارس وأخذ أسيرا جيوفرى دى بريير « زهرة فرسان آخايا » وبينما كان الامير وليم يحــاول انقــاذ ابن أخيه من أيدى الاعداء ، سقط عن فرسه ، وقد حاول وليمأن يختفى تحت كومة من القش ولكنــه كشف وعرف عن طريق أسـنانه الاماميــة

---

1) Gregoras : P. 71.

البارزة ، وسبق وليم دوق أخايا وباقى الاسرى الرئيسيين الى خيمة قائد جيش نيقية الذى أرسلهم بدوره الى شقيقه الامبراطور ميخائيل الذى كان آنذاك فى مدينة لامبساكوس Lampsakos ، وكان الذين نجوا من المعركة هم فقط والاش تساليا الذين ظلوا مخلصين للابن غير الشرعى لامير ابيروس ، وقد أخذوا طريقهم عائدين الى بلادهم(١) .

هذا وقد تابع القائد جون باليولوجوس انتصاره فاتجه بجزء من الجيش المنتصر الى بلاد اليونان حيث نهبوا ليفاديا Livadea ، واتجه جزء آخر من جيشه بقيادة القائد الكسيوس فاستولى على جوانينا Joannina وآرتا وهما المدينتين الرئيستين فى امارة ابيروس ، وتم تحرير المؤرخ اكروبوليتيس من سجنه ، واستقر اليكسيوس فى ابيروس(٢) ، بينما سار جون باليولوجوس وجون انجيلوس الابن غير الشرعى لامير ابيروس خلال تساليا الى نيوباتراس Neopatras الى ثيبيس Thebes ، ونهبوا المدينة بينما عاود جون انجيلوس خيانته مرة أخرى وفر الى والده أمير ابيروس ، الذى كان قد اتخذ مع عائلته من جزيرتى ليوكاس Leukas وكيفالونيا Ephalonia ملجأ له(٣) .

وهكذا أحرزت امبراطورية نيقية البيزنطية هذا الانتصار على هؤلاء المتحالفين الثلاثة ، وتم هزيمتهم وتشتيتهم على النحو الذى سبق ذكره ، وعن هذا الانتصار يقول المؤرخ المعاصر اكروبوليتيس : « بفضل التعليمات الامبراطورية ، حققت قواتنا انتصارا باهرا ، طبقت شهرته ارجاء العالم ، حتى تضاءلت الشمس الى جواره »(٤) .

وفى تحليل أسباب هزيمة الحلف الثلاثى ، تجدر الاشارة الى أن من

1) Miller : The latine in the Levant, PP. 111-112.
2) Finaly : Op. Cit., P. 339.
3) A cropolites : P. 172.
Miller : The latins in the Levant, P. 112.
Finlay : Op. Cit., P. 339.
4) Acropolites : P. 108.

أهم الاسباب هو تعدد القيادات ، وتعدد العناصر فى جيش المتحـالفين ، وتأصل الكراهية بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر منذ قرون عديدة سابقة نتيجة لاختلاف العنصر واللغة والاهواء والمذاهب الدينية ، ثم جاءت أحداث عام ١٢٠٤م وفتح اللاتين للقسطنطينية واقامة مملكة لاتينية بها ، والتفرقة العنصرية والدينية التى تحملها اليونان طوال سنوات الاحتلال لتضيف عاملا جديدا وهاما زاد من كراهيـة العنصر اليـونانى للاتين ، خاصة وأن اليونان كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى مرتبة من اللاتين ، وكانوا يميلون الى النظر اليهم بتعالى واحتقار ، واعتبارهم هراطقة أما رأى اللاتين فى اليونان فقد كان أكثر سوءا من رأى اليونان فيهم • فقد اعتبروا اليونان مجردين من الاخلاق وجبناء ومنشقين ولم يكن من الممكن أن تذوب هذه الكراهية بين العنصرين بعد أن توارثوها جيلا بعد جيل ، بين يوم وليلة نتيجة لهذا التحالف •

أما بالنسبة لمانفريد ملك صقلية ، سليل الالمان والنـورمان ، فقـد ورث كراهية هذين العنصرين لليونان ، كما ورث أطماعهما فى بلاد البلقان وفى القسطنطينية ذاتها وقد أدى ذلك كله الى انعدام الثقة بين الحلفـاء الثـلاثة •

وقد كان ميخائيل باليولوجوس وشقيقه جـون قائـد الجيش الذى خاض هذه المعركة بارعين فى فهم هذه العوامل كلها واستغلالها لبث الفرقة والانقسام بين صفوف المتحالفين ، ونجحا فى تحقيق هدفهما الى حد بعيد ، على النحو الذى تم توضيحه فى ثنايا هذا البحث •

أما عن الاهميـة التاريخية لهـذه المعـركة ، فان المؤرخ دينوجينـا كوبلوس يقول فى هذا الصدد : « ان معركة بلاجونيا كانت واحدة من أهم المعارك فى القرن الثالث عشر الميلادى[1] • ويقول المؤرخ جاردنر : « ان النتائج الكبيرة للمعركة تؤهلها لأن تتبوأ مكانة سامية كأحد المعارك الفاصلة

---

1) Geanakplos : Op. Cit., P. 73.

فى تاريخ أوروبا»(١) .

ولم يبعد هذان المؤرخان عن الحقيقة ، اذ كان لهذه المعركة بالفعل نتائج بالغة الاهمية ، وخاصة فيما يتعلق باسترداد العاصمة البيزنطيـة القسطنطينية ، فقد استطاعت امبراطورية نيقية عقب هذه المعركة ونتيجة للانتصـار الذى أحرزته أن تقضى على قوة المنافسـين لها ، وقد تقلصت أملاك أمير ابيروس وانحصرت فيما ورثه عن آبائه أما فتوحاته فى منطقة ابيروس وتساليا ، فقد تم لامبراطورية نيقية الاستيلاء عليها .

كذلك فان احد نتائج هذه المعـركة كان انهيار النفوذ اللاتينى فى شبه جزيرة المورة ، ويقول المؤرخ Setton ان معركة بلاجونيا هى « نقطة التحول والتغيير المأساوى The dramatic peripeteia (٢) ليس فقط فى مجرى حياة وليم أوف فيلها ردوين ولكن فى تاريخ امارة الفرنجة فى آخايا »(٣) وقد أصبح لامبراطورية نيقيـة القـدم الراسخة هنـاك ، وبذلك فقـد الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية مساعدة امارة آخايا المهزومة وأصبح على بلدوين الثانى ، الاعتماد على نفسه وعلى موارده المحدودة فى حماية القسطنطينية والدفاع عنها .

وهكذا كان انتصار بلاجونيا هو الحد الفاصل ، الذى وضع النهاية للصراع بين نيقية وابيروس حول القسطنطينية اذ بعد هذه المعركة أصبح واضحا للعيان أن مصير القسطنطينية قد تحدد ، وأنها ستكون من نصيب الطرف الأقوى الذى أصبحت له السيطرة على الموقف فى هذه المنطقة ، واعنى به امبراطورية نيقية البيزنطية .

---

1) Gardner A. : The Lascarids of Nicaea, London, 1922, P. 248.

(٢) كلمـة Peripeteia هى فى الاصل كلمة يونانية περιπέτεια وهى بمعنى Change .

(٣) قد ظل وليم أوف فيلها ردوين فى الاسر أكثر من سنتين ، وللمزيد عن تاريخ امارة آخايا بعد معركة بلاجونيا راجع : =

وهذا ما حدث بالفعل ، اذ قبل أن يكتمل العامان على هذه المعركة ، تم لامبراطورية نيقية البيزنطية استرداد العاصمة القسطنطينية فى ٢٥ يوليو ١٢٦١م . ودخل ميخائيل باليولوجوس العاصمة الأم فى ١٥ اغسطس ١٢٦١ ، وتم تتويجه للمرة الثانية هو وزوجته ثيودورا فى سبتمبر ١٢٦١(١) .

وقد كان التتويج هذه المرة فى الكنيسة الرئيسية معقل المذهب الارثوذكسى آيا صوفيا ليسترد مجد آبائه وأجداده ، ويرفع عن اليونان عار الهزيمة والنفى والتشرد ، بعد أن عادت القسطنطينية مرة أخرى عاصمة ومقرا وقلبا نابضا للامبراطورية البيزنطية .

Setton : The latins in Greece and the Aegean from the Fourth Crusade to the End of the Middle Ages. C. M ed. H. vol. IV, part 1, ed; Hussey, Cambridge, 1975, PP. 401-408.

Miller : The latins in the Levant, A history of Frankish Greece (1204-1566), London, 1908, P. 109 ff.

(١) بعد عدة شهور من تتويج ميخائيل باليولوجوس فى كنيسة أيا صوفيا ، تم له ابعاد صاحب الحق الشرعى فى العرش يوحنا الرابع لاسكاريس ، عن طريق سمل عينيه وبذلك أصبح ميخائيل باليولوجوس امبراطور وحيدا على العرش البيزنطى ؛ وأسس أسرة جديدة هى أسرة باليولوجوس التى تربعت على العرش البيزنطى ما يقرب من القرنين من الزمان ، حتى تم للاتراك العثمانيين فتح القسطنطينية فى ١٤٥٣م راجع :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. 11, PP. 580-722.

Brehier : Vie et Mort de Byzance, PP. 321-432.

Nicol : The End of the Byzantine Empire, London, 1979, PP. 13-96.

المراجع والمصادر

1 — A cropolites (C.) : Opera, ed. Heisnberg; Leipzeg, 1903.

2 — Angold : Aby zantine Government in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975.

3 — Barrachough (G.) : The Medieval papacy, London, 1975.

4 — Brehier (L.) : Vie et Mort de By Zance, ed. A lbin Mickel, Paris, 1969.

5 — Buchon (Y.) : Recherches historiques sur la principauté française de Moree, et ces hautes baronnies, 1, Paris, 1845.

6 — Choniates (N.) : Historia, ed. Bekker, in corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae, 1935.

7 — Finlay (G.) : A History of Greece from its conquest by the Romans to the present time, B. C. 146 A. D. 1864. AMS Press. New York.

8. — Foord : The Byzantine Empire, London, 1911.

9 — Garnder (A.) : The lascarids of Nicaea, London, 1912.

10 — Geanakoplos (D.) : Emperor Michael Paleologus and the west 1285-1282, Harvard University Press, 1959.

11 — Gelzer (H.) : A briss der Byzantiniscfsen kaiesergeschicht, Munich, .1897.

12 — Gibbon (E.) : The decline and Fall of the Roman Empire, 6 vols, New York, 1976.

13 — Gregoras (N.) : Historiae Byzantinae ed. weberi, Bonn, 1829.

14 — Grousset (R.) : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jersalem, Paris, 1956.

15 — Hussey (Y.) : The Byzantine world, London, 1967.

16 — The Ill ustrated Encyclopedia of Medieval Civilization U.S.A. 1980.

17 — Labis : Histoire de France, Paris, 1976.

18 — Laurent (V.) : La Genealogie Des premiers paleologues, dans Byzantion) Revue Internationale des Etudes Byzantines, Tome VIII, Brux elles, 1933.

19 — The Lincoln library of Essential Information, The Frontier Press Company, Columbus, Ohio, U. S. A. Thirty Ninth Edition 1978.

20 — Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon publication, New York, 1983.

21 — Magic : Roman Rule in A Sia Minor, 2 vols, 1975.

22 — Miller (W.) : The latins in The levant, A istory of FranKish creece (1204-1566) London, 1908; The Empire of Nicaea and the recovery of contantinople, in C. Med. H., ed. Bury, vol. IV, Cambridge, 1923.

23 — Nicol (D.) : The Fourth Crusade and the Greek and latin Empires, 1204-1261, in C. Med. H. Vol. IV, Part 1, ed. Hussey Cambridge, 1975.

: The End of The Byzantine Empire, London, 1979.

: Byzantium, its ecclesiastical History and relations with the western world, London, 1972.

24 — Norden : Der Viere kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlandes zubyzanz. Berlin, 1898.

25 — Ostrogorsky : History of the Byzantine State, English trans. by Hussey, Oxford, 1968.

26 — Pachymeres : Historiae Byzantinae, liber 1, De Michaele Palalologo. weheri, MDCCCXXXV, Bonnae.

27 — Painter (S.) : A history of the middle Ages, New York, 1954.

28 — Pappadopoulos (J.) : Theodore 11 Lascaris Empereur De Niceé, Paris, 1908.

29 — Pears (E.) : The Fall of constantinople being the story of the Fourth crusade New York, 1975.

30 — Previté-Orton : Italy, 1250 - 1290, C. Med. H. Vol. VI, ed Hussey, Cambridge, 1968.

31 — Runciman (S.) : The History of the crusades, Vol. 3, Cambridge, University press, 1966.

32 — Schlumberger (C.) : Le Tombeau d'une imperatrice Byzantine A Valence En Espagne, dans la liver de (Byzance et croisedes), Pages Medievales, Paris, 1927.

33 — Setton : The latins in Greece and the Aegean From the Fourth orusades to the End of the Middle Ages. C. Med. H. Vol. IV, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

34 — Vasiliev : The History of the Byzantine Empire (324-1453), U.S.A. 1971.

35 — Walter : la Ruine de Byzance (1204-1453), ed. Albin Michel, Paris, 1958.

36 — Wolff (R.) : Studies in the latin Empire of constantinople London, 1976.

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩٠ / ١٥٢٤
بتاريخ ٢٦ / ١٢ / ١٩٨٩

شارل دانجو
وسياسته في الصقليتين

دكتورة
إسمت غنيم

١٩٩٢



المقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

تمتاز بعض الحقب التاريخية بظهور شخصيات تلمع في عصرها بما تنفرد به من صفات تؤهلها للقيادة ولما تقوم به من أعمال تبهر بها معاصريها . وبعض هذه الشخصيات تحقق أعمالا هامة ذات قيمة تخلد إسمها علي مر العصور ، وبعض الشخصيات التاريخية لا تترك وراءها سوي الخراب والدمار وأسوأ الذكريات لدي رعاياها ، ويسجل التاريخ ذلك أيضا .

ومن الفريق الثاني شخصية بارزة ، استحوذت علي اهتمام المعاصرين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي شخصية شارل دانجو Charles D'Anjou ، الذي ينحدر من العائلة الملكية الفرنسية ، وهو الأخ الأصغر لملك فرنسا لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) ، ولقد صور المؤرخون شارل دانجو بصورة قاتمة السواد ووصفوه بأنه كان شريرا ماكرا ناكثا للعهود ، وعلي استعداد أن يغرق في الدماء من بيدي أقل مقاومة لحكمه [١] . وان كان من رأي المؤرخ فازيلييف ان حكمهم هذا غير عادل [٢] ، إلا انه من خلال عرضنا لشخصية شارل دانجو وسياسته في الصقليتين ، يظهر بوضوح ان هؤلاء المؤرخين لم يتجنوا علي شارل فشجاعته التي تصل الي حد التهور ، وطموحه الشديد الذي لم يكن يقف عند حد ، وثقته الزائدة في ذاته وقدراته ، واعتداده بأصله الفرنسي ، كل ذلك دفعه إلي الشهرة والمجد ، لكنه ما لبث ان هوي به إلي أحضان الفشل والدمار ، بعد أن أساء معاملة رعاياه في صقلية وايطاليا ، وامتص مواردهم ، وأغرقهم في بحر من الدماء ،

(1) Jordan E : Les Origines de la Domination Angevine en Italie , Paris , 1909, PP. 410 - 415 .

(2) Vasiliev A : History of the Byzantine Empire , 324 - 1453 , U. S. A. , 1971, vol 11 , P. 592 .

حتي أصبح مكروها بغيضا ، وتمنوا الخلاص منه ومن العنصر الفرنسي الذي اعتمد عليه شارل في الحكم . وقد أثمر ذلك كله في النهاية وأدي إلي إنفجار ثوري رهيب في صقلية في ٢٩ مارس ١٢٨٢ م ، أطاح بحكم شارل دانجو وقضي علي آماله وطموحه في غزو العالم بأسره .

والمقصود بتعبير الصقليتين The two Sicilies جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، اللتين تم توحيدها علي يد روجر الثاني النورماني ، الذي اتخذ لقب ملك في يوم رأس السنة عام ١١٣٠ م . (توفي عام ١١٥٤ م .) في عاصمته بالرمو . وقد آل عرش الصقليتين في عام ١١٩٤ م. إلي هنري السادس إمبراطور الامبراطورية المقدسة (١١٩٠ - ١١٩٧ م .) عن طريق زواجه في عام ١١٨٦ م . من كونستانس النورمانية إبنة روجر الثاني ووريثة عرش الصقليتين ، وانتقل ذلك العرش إلي ابنهما فردريك الثاني (١١٩٧ - ١١٢٥ م) ثم الي أبنائه من بعده ، حتي آل إلي شارل دانجو كما يتضح من خلال هذا البحث .

والمعروف أن شارل دانجو اشترك في حملة لويس التاسع علي مصر (١) (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) ، لكن دوره في هذه الحملة كان دورا ثانويا كمساعد لشقيقه الملك لويس مثلما فعل شقيقاه الآخران روبرت كونت أرتوا ، والفونس كونت بواتييه وكان شارل وقتذاك لا يزال شابا صغيرا في الحادية والعشرين من عمره ، كذلك

(١) بخصوص حملة لويس التاسع علي مصر راجع :

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، الطبعة الأولي ، ١٩٦٩ .

راجع كذلك :

جوانفيل : القديس لويس وحملاته علي مصر والشام ، ترجمة وتعليق الاستاذ الدكتور / حسن حبشي ، الطبعة الأولي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

شارك شارل بدور محدود في حملة لويس التاسع علي تونس في عام ١٢٧٠ م [١] . ولم يصل إلي تونس إلا بعد وفاة شقيقه الملك لويس .

وتجدر الإشارة إلي أن المسلمين في جنوب ايطاليا وعلي الأخص في مدينة لوسيرا (لوتشيرا) Lucera ، كان لهم دور هام في الثورات التي قامت ضد حكم شارل دانجو في ايطاليا ، وهذه المدينة من المدن الرومانية القديمة ، لكنها دمرت علي يد اللومبارديين في عام ٦٦٣ م . وأعاد بناءها من جديد الامبراطور فردريك الثاني في ١٢٢٣ م . وشجع المسلمين علي الاقامة بها . والمعروف ان الامبراطور فردريك الثاني كان يظهر المودة للمسلمين ، فقد تربي بينهم في صقلية وتشبع بحضارتهم وقيل أنه كان يتحدث اللغة العربية ، ويتذوق الشعر العربي ، وأحاط نفسه بمستشارين من المسلمين استخدم بعضهم في الجيش وقربهم اليه وجعل بعضهم في حاشيته ، وتخطت هذه العلاقات حدود صقلية وجنوب ايطاليا إلي بلاد الشرق الاسلامي ، وكذلك بلاد المغرب فكان حكام تونس الحفصيين يدفعون له الجزية السنوية ، كما كانوا يدفعونها من قبل لوالده هنري السادس ، ولأبنائه الذين حكموا من بعده [٢] .

وقد كان المسلمون في لوسيرا مؤيدين تماما لعائلة الهوهنستاوفن ، حتي ان

(١) عن حملة لويس التاسع علي تونس ودور شارل فيها راجع : مصطفي الكناني : حملة لويس التاسع الصليبية علي تونس ١٢٧٠م . / ٦٦٨ - ٦٦٩ هـ . الاسكندرية ١٩٨٥ .

سامية عامر : حملة لويس التاسع الصليبية علي تونس ، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

(٢) عن علاقات فردريك وخلفائه بالمسلمين راجع :

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ورقة ٢٢٦ب مخطوط ، جـ ٣ ، ورقة ٢٥٢ب مخطوط .

العيني : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ . =

مانفريد لم يطمئن علي زوجته هيلين أوف ابيروس ، وابنائه الا بين مسلمي لوسيرا ، فتركهم هناك وسار للقاء شارل دانجو في معركة بنفنتو ١٢٦٦ م . بل ان جيشه في هذه المعركة كان يشترك فيه كتائب من المسلمين . كذلك بذل مسلمو لوسيرا مساندتهم وتأييدهم لكونرادين هوهنستاوفن الذي قام بحملة عسكرية ضد ايطاليا لانتزاع حقه الشرعي في حكم الصقليتين ، وقد تمت الإشارة لذلك كله أثناء عرضنا للحوادث التاريخية الخاصة بهذا البحث .

والجدير بالذكر أنه كان للمصادر الايطالية ، سواء المعاصر منها أو المتأخر زمنيا بعض الشئ ، وسواء كتبت باللغة اللاتينية أو اللغة الايطالية أهمية خاصة بالنسبة لهذا البحث ، ومن أهم هذه المصادر كتابات جيوفاني فيلاّني Giovanni Villani ، وبارثولوميو اوف نيوكاسترو Bartholomew of Neocastro ، وسابا مالاسبينا Saba Malaspina ، ومارينو سانيودو تورسيللو Marino Sanudo Torsello . كذلك كانت الفائدة كبيرة من المراجع الايطالية ، وعلي رأسها كتاب المؤرخ الايطالي الشهير ميشيل اماري Michel Amari عن (حرب صلاة المساء الصقلية) La Guerra del Vespro Siciliano .

وقد تمت الإشارة إلي هؤلاء المؤرخين وأعمالهم في ثنايا هذا البحث وحواشيه.

= ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٥ ، سنة ٦٢٦ هـ .

ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٨٠ .

سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ، بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الحادي عشر ، سنة ١٩٦٣ .

- Mas - Latrie L. : Traites de Paix et de Commerce et Documents divers Concernant les Relations des Chretiéns avec les Arabes de L'Afrique Septantrionale au Moyen Ages , Paris , 1866 .
- Bryce : The Holy Roman Empire , New York , 1919 .
- Kantoromicz : Fredrick The Second , 1932 .
- Van Cleve : The Emperor Frederick 11 of Hohenslaufen , 1972 .



CHARLES OF ANJOU

شـارل دانجـو



شارل دانجو ، هو الإبن الأصغر للملك لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٣ - ١٢٢٦ م) ، وبلانش صاحبة قشتاله Blanche of Castile .

ولد شارل في بداية عام ١٢٢٧ م . بعد شهور قليلة من وفاة والده لويس الثامن ، وكانت والدته بلانش آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمرها ، وقد جمع شارل في شخصه بين الأصول الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، فوالدته هي حفيدة الملك العظيم هنري الثاني Henry II Plantagenet ملك انجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩م) وملكة فرنسا السابقة اليانور صاحبة اكويتين Eleanor of Aquitaine التي تزوجها هنري الثاني في ١١٥٢ بعد طلاقها من ملك فرنسا لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) . ووالدها هو ألفونسو الثامن النبيل Alfonso VIII The Noble ملك قشتاله (١١٥٨ - ١٢١٤ م) ، الذي تزوج في عام ١١٧٠ من اليانور الانجليزية ابنة هنري الثاني ، وولدت ابنتهما بلانش في عام ١١٨٨ م . وفي عام ١٢٠٠ حينما بلغت الثانية عشرة من عمرها تزوجت من الأمير لويس (الثامن) وريث عرش فرنسا كجزء من اتفاق السلام الذي عقد بين انجلترا تحت حكم خالها حنا لاكلاند Jhon Lackland (١١٩٩- ١٢١٦ م) وفرنسا تحت حكم فيليب الثاني (١١٨٠ - ١٢٢٢ م) وقد تلقت بلانش تعليمها في البلاط الفرنسي ، وكانت امرأة فاضلة ذات شعور ديني قوي حاولت فرضه علي أبنائها ، وحينما تولي لويس الثامن عرش فرنسا في ١٢٢٣ ، ابتعدت عن السياسة وشغلت نفسها بتربية ابنائها ، لكن بموت لويس الثامن المفاجئ في ١٢٢٦ ، أصبحت بلانش وصية علي أبنائها وحاكمة لفرنسا أثناء فترة قصور إبنها الأكبر لويس (التاسع) ، الذي بلغ سن الرشد في عام ١٢٣٤ ، وتسلم حكم البلاد ، وقد استمر نفوذها علي ابنها لويس أثناء فترة حكمه ، وكان لها دخل كبير في قراراته ، وفي عام ١٢٤٧ ، حينما سافر

لويس التاسع علي رأس حملته الصليبية إلي الشرق ، عادت بلانش لحكم فرنسا مرة أخري ، واستمرت القوة المهيمنة علي فرنسا حتي وفاتها في عام ١٢٥٢ عن عمر يناهز الرابعة والستين [١].

وهكذا عندما ولد شارل كانت والدته بلانش مشغولة تماما في أعباء الحكم وممارسة الشئون السياسية لفرنسا ، وعلي الرغم من ذلك أثبتت هذه السيدة كفاءة ومقدرة سياسية عظيمة ، وساعدها علي ذلك ما تمتعت به من شخصية قيادية ونشاط وافر ، وولع بالسياسة ، فاستطاعت في بداية حكمها أن تؤكد سلطة التاج الفرنسي علي النبلاء المعارضين ، وبذلت في سبيل ذلك الكثير من الجهد والوقت ، ربما بشكل حرمها من بذل رعايتها واهتمامها الشخصي لإبنها الأصغر شارل ، الذي يقال أنه ورث صفاتها الشخصية أكثر مما ورثه أبناؤها الآخرون . فضلا عن أن شارل لم يكن الأخ المفضل لدي شقيقه الملك لويس التاسع ، بل كان لويس يفضل روبرت كونت أرتوا أولا ، ثم ألفونسو كونت بواتييه بعده ، وكان شارل يعلم ذلك جيدا لذلك اعتمد شارل علي نفسه وعول علي قدراته ، خاصة بعد أن نما واشتد عوده ، ويشير المؤرخون إلي أنه كان قد ورث عن اسلافه القشتاليين لونهم الداكن (الأسمر) ووفرة نشاطهم وقوة أبدانهم ، فكان جسده مليئا بالصحة والنشاط مثله في ذلك مثل والدته ، وتلقي شارل تعليما جيدا ، ولم يفتر حماسه طيلة حياته للتعليم وميله للشعر ودراسة الفنون ، كما أخذ عن عائلته صفتي التقشف والصرامة ، فكان دائما علي استعداد للتخلي عن

(١) للمزيد عن بلانش صاحبة قشتاله راجع :

Berger E. : Histoire de Blanche de Castile reine de France , Paris , 1895 .

Wolff L. : Mortgage and Redemption of an Emperor's son : Castile and the latin Empire of Constantinaple , PP. 47 - 69 .

متعته الشخصية للسعي وراء هدف أعظم ، لكن تقشفه كان يختلف عن تقشف الملك لويس التاسع فبينما كان تقشف لويس ينبع من تقوى حقيقية كان تقشف شارل دائما وسيلة للوصول لأهدافه في السلطة والحكم ، وكان يعتقد اعتقادا راسخا بأنه جندي الله المختار وأداته لحكم العالم بأسره (1) .

وفي يناير من عام ١٢٤٦ م . تزوج شارل من بياتريس Beatrix صاحبة بروفانس ، وهي الإبنة الصغري لريموند الرابع برنجار صاحب بروفانس Raymond Brengar IV of Provance (توفي ١٢٤٥ م) ، وكان لريموند أربع بنات ولم ينجب ولدا ذكرا ، فتزوجت ابنته الكبري مارجريت في عام ١٢٣٤م . من الملك لويس التاسع ملك فرنسا وشقيق شارل ، وتزوجت الابنة الثانية وتدعي اليانور في عام ١٢٣٦ من الملك هنري الثالث ملك انجلترا ، وتزوجت الابنة الثالثة وتسمي سانشيا Sanchia في عام ١٢٤٣ من ريتشارد صاحب كورنوال Richard of Cornwall ، الذي أصبح فيما بعد حاكما علي الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٢٥٤ - ١٢٧٢م.) . اما ابنته الصغري بياتريس فلم تكن قد تزوجت ووالدها علي قيد الحياة، لذلك أوصي لها بجميع أراضيه في مقاطعة بروفانس ، أخذا في اعتباره ان بناته الثلاث اللاتي تزوجن أثناء حياته تم تعويضهن بصداق كبير ، لذلك فقد تم حرمانهن من ميراثهن في مقاطعة بروفانس مما جعلهن يشعرن بالكراهية تجاه بياتريس وزوجها المقبل .

وقد تنافس علي الزواج من بياتريس عدد كبير من ملوك اوروبا وأمرائها منهم، الملك جيمس الأول ملك أرغونة (١٢١٢ - ١٢٧٦) ، والكونت ريموند السابع صاحب تولوز (١٢٢٢ - ١٢٤٩) ، وشارل دانجو شقيق زوج أختها

(1) Leonard E. G. : Les Angevins de Naples , Paris , 1954 , PP. 41 - 47 , 60 .

الكبري مارجريت ، وقد بلغ من تصميم الأول علي الزواج منها أن نزل بجيشه محاصرا لها في بروفانس ، لكن بياتريس فضلت شارل الذي اقتحم مقاطعة بروفانس علي رأس جيش فرنسي وحرر بياتريس وتزوجها في يناير ١٢٤٦ (١).

وعن طريق زواج شارل من بياتريس ، انتقلت مقاطعة بروفانس ليده ، وفي العام التالي مباشرة (١٢٤٧) تسلم ميراثه أيضا في أملاك والده ، ذلك أن والده لويس الثامن كان قد أوصي قبل وفاته بأن يمنح المولود ، إن جاء ذكرا، كونتيتي أنجو ومين Anjou and Main ، الغنيتين فتسلمهما شارل بالفعل في عام ١٢٤٧ م. ، بعد أن بلغ سن الرشد ، ورغم الممتلكات الأخري الكثيرة التي آلت إلي شارل ، كما نري فيما بعد ، الا أن نسبته إلي أنجو لصقت به في النهاية ، فهو شارل صاحب أنجو ، ولم يعرف بأنه شارل صاحب مين أو بروفانس أو نابلي أو صقلية أو غيرها من ممتلكاته ، لذلك فمن الأهمية بمكان عرض نبذه سريعة عن كونتية أنجو .

تقع أنجو في غرب فرنسا ، علي ضفاف نهر اللوار وكان قد جري انشاؤها في القرن التاسع الميلادي ، أثناء الغزو النورماني لغرب فرنسا ، وفي عام ١٨٦١ م. منحها شارل الثاني الأصلع (٢) Charles The Bald ملك فرنسا

(1) Leonard : Les Angevins de Naples , PP. 47 - 49 .
Austin Lane Poole : The Interregnum in Germany , in C. Med. H. , vol VI , Cambridge 1968 , ed. Tanner , PP. 126 - 127 .

(٢) للمزيد عن شارل الأصلع راجع :

Zumthor P. : Charles le chauve , Paris , 1957 .

(٨٤٠ - ٨٧٧م) ، لروبرت القوي[1] Robert the strong كونت تور ، الذي منحها بدوره لواحد من افصاله الاقطاعيين وهو فولك الثالث نيرا Fulk III Nerra (٩٨٧ - ١٠٤٠ م) ، الذي أسس الأسرة الحاكمة الانجويه الأولي ، وقد وحد خلفاؤه أراضي هذه الكونتية وضموا اليها في ١٠٥٤ م ، كونتية تور حتي غدت أنجو في القرن الحادي عشر الميلادي واحدة من أقوي الامارات في فرنسا ، وقد أشرف الكونتات الذين حكموها علي الطريق بين فرنسا وإسبانيا ، كما أهتموا بالتجارة ، الأمر الذي منحهم ايرادات ضخمة . وهكذا أصبحت كونتية أنجو في حالة ازدهار ورخاء اقتصادي ، وكانت العملة المستعملة في أنجو والتي تسك في تور ، واحدة من أفضل العملات تداولا في غرب اوروبا .

وعند بداية القرن الثاني عشر الميلادي ضمت إلي أنجو كونتية مين Main، وهي إلي الشمال منها ، وتحت حكم فولك الخامس (١١٠٩ - ١١٢٨) تحسنت الادارة في أنجو وبنيت قلاع جديدة بها ، وقد اشتري فولك السلام بتحالفه مع كل من ملكي انجلترا وفرنسا ، ووضع تحالفه مع ملك انجلترا هنري الأول في ١١٢٥م. حدا للتنافس علي مين ، كما أن هذه الاتفاقية كان لها شأن خطير وهام في التاريخ الوسيط ، فقد نصت علي أن يتزوج ابن فولك ويدعي جيوفري بلانتاجنيت Geoffry Plantagenet من ماتيلدا إبنة هنري الأول ملك انجلترا ..وبناء علي هذه الاتفاقية

(١) روبرت القوي هو ماركيز نيوستريا Neustria وهي احدي المقاطعات الفرنجية ، وهو واحد من المغامرين الاقطاعيين الذين ظهروا في عهد الملك شارل الثاني الأصلع ، وامتلك روبرت كونتيات عديدة ، وحارب ضد النورمان الذين هاجموا وادي نهر اللوار ونجح في ايقاف غزوهم هناك ، وأوكل اليه الملك شارل الأصلع الدفاع عن المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والسين ، وحكم كونتيتي تور وباريس وقد سقط قتيلا في معركة بالقرب من تور في عام ٨٦٦م .
وللمزيد عنه راجع :
Lot F : Naissance de France , Paris , 1946 .

منح فولك ابنه جيوفري حكم أنجو ، وفي عام ١١٥١م. فتح جيوفري نورمانديا وضمها إلي أنجو ، وبعد موته في نفس العام ، ورث إبنه هنري الثاني حكم أنجو ، ونورمانديا ، ومين ، وتورين ، كما ورث حقوق والدته في عرش انجلترا ، وفي عام ١١٥٤ أصبح ملكا لانجلترا ، مؤسسا بذلك أسرة البلانتاجنيت التي منحت انجلترا تقاليدها وخصائصها المميزة ، واستمرت تحكمها حتي عام ١٤٨٥م [١] ، وقد اهتم هنري الثاني بكونتية أنجو وأسس قواعد البناء الاجتماعي والاداري بها .

علي أن أنجو لم تلبث أن خرجت من يد ملوك انجلترا ، وانتقلت ملكيتها إلي ملوك فرنسا ، وذلك بعد أن فتحها في عام ١٢٠٦م. فيليب الثاني أغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣ م.) ، وضمها لممتلكاته ، ورغم ذلك فقد ظلت تنظيماتها كما هي من قبل ، واسند حكمها إلي وكيل ملكي ، وقد ظلت أنجو في يد الأسرة الحاكمة الفرنسية ، حتي آلت ملكيتها في عام ١٢٤٧م. إلي شارل الذي أسس الأسرة الحاكمة الانجوية الثانية [٢] .

وقد اتخذ شارل مقره في بروفانس ، وأخذ في التوسع علي حساب جيرانه ، فتدخل في الحرب الأهلية في اقليم الفلاندرز ، وعن طريق مساعدته للكونتيسة مارجريت في حربها ضد ابنها حنا افسنس John of Avesnes تسلم شارل

(١) عن كل ما يتعلق بأسرة البلانتاجنيت وحكمها لانجلترا راجع :

Harvey J. : The Plantagenets , U. K. 1979 , PP. 35 - 205 .

(١) بخصوص كونتية انجو راجع :

Boussard J. : L'Anjou , in Fautier ed. , Histoire des institutions Française au Moyan Age , Vol 1,1957 .

Giullot O. : Le Comte d'Anjou et Son entourage au XIe Siécle , Paris , 1972.

Halphen L. : Le Comté d'Anjou au XIe Siécle , Paris, 1906 .

Lwis P. : Later Medieval France , Paris , 1968 .

كونتية هينولت Hainault ، واضطلع بمهمة حارس الفلاندرز ، وتدفقت قواته علي الكونتية ، الأمر الذي أغضب شقيقه الملك لويس التاسع غضبا شديدا ، فأمر شارل بترك هينولت ، وحكم سنة ١٢٥٦م أن تعطي الفلاندرز إلي حنا أفسنس (١)، وهكذا قضي علي آمال شارل في اقليم الفلاندرز ، وظل الملك لويس التاسع يشعر بتأنيب الضمير لموقفه من شارل وابعاده عن هينولت والفلاندرز ، حتي عوضه عن ذلك بتأييد ترشيحه لعرش الصقليتين ، كما سنري فيما بعد .

واذا كان شارل قد فشل في تحقيق طموحاته في اقليم الفلاندرز فإن ذلك لم يثنه عن التوسع في اتجاه آخر ، وفي عام ١٢٥٧ م اكتسب حقوق السيادة علي بعض اللوردات في سهول الألب ، كذلك اكتسب من ريموند كونت اورانج Orange حقوق الوصاية علي مملكة آرل Arles ، وفي عام ١٢٥٨م ، اعترف كونت فينتيمجليا Ventimiglia ، الذي يعتبر فصلا لجمهورية جنوا بشارل كسيد له ، وهكذا فرض شارل نفوذه علي طول الساحل الايطالي حتي سان ريمو San Remo ، وفي عام ١٢٥٩ م ، وبطريق الرشاوي والدهاء والوعود والتهديد العسكري نجح شارل في فرض سيادته علي العديد من المدن في مقاطعة بيدمونت Piedmont في شمال غرب ايطاليا . وفي العام التالي ١٢٦٠م ، استطاع شارل أم يخضع لوردات موندوفي Mondovi وسيفا Seva ، وسالوزو Saluzzo ، وبذلك أحكم سيطرته علي المقاطعة بكاملها (٢) .

ولم تلبث الظروف أن هيأت لشارل دانجو أن يقفز إلي عرش الصقليتين ، والواقع أنه في البداية لم يسع للحصول علي هذا العرش ، وانما البابوية هي التي سعت إلي ذلك ولم يكن هو بالشخص الذي يرفض مثل هذه الفرصة ،

(1) Leonard : Op. cit , PP. 48 - 49 .
(2) Leonard : Op. cit , PP. 50 - 51 .

التي وجد فيها تحقيقا لآماله وأحلامه وطموحاته العريضة في الحكم والسيطرة وتفصيل ذلك أن البابوية كانت تريد القضاء علي عائلة الهوهنستاوفن في صقلية وايطاليا ، نظرا للعداء الشديد الذي اتسمت به العلاقات بين الطرفين منذ زمن بعيد ، والذي بلغ ذروته أثناء حياة الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠م) .

وبعد وفاة الامبراطور فردريك الثاني في ١٢٥٠ م ، خلفه ابنه كونراد الرابع ، الذي انجبه من زوجته إيزابيلا ابنة حنا دي برين وريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، في حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لكن كونراد الرابع لم يستطع أن يصمد في وجه المعارضة في ألمانيا ، فغادرها إلي صقلية ، وحكم بها عامين فقط (١٢٥٢ - ١٢٥٤ م) بمساعدة أخيه غير الشقيق مانفريد الذي انجبه فردريك من زوجته الايطالية بيانكا لانسيا التي تنتمي إلي عائلة لانسيا الشهيرة ذات النفوذ والاقطاعات الشاسعة في اقليم كالابريا في جنوب ايطاليا . وعند وفاة كونراد الرابع في ١٢٥٤م . آل حكم الصقليتين وألمانيا الذي اقتصر علي مقاطعة سوابيا Swabia إلي ابن كونراد الرابع وهو كونراد الخامس الذي عرف باسم كونرادين Conradin وهو تصغير اسم كونراد ، وقد أطلق عليه المعاصرون اسم (النسر الصغير) أو (الأسد الصغير). وكان كونرادين قد توج ملكا علي الصقليتين في بالرمو عاصمة صقلية في عام ١٢٥٤م . وعمره آنذاك لا يتعدي العامين فقط ، وعاش كونرادين في مقاطعة بافاريا في ألمانيا تحت رعاية والدته اليزابيث ، التي كانت أسرتها تحكم بافاريا ، وتزوجت اليزابيث هذه من الكونت مينارد Mainard كونت جويزيا Count of Garizia ، فاستغل عمه مانفريد ذلك وبُعد كونرادين عن الصقليتين وأعلن نفسه ملكا علي الصقليتين في عام ١٢٥٨م ، بمساعدة بارونات المملكة

وانصاره بها (١) .

وفي نفي الوقت استأنف مانفريد الصراع مع البابوية من جديد فقد كان يهدف إلي توحيد ايطاليا وأحكام السيطرة علي الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واقامة سيادة في الشرق عن طريق فتح بلاد البلقان والاستيلاء علي القسطنطينية (٢) . كما عرف عن مانفريد ما عرف عن والده فردريك الثاني من عدم الايمان واثارة المشاكل مع البابوية ، وقد أحرز مانفريد انتصارات كبيرة ، وامتد نفوذه إلي جانب الصقليتين في توسكانيا ، وكان متحالفا مع أقوي الشخصيات في لمبارديا في شمال ايطاليا ، وهو اللورد بيلافيسيني Pelavicini ، وامتد نفوذه أيضا إلي ماركية انكونا Ancona التابعة للبابوية ، وكانت العلاقات الطيبة تربطه بجمهوريتي البندقية وجنوه ، كما استمر حكام تونس المسلمين يدفعون له الجزية السنوية التي كانوا يدفعونها لوالده فردريك الثاني ، وارتبط مع أمير أبيروس برابطة المصاهرة ، فتزوج ابنته هيلين ، كما زوّج مانفريد ابنته كونستانس من بطرس الثالث وريث عرش ارغونة (٣) .

وهكذا أخذ مانفريد في توطيد نفوذه والعمل علي تكوين امبراطورية واسعة ،

(1) Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen , innsbruck , 1894 , P. 21 .

(٢) عن طموحات مانفريد وخططه تجاه شرق اوروبا راجع :

Gregoras : Historiae Byzantinae , ed. Webri , Bonn , 1829 , P. 72 .
Buchon J. : Recherches historiques sur la principauté française de Morcé , et ces Hautes Baronnies , vol 1 , Paris , 1845 , PP. 103 - 104 .

اسمت غنيم : معركة بلاجونيا ونهاية الصراع بين نيقية وإبيروس حول القسطنطينية ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ص ١٢ - ١٥ .

(3) Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 in C. Med . H. ed. Tanner , vol VI P. 184 .

وهذا ما أزعج البابوية وجعلها تعمل علي تدميره والقضاء عليه .

فقد أخذ البابا الاسكندر الرابع Alexander (١) ، الذي تولي كرسي البابوية في الفترة من ١٢٥٤ - ١٢٦١م ، في البحث عن شخص ينتمي إلي عائلة من العائلات المالكة في اوروبا ليحل محل مانفريد ملكا علي الصقليتين ، فاتجه البابا إلي ملك انجلترا هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، وتم ترشيح إبنه الأصغر الأمير ادموند Edmund لهذا المنصب . وبعد مفاوضات واتصالات بين البابا والملك هنري الثالث وبارونات انجلترا ، جري رفض هذه الفكرة واصدر البابا الاسكندر الرابع مرسوما في ١٨ ديسمبر ١٢٥٨ م الغي فيه هذا الترشيح ، اما الأمير ادموند، فقد فضل أن يكون ايرل لانكستر Earl of Lancaster علي أن يكون ملكا للصقليتين(٢) .

ولم يلبث البابا الاسكندر الرابع ان توفي في ١٢٦٤م . وخلفه البابا ايربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م.) الذي كان من أصل فرنسي ، واستأنف نفس سياسة البابوات السابقين ضد أسرة الهوهنستاوفن ومانفريد علي وجه الخصوص ، ولم يكن

---

(١) الاسم الحقيقي للبابا الاسكندر الرابع هو رينولد اوف سيجني Raynald of Segni ، وهو ينتمي إلي عائلة رومانية عريقة كانت تحكم كونتية سيجني ، وتولي منصب كاردينال اوستيا Ostia، وفي عام ١٢٥٨م . عندما اشتد نفوذ حزب الجبلين الموالي للملكية في ايطاليا ، داخل روما نفسها ، فر البابا الاسكندر الي فيتربو واتخذها مقرا له .

راجع :

Barraclough G : The Medieval Papacy , London , 1975 , PP. 137 - 140 .

(٢) عن تفاصيل المفاوضات التي حدثت بين البابا الاسكندر الرابع والملك هنري الثالث وبارونات انجلترا بخصوص ترشيح الأمير ادموند لعرش الصقليتين راجع :

Powicke F. : King Henry III and The Lord Edward , vol I , Oxford , 1947 , PP. 370 - 387 .

أمام البابا ايربان الرابع إلا الاتجاه صوب الأسرة الحاكمة في فرنسا للبحث عن مرشح يحل محل مانفريد ، ذلك ان المفاوضات مع انجلترا بهذا الخصوص باءت بالفشل ، ولم يكن من الممكن أن يتجه البابا صوب ألمانيا للبحث عن مرشح ضد مانفريد ، فلم يكن هناك امبراطور علي عرش المانيا في ذلك الوقت ، كما أن كونرادين صاحب الحق الشرعي في الصقليتين كان يحكم مقاطعة سوابيا وعائلة والدته كانت تحكم بافاريا ، وكان كونرادين هو حفيد فردريك الثاني أي من نفس عائلة الهوهنستاوفن ، وكان يطالب بحقه في حكم الصقليتين . اما في أسبانيا فقد كان الملك جيمس الأول ملك أرغونة علي أتم الاستعداد لتولي عرش الصقليتين ، لكن البابا كان لديه من الاسباب ما يحول دون الموافقة عليه ، لان جيمس كان في حالة تحالف مع مانفريد ، ونتيجة لهذا التحالف تزوجت كونستانس ابنة مانفريد من بطرس الثالث ابن جيمس . اما ملك قشتاله ألفونسو العاشر Alfonso X (١٢٥٢ – ١٢٨٤م) فقد كان مغضوبا عليه هو الآخر من جانب البابا نظرا لعلاقات الود والصداقة التي ربطت الفونسو بحزب الجبلين Ghibellines [1] ، في شمال أيطاليا ، وهو الحزب الملكي المعارض للبابوية .

وهكذا لم يعد أمام البابا ايربان الرابع سوي أن يتجه نحو فرنسا وملكها لويس التاسع ، فارسل اليه في باريس في ربيع عام ١٢٦٢ مندوبا عنه هو البرت بارما Albert Parma ، الذي أوضح للملك لويس رغبة البابا في تقليد عرش مملكة الصقليتين لأمير من أسرته . غير أن الملك لويس رفض أن يتقلد هو أو أحد

(١) عن هذا الحزب ونشأته وميوله راجع :

Buchler J : Die Hohenstaufen , 1995 .

Hyde : Society and Politics in Medieval Italy , 1973 .

اسمت غنيم : زواج التحالف في العصور الوسطي ، الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ٤٧ ، حاشية رقم ٢ .

ابنائه هذا العرش ، وانما وافق علي اقتراح بارما ان يتولاه شقيقه الأصغر شارل كونت أنجو ، وبينما كان بارما يستعد للتوجه إلي بروفانس حيث مقر شارل ، وصل إلي باريس رسول من البابا إلي بارما يأمره بتأجيل بحث هذا الموضوع [1] . أما عن الأسباب التي دفعت البابا لذلك فهي خاصة بالمفاوضات التي بدأت بينه وبين مانفريد ، بعد أن أرسل مانفريد سفارة إلي البابا معلنا استعداده للحضور إلي مقره في فيتربو Viterbo [2] من أجل التفاوض ، وقد وصلت سفارة مانفريد إلي البابا في أوائل نوفمبر ١٢٦٢م وبقيت في المقر البابوي حتي نهاية نوفمبر ، ثم أعادها البابا إلي مانفريد حاملة شروطا محددة منها : الاعتراف بحق مانفريد وخلفائه في مملكة الصقليتين دون النظر لادعاءات كونرادين ، علي أن يدفع مانفريد مبلغا كبيرا من المال للبابوية ، بالاضافة إلي الجزية السنوية ، وقد اشترط البابا

(1) Jordan : Les Origines de la Domination Angevine , PP. 374 - 378 .

(٢) تقع فيتربو في جنوب اقليم توسكانيا ، شمال غرب روما ، وهي مدينة رومانية قديمة ، وقد كانت تتبع الكونتيسه ماتيلدا صاحبة توسكانيا ، ولكنها منحتها للبابوية وقفا لصالح كنيسة القديس بطرس في ١١١٥م . وقد امتازت المدينة بالجو المعتدل والمناظر الطبيعية الخلابة ، واتخذتها البابوية العاصمة الثانية لها بعد روما والمقر الصيفي للبابوات في القرن الثالث عشر الميلادي . وفي عام ١١٤٥م . بعد أن اختار أهالي روما مجلسا للشيوخ (سناتو) من بينهم ، غضب البابا ايو جينيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣ م.) ونقل كرسي البابوية والمقر الدائم إلي فيتربو ، وأثناء الصراع بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة ، عانت المدينة من الحوادث الدامية العديدة ، كما كانت مسرحا للمقابلة التي تمت بين الامبراطور اوتو الرابع Otto IV والبابا اينوسنت الثالث في عام ١٢٠٩م . ومع استمرار اقامة البابوات في فيتربو ، اقيمت مباني عديدة من القصور والكنائس ، وقد تم انتخاب عدد من البابوات في فيتربو منهم ايربان الرابع و جريجوري العاشر ، ويوحنا الحادي والعشرين ونيقولا الثالث ، ومارتن الرابع ، وقد مات بها كل من البابوات الاسكندر الرابع وكليمنت الرابع وادريان الخامس ويوحنا الحادي والعشرين . عن فيتربو وتاريخها راجع :

Signorelli G. : Viterbo nella Storia della chiesa , 2 vols , 1907 - 1940 .

كذلك شرطا كان من المستحيل علي مانفريد تحقيقه ، وهو أن يسمح للمعارضين السياسيين الذين سبق ان نفاهم من مملكته بالعودة اليها مرة أخري ، وأن يعيد اليهم أراضيهم التي سبق أن صادرها(١) . وطبيعي أن يرفض مانفريد هذا المطلب ، لان معني موافقته علي عودة المعارضين لحكمه إثارة المشاكل والاضطرابات السياسية في أنحاء مملكته ، والارجح أن البابا كان يهدف فعلا إلي هذا حتي يشغل بهم مانفريد عن الفتح والغزو ومضايقة البابوية ، وحتي لو وافق مانفريد علي هذا الشرط فان مستشاريه ورجاله الذين منحهم مانفريد هذه الأراضي بعد مصادرتها لن يوافقوا علي التفريط فيها واعادتها لأعدائهم . وقد رفض مانفريد ورجاله شروط البابا ، وفكروا في عرض شروط جديدة علي البابا ايربان الرابع الذي لم ينتظر وأرسل إلي مندوبه في باريس البرت بارما يكمل مفاوضاته مع شارل دانجو (٢) .

مالبث شارل وشقيقه الفونسو كونت بواتييه أن زارا باريس واجتمعا مع شقيقهما الأكبر القديس لويس ، وبحث الجميع موضوع الحملة الصليبية الجديدة التي أزمع لويس القيام بها ضد المسلمين ، كما بحثوا أيضا موضوع ترشيح البابوية لشارل لتولي عرش الصقليتين . وبعد تبادل الرسل والزيارات في اورفيتو Orvieto (٣) حيث كان البابا ايربان الرابع موجودا ، وباريس ، وبروفانس حيث مقر شارل ، وافق الجميع علي مشروع الاتفاقية بين شارل والبابا ، ووقع البابا

(1) Jordan Op. cit , P. 389 - 495 .

(2) Jordan : Les Origines , PP. 389 - 401 .

(٣) اورفيتو ، مدينة في وسط ايطاليا ، بين روما وفلورنسا ، وتقع إلي الشمال من فيتربو ، وفي ٥٨٨م أصبحت دوقية لومباردية ، وبعد فتح شارلمان لايطاليا أصبحت كونتية في ٧٧٣م . ومنذ القرن التاسع أصبح الكونتات بها يخضعون لحكام توسكانيا ، لكنها حصلت علي استقلالها بعد موت الكونتيسة ماتيلدا في ١١١٥م . وأصبحت قومونا مستقلا حتي ١٤٤٨م حينما ضمت إلي الممتلكات البابوية ، وقد اشتهرت بكاتدرائيتها التي بنيت فيما بين ١٢٩٠ - ١٣٧٠ ، علي طراز فن المعمار القوطي الايطالي المتأخر ، راجع : =

ايربان الرابع في ٢٦ يونيو ١٢٦٣ مرسوما بموافقته علي هذه الاتفاا
الاتفاقية عند نهاية يوليو ١٢٦٣م سارية المفعول ، وأصبح شارل د
الكنيسة المنتظر [1] .

ويجد الدارس لشروط هذه الاتفاقية انها كانت في صالح البا
كانت في صالح شارل ، فقد نصت علي مايلي :

١- تخلي الملك الجديد للصقليتين عن المركز الذي كان للحكا
حيث أنه ممثل البابا Apostolic Delegate في مملكته .

٢- لا يكون له أي رأي فيما يتعلق بشغل المناصب الشاغرة في
السلطة القضائية الكنسية .

٣- ليس من حقه أن يجبي أية ضرائب من رجال الد
يمارس الحق التقليدي للملوك في التمتع بايراداد
الشاغرة .

٤- لا يسمح له بتقلد أي منصب في ايطاليا ، سواء في الو
للملكية أو التابعة للبابوية .

٥- لا يسمح له بمصادرة كل أو جزء من أي اقطاع أخذته الكنيد
أو التقليل من قيمته بأية طريقة .

٦- يجب أن يتأكد من وجود ادارة جيدة في المملكة ، مد
كانت موجودة أيام الملك وليم الثاني النورماني ، كما

Society and Politics in Medieval Italy , 1973 .
Op. cit , PP. 392 - 401 .

يفرض علي رعاياه ضرائب مبالغ فيها .

٧- اذا أختار البابا الاستغناء عنه ، فلا يجب ان يطلب مساعدة أفصاله ضد البابا .

٨- يجب أن يمد البابا بثلاثمائة فارس أو عدد من السفن عندما يطلبها .

٩- يجب عليه ان يدفع جزية سنوية للبابوية تقدر بعشرة آلاف أونصه من الذهب .

وفي المقابل أسبغت عليه البابوية حمايتها وسمحت له أن يجبي ضريبة العُشر لمدة ثلاث سنوات من كنائس فرنسا وبروفانس وآرل . كما أخذ البابا علي عاتقه شن حملة صليبية ضد مانفريد ، كما وعد بالا يسمح لكونرادين أو أي شخص أخر ، بالمطالبة بعرش الصقليتين (١) .

وواضح مدي صعوبة وقسوة هذه الشروط ، فالملك الذي اختارته البابوية يجب أن يبتعد تماما عن الشئون الدينية في مملكته ، كما أنه ليس من حقه أن يتقلد أي منصب علماني أيضا مهما كان صغيرا داخل ايطاليا ، واذا أراد البابا أن يستغني عنه أو أن يستبدله بآخر فليس من حقه أن يعترض ، كل ما عليه أن ينفذ رغبة البابا ، كما أن الجزية السنوية التي فرضتها عليه البابوية والتي تقدر بعشرة آلاف أونصة من الذهب سنويا ، تفوق ثلاثين مرة ما كان يدفعه ملوك النورمان للبابوية. ورغم هذا فقد قبلها شارل، ويرجع المؤرخ الايطالي المعاصر

(١) فيما يتعلق بالاتفاقية بين البابا وشارل دانجو راجع :
Jordan : Les Origine de la Domination Angevine en Italy , Paris 1909 , PP. 20 - 26 .

فيلاني [١] Villani أن شارل اضطر لقبول هذه الشروط المجحفة نظرا لحث زوجته له علي قبولها نظرا لانها كانت تشعر بالغيرة من شقيقاتها اللاتي تزوجن ملوك ، مثل ملك فرنسا ، وملك انجلترا ، وملك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد ارادت هي الاخري أن تصبح ملكة مثلها مثل شقيقاتها [٢] .

غير أن الدارس لشخصية شارل ، يجد أنه ليس بالشخص الضعيف الذي يخضع لرغبات زوجته ،وان أحلامه وطموحاته الشخصية فاقت بكثير أحلام زوجته وطموحاتها ، وقد أجمع المؤرخون المعاصرون والقريبو العهد من عصره ، سواء في الغرب مثل فيلاني وسانيودو [٣] ، أو في الشرق مثل

(١) جيوفاني فيلاني Giovanni Villani ، كاتب حوليات عاش في الفترة من ١٢٧٥ - ١٣٤٨م. وهو ينتمي إلي عائلة بورجوازية من كبار تجار فلورنسا ، وقد أخذ فيلاني ينتقل بين ايطاليا وفرنسا في الفترة ١٣٠٤ - ١٣١٢م. وعند عودته لفلورنسا عمل كقائد عسكري ومشرف علي تحصيناتها ، وكان معروفا بميوله نحو البابوية وكان أحد أعضاء حزب الجلف الموالي لها ، وكتب حوليات Cronica غطي فيها تاريخ فلورنسا وخاصة الحوادث التاريخية التي عاصرها ، وأسلوبه واضح بسيط ، استطاع به أن يقدم معلومات غزيرة بموضوعية محسوسة وعقلية محبة للبحث والتحقيق ، وقد توفي أثناء وباء الطاعون الذي اجتاح ايطاليا في عام ١٣٤٨ ، راجع :

The Illustrated Encyclopedia of Medieval civilization , U. S. A. 1980 , P. 700 .

(2) Villani : Cronica , Florance , 1823 , vol 11 , PP. 129 - 130 .

(٣) هو المؤرخ الايطالي مارينو سانيودو تورسيللو Marino Sanudo Torsello ، من مواليد البندقية ، عاش خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وله عدة مؤلفات أهمها لموضوع هذا البحث هو كتابه (تاريخ مملكة رومانيا) Istoria dell Regno di Romania ، والمقصود برومانيا ، كما هو معروف ، الامبراطورية البيزنطية ، وقد كتبه سانيودو باللغة اللاتينية لكن لم يصل إلي أيدي المؤرخين إلا الترجمة الايطالية لهذا الكتاب . ويرجع كل من =

جريجوراس [١] . ، علي أن طموحه واحلامه لم تكن تقف عند حد معين ، وانه كان يحلم بتكوين امبراطورية تضم البلاد المطلة علي البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب علي حد سواء ، وأنه كان يعمل بكل الهمة والنشاط ، وبكل العنف ونفاذ الصبر ، علي تحقيق أحلامه في السيادة والفتح [٢] . لذلك فقد قبل شارل شروط البابا لان بمقدوره فيما بعد ، أن يحولها لخدمة مصالحه واهدافه الشخصية .

وهنا يبرز تساؤل هو ، مع معرفة الجميع بصفات شارل هذه وطموحه ، ألم يعتري الخوف البابا اربان الرابع من مثل شخصية شارل دانجو ومدي خطرها علي

= المؤرخين وولف Wolff وجياناكوبلوس Geanakoplos ، ان الأصل اللاتيني قد فُقد ، وترجع أهمية هذا الكتاب الذي كتبه سانيودو في الفترة المبكرة من القرن الرابع عشر إلي أنه كان شاهد عيان لمعظم الحوادث التي ضمنها كتابه ، كذلك اعتمد فيه علي تقارير ووثائق رسمية ، كانت موجوده في عصره واندثرت الآن ، ولسانيودو مؤلفان أخران أحدهما مجد فيه الحروب الصليبية ويعرف باسم Secreta Fidelium Crucis وعرف عن سانيودو انه من أشد المعجبين بتاريخ الحروب الصليبية . أما العمل الثالث لسانيودو فهو الرسائل المتبادلة بينه وبين الامبراطور اندرونيقوس الثاني باليولوجوس (١٢٨٢ - ١٣٢٨م.) وعرفت باسم Epistulae ، وللمزيد عن سانيودو ومؤلفاته راجع :

Wolff : Studies in the Latins Empire of Constantinaple , London , 1976 . Ch. v, P. 45 ff .

Geanakuplos : The Emperor Michael Paleaologus and the west , U. S. A. ,1959 , P. 9 , P. 395 .

(١) هو المؤرخ البيزنطي نقفور جريجوراس عاش في الفترة من ١٢٩٥ - ١٣٥٩م. وللمزيد عنه راجع : اسمت غنيم : امبراطورية في المنفي ، ثيودور لاسكاريس وأحياء الامبراطورية البيزنطية في نيقية ، ص ١٨٩ .

(2) Villani : Cronica , val 1 , P. 320 .

Sanudo : I Storia Regno di Romania , in Hapf , Chroniques Créco - Romanes, Berlin , 1873 , P. 138 .

Gregras : Historiae Byzaminae , ed. Webri , Bonn , 1829 , in C, S. H. B. P. 123 .

البابوية نفسها فيما بعد ؟

الارجح ان البابا ايربان الرابع قد وضع هذه الشروط القاس
شارل سوف يلتزم بها وينفذها بكل الدقة ، وبذلك يحمي البابوية نا
شارل ، في الوقت الذي وضع فيه البابا نصب عينيه القضاء علي
وأسرة الهوهنستاوفن في ايطاليا ، ولم يكن مانفريد بالشخص الهين
لذلك بحثت البابوية عن شخصية قوية لها امكانات مادية وعسكرية كب
القضاء علي مانفريد ، فوجدت في شارل دانجو الرجل المناسب لل
المهمة ، خاصة وان شقيقه الملك لويس ملك فرنسا يمكن أن يسانده به
من امكانات ، بعد ان اقتنع الملك لويس بحكم ورعه وتقواه ان مانفر
داهما علي المسيحية وعلي البابوية ، وربما كانت مساندة لويس لشة
الوصول لعرش الصقليتين أيضا هو نوع من التكفير عن الذنب ، فقد ك
لشارل أقل من حبه لباقي أشقائه ، كما سبق ان أشرنا ، كما أن زوج
مارجريت كانت تكن الكراهية لشارل بصفة خاصة لأنه حرمها مز
مقاطعة بروفانس بزواجه من شقيقتها ، وكانت دائمة التحريض لزوج
شقيقه شارل ، يضاف لذلك موقف الملك لويس من فتوحات شا
الفلاندرز ، وما حدث من اجباره علي ترك هينولت والانسحاب من الاقلي
لويس تعويض شارل وتأييده ومساندته في الوصول لعرش الصقليتين ،
ما أسعد البابوية وجعل كفة شارل ترجح لدي البابا ايربان الرابع الذي
كما سبق أن أوضحنا ، وكان منحازا لأبناء وطنه .

ولم يمض وقت طويل حتي اكتشفت البابوية أي نوع
اختارته للدفاع عنها ، اذ سرعان ما نقض شارل ، وقبل اكته
شروط المعاهدة التي وقعت بينه وبين البابا ايربان الرابع (في يول

0 50 100 150 Miles
0 50 100 150 200 250 Km.

The Latin Empire and its fiefs c. 1214
Venetian possessions (and thus: Modon)
The Bulgarian Empire before 1230
Acquisitions of John II Asen (1218–41)
The Empire of Thessalonica and Despotate of Epirus c. 1230
Acquisitions of John III Vatatzes (1222–54)

Map 8. The Latins and the Byzantine Empire.



ذلك بقبوله منصب سناتور روما .

فقد وقع صراع عنيف علي حكم روما ، التي لم يكن البابا ايربان الرابع يقيم بها ، والتي عين لها هيئة من الرجال الصالحين Boni Homenes ليحكموها ويقومون فيها بأعباء الادارة ، إلا أنهم لم يكونوا أكفاء لادارة المدينة ، في الوقت الذي قام فيها صراع بين حزب الجبلين الموالي للملكية وأسرة الهوهنستاوفن ، وحزب الجلف Guelf [١] الذي يدين بالولاء والتأييد للبابوية . فاقترح حزب الجبلين علي مانفريد قبول تنصيبه سناتور علي روما ، ورتب زوج ابنته بطرس الثالث زيارة لروما بدعوي الحج ، ولكنه في واقع الأمر كان يقوم بالدعاية لصهره مانفريد ويقدم نفسه هو لهذا المنصب كمرشح بديل لمانفريد.غير أن هذه الخطة قوبلت بالمقاومة من جانب الكاردينال ريتشارد انيبالدي Richard Annibaldi الذي كان موجودا بالمدينة وقام باقناع حزب الجلف بالرد علي ذلك باختيار سناتور قوي يكون مخلصا لهم ، وبناء علي اقتراحه رشحوا لمنصب سناتور روما شارل دانجو ، الذي وافق علي قبوله[٢] . وهكذا ضرب شارل عرض الحائط باتفاقيته مع البابا التي نصت علي عدم السماح له بتقلد أي منصب في ايطاليا سواء في الولايات التابعة للملكية أو تلك التي تكون تابعة للبابوية . وهكذا أوقع البابا ايربان في ورطه ، خاصة بعد أن أعلن عدد من الكرادله ضرورة عقاب شارل علي تحديه للبابوية وعدم احترامه لشروط اتفاقيته مع البابا . لكن البابا ايربان الرابع استسلم للأمر الواقع ووافق علي تعيين شارل سناتور لروما بصفة مؤقتة ، وذلك لسببين ، الأول : هو رغبته في عدم معارضة اقتراح الكاردينال انيبالدي واهانة من يؤيدونه في روما من حزب الجلف ، والسبب

(١) عن حزب الجلف راجع :
اسمت غنيم : زواج التحالف ، ص ٥٢ حاشية رقم ٢ .

(2) Jordan : Les Origines , PP. 458 - 460 .

الآخر: هو تصميم مانفريد علي فتح مدينة لوقا Lucca وهي المدينة التابعة لحزب الجلف في توسكانيا ، وكانت الوحيدة التي لم تستسلم لمانفريد في هذا الاقليم ، لذلك فقد حاصرها مانفريد وأجبرها علي الاستسلام ، فأحكم سيطرته علي وسط ايطاليا خلال الشهور الأولي من عام ١٢٦٤ ، مما اضطر البابا للموافقة علي تعيين شارل سناتور علي روما بعد أن وجد نفسه محاصرا من جانب مانفريد (١) .

ولم يلبث البابا ايربان الرابع ان توفي في مدينة بروجيا Perugia في ٢ أكتوبر ١٢٦٤م. وتم انتخاب خليفة له كاردينال سابينا Sabina ، الذي اعتلي كرسي البابوية في ١٥ فبراير تحت اسم كليمنت الرابع Clement IV (٢) .

وفي ٢٣ مايو ١٢٦٥ ، دخل شارل دانجو روما ، واتخذ له مقرا بها في قصر السناتور في الكابيتول Capitol ، وعندما علم مانفريد بذلك صاح قائلا : " لقد دخل الطائر القفص " ، واعتقد ان الأمر لن يحتاج لأكثر من حملة صغيرة يطوقه فيها ويجبره علي الاستسلام (٣) .

أما شارل فقد أرسل إلي زوجته الكونتيسة بياتريس في فرنسا لكي تلحق به

(1) Jordan . Op. cit , PP. 460 - 468 .

(٢) الاسم الحقيقي للبابا كليمنت الرابع هو جي فولكوا Guy Foulquoi ، وهو ينتمي إلي عائلة فرنسية من النبلاء ، وقد درس القانون في باريس ، وخدم في تولوز تحت سلطة الفونس دي بواتييه الذي قدمه لشقيقه الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد اتخذه لويس مستشارا له ، ثم عين كاردينالا لاسقفية سابينا ، في وسط ايطاليا ، حتي تم انتخابه بابا وظل في هذا المنصب من ١٢٦٥ حتي وفاته في ١٢٦٨ ، للمزيد عنه راجع :

Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 , in C. Med. H. vol VI , P. 183 .

Jordain : les Registres de Clement IV , Paris , 1945 .

Barraclough G. The Medieval Papacy , U. K. , 1955 , PP. 118 - 140 .

(3) Jordan : Les Origines , PP. 524 - 526 .

في روما ، فجاءت بالفعل في ديسمبر من نفس العام ، وطلب شارل من البابا ان يحضر اليه في روما لكي يتوجه هو وزوجته ملكا وملكة علي عرش الصقليتين ، لكن البابا كليمنت لم يرغب في ان يترك مقره في بروجيا ، ولذلك ارسل خمسة كرادلة ليحلوا محله وقاموا بمراسم التتويج في كنيسة القديس بطرس في ٦ يناير ١٢٦٦ ، وأصبح شارل دانجو ملكا علي الصقليتين [(١)] .

وهكذا أصبح هناك أكثر من ملك علي عرش الصقليتين مانفريد هوهنستاوفن وزوجته هيلين اوف ابيروس ، وآل إلي مانفريد العرش بالميراث ، وشارل دانجو وزوجته بياتريس اوف بروفانس ، وانتقل العرش إلي شارل عن طريق اختيار البابوية، وكان لابد من معركة عسكرية يقضي فيها أحدهما علي الآخر وينفرد بالعرش .

ولم يرغب شارل في أن يمكث طويلا في روما ، لكي يتمكن من أن ينهي موضوع مانفريد بأسرع ما يمكن ، حتي يتفرغ بعد ذلك لتحقيق طموحاته في الفتح والغزو ، فترك في روما حامية صغيرة وخرج منها بكامل قواته في ٢٠ يناير وسار بجيشه علي طريق Via latina ووصل إلي سبرانو Ceprano علي نهر ليري Liri في جنوب ايطاليا ، وقد عبرت قوات شارل النهر عن طريق جسر مقام عليه كان مهملا لكنه أوفي بالغرض ، وعسكر في حصن كابوا Capua شمال نابولي ، وكان شارل قد فكر في حماية قاعدته في نابولي ، بوضع خطة للاستيلاء علي الحصون الواقعة علي طول نهر فولتورنو [(٢)] Volturno ، وبالفعل تمكن جيشه من

(1) Villani : Cronica , vol 11 , PP. 142 - 143 .

(٢) نهر فولتورنو هو النهر الرئيسي في جنوب ايطاليا ، وهو ينبع في اقليم Apennien جنوب شرق روما ، ويجري أولا في اتجاه الجنوب ثم ينحرف إلي الغرب بمسافة ١٧٥ كم ليصل إلي خليج Gaeta علي البحر التيراني ، وهو يبعد عن نابولي بنحو ٣٥ كم إلي الشمال ، راجع:
Lexicon Universal Encyclopedia , U. S. A. 1980 , v0l 19 , P. 632 .

الاستيلاء علي اثنتين وثلاثين قلعة وحصناً كان من بينها الحصن الكبير سان جيرمانو San Germano علي تل كاسينو Cassino الذي سقط في يد شارل في ١٠ فبراير ١٢٦٦ . وفي الوقت الذي عسكر فيه مانفريد بقواته في أعالي نهر فولتورنو وصل شارل بقواته إلي هناك محاولا تطويق قوات مانفريد وحصاره وحتي يضيع عليه مانفريد هذه الفرصة ، تحرك بقواته متجهاً نحو مدينة بنفنتو [1] Benvento فوصل اليها ووزع قواته حول المدينة ، وتبعه شارل إلي هناك فوصل بقواته إلي التل الذي يؤدي إلي مدينة بنفنتو في ٢٥ فبراير ١٢٦٦ م ولما رأي تشكيلات جيش مانفريد ، أصيب شارل بالاحباط خاصة بعد المجهود المضني الذي بذلته قواته أثناء عبورها التلال والجبال في فصل الشتاء حتي نفقت كثير من الحيوانات المستخدمة في جيشه ، وتركت كثير من العربات في الطرق غير الممهدة ،

(١) بنفنتو مدينة في اقليم كمبانيا Campania جنوب ايطاليا ، وقد دمرها القوط الشرقيين ، ولكن بعد عودة ايطاليا ليد الامبراطور جستنيان في ٥٥٤م. أعاد البيزنطيون بناءها ، وفي عام ٥٧٠م تعرضت المدينة لغزو اللومبارديين واتخذوها عاصمة لمتلكاتهم في جنوب ايطاليا ، ومنذ ذلك الحين وهي تعرف باسم دوقية بنفنتو ، وقد تمتع الادواق الذين حكموها بقدر كبير من الاستقلال وخاصة في القرن الثامن الميلادي ، وقد تمكن حكامها من صد محاولات البيزنطيين ثم المسلمين لغزو الدوقية كما ظلت مستقلة أيضا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد اضعفتها المعارك المستمرة التي خاضتها من أجل المحافظة علي استقلالها ، وانتهي الأمر بها في القرن الحادي عشر الميلادي إلي التقسيم إلي عدة مقاطعات قام النورمان بغزو معظمها وضمها إلي مملكتهم في صقلية ، أما مدينة بنفنتو ذاتها فقد ألحقت بالممتلكات البابوية في عام ١٠٥٤ م. وظلت كذلك حتي عام ١٨٦٠م. وقد ارتبطت بنفنتو بصلات اقتصادية وثيقة بمدينة نابولي وقد بنيت في بنفنتو كاتدرائية استغرق بنائها من القرن التاسع وحتي القرن الثاني عشر وكانت تعد تحفه فنية رائعة تعبر عن الفن المعماري الذي اشتهر في جنوب ايطاليا ، وقد دمرت هذه الكاتدرائية أثناء الحرب العالمية الثانية :

بخصوص ما يتعلق ببنفنتو راجع كتاب هيرتش عن (دوقية بنفنتو) :

Hirsch : I L ducato di Benevento , 1968 .

ونفذ الطعام ، وبدا وكأن مقولة مانفريد أن الطائر قد دخل القفص ، فيها جانب كبير من الحقيقة فعلا (1) .

وكان الموقف حتي ذلك الوقت في صالح مانفريد تماما فما كان عليه الا ان يصمد في موقعه المحصن في انتظار وصول ابن شقيقه كونرادين من المانيا بالامدادات ، حتي يجبر الجوع شارل وجيشه إما علي التراجع أو الاستسلام ، غير أن مانفريد كان نافذ الصبر لعدة أسباب منها : عدم ثقته في ولاء رعاياه من جهة ، وما أظهره العديد من رجاله من رغبة في الاستسلام لعدوه من جهة أخري ، كما أنه كان يشك في ان كثيراً من البارونات المحليين وخاصة من حزب الجبلين المؤيد للهوهنستاوفن في ايطاليا ، كانوا في حالة تردد في الولاء له من جهة ثالثة ، ويبدو أن ما بذلته البابوية من وعود براقة لإغراء هؤلاء بالتخلي عن مانفريد قد وجدت قبولا لديهم ، يضاف إلي كل ذلك ان مانفريد لم يكن واثقا من موعد وصول كونرادين علي وجه التحديد . لهذا فبمجرد أن تلقي مددا من ثمانمائة من الالمان المرتزقة بادر بالتحرك نحو شارل لمنازلته في معركة حاسمة ، في الوقت الذي كان شارل يتجه فيه من أعلي التل إلي السهول المحيطة بمدينة بنفنتو ، لذلك أسعده أن يري جيش مانفريد يتقدم ببطء لمقابلته .

وفي اليوم التالي أي يوم الجمعة الموافق ٢٦ فبراير ١٢٦٦ ، اشتبك الجيشان في معركة ضارية عرفت في التاريخ باسم معركة بنفنتو ، حيث كانت قوات مانفريد موزعه علي النحو التالي : في المقدمة كان المسلحون من رماة السهام ، وخلفهم الفرسان الالمان يرتدون دروعا صلبه ويبلغ عددهم حوالي ١٢٠٠ فارسا تحت قيادة ابن خال مانفريد ويدعي جيوردانو لانسيا Giordano Lancia ، وجلفانو اوف

(1) Leonard : Op. cit , PP. 57 - 58 .
Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages , vol I , PP. 498 - 499 .

انجلونا Galvano of Anglona ، وخلفهم وجد الفرسان الايطاليون من لمبارديا وتسكانيا ، وبلغ عددهم نحو ألف مقاتل تحت قيادة خاله جلفانو لانسيا Gelvano Lancia أمير سالرنو ، ورافقهم نحو ثلاثمائة فارس من المسلمين بأسلحتهم الخفيفة ، اما مانفريد نفسه فقد كان في الخلف علي رأس الجسر مع الفرق الاحتياطية وهي من فرسان المملكة من حزب الجبلين وهو الحزب المؤيد للهوهنستاوفن أي المؤيد للملكية وكانوا نحو ألف فارس ، ولم يكن مانفريد يثق فيهم ثقة كاملة ، ولهذا لم يكن يرغب في استخدامهم الا اذا أحرز النصر في المعركة .

كذلك كان يصاحبه شقيقا زوجته هيلين ابنة أمير ابيروس ، وهما ريتشارد كاسرتا Richard Count of Caserta ، وتوماس كونت اسيرا Thomas Count A Cerra وأيضا حاجبه ويدعي مانفريد ماليطا Manfred Maletta وصديقه الوفي تيبالدو انيبالدي Tebaldo Annibaldi الذي ظل ملازما لمانفريد حتي النهاية (١) .

كان هذا جيش مانفريد اما جيش شارل دانجو ، فقد كانت له بعض المزايا التي رجحت كفته فقد تحرك إلي أرض أكسبته تفوقا علي عدوه وكانت في صالحه تماما ، اذ انحدرت في رفق نحو النهر ، كما كان يثق في جيشه أكثر مما أظهره مانفريد تجاه رجاله . وقد قسم شارل جيشه هو الآخر إلي ثلاثة مجموعات من الفرسان ، كما صاحبتهم مجموعة كبيرة من المشاه من رماة النشاب التي أخذت مكانها في المقدمة ، أما المجموعة الأولي من الفرسان فكانت تتكون من نحو ٩٠٠ فارس من البروفنساليين تحت قيادة المارشال الفرنسي هيودي ميربوا Hugh de

(1) Villani : Cronica , vol 11 , PP. 147 - 150; Malaspina , Saba: Historia Sicula, Muratori R. I. SS (Rerum Italicarum Scriptores) vol VIII , PP. 825 - 828 .
Previté - Orton : Italy , PP. 185 - 186 .

Mirepoix ، وفيليب دي مونتفور Philip de Montfort ، وقاد شارل بنفسه المجموعة الثانية من الفرسان وتكونت من نحو ۱۰۰۰ فارس جاؤا من وسط فرنسا ، يصاحبهم نحو اربعمائة فارس من حزب الجلف تحت قيادة جي جويرا Guy Guerra من فلورنسا ، كما صاحب شارل اسقف اوكسير Bishop of Auxerre وكونت اوف فيندوم Count of Vendome ، أما الاحتياطي بالمؤخرة وهم الفرنسيون الشماليون والفلمنج ، فكانوا تحت قيادة روبرت اوف فلاندرز Robert of Flanders .

وقد بدأت المعركة بهجوم المشاه المسلمين في جيش مانفريد ضد المشاة الفرنسيين ، ثم بدأ الفرسان البروفنساليون يتدخلون في المعركة فكان رد الفعل السريع أن اقتحم الفرسان الالمان المعركة دون أن تصدر اليهم الأوامر بذلك ، مما دفع شارل أن يأمر بانزال الخط الثاني من قواته إلي ميدان المعركة ، ورغم ذلك فقد كان التفوق للفرسان الالمان وسيوفهم الطويلة ، الذين كانوا يرتدون دروعا صلبة لا تؤثر فيها خناجر الفرنسيين القصيرة (١) .

ولكن سرعان ما تدهور موقف مانفريد وجيشه وأصبح التفوق في جانب الجيش الفرنسي ، ذلك أن أحد الفرنسيين لاحظ أنه .عندما يرفع الألمان أذرعهم ليهاجموا فان ابطهم تكون مكشوفة دون حماية لأن الدروع لا تغطي هذا الجزء ، فصاح في زملائه بان يطعنوهم في هذا المكان فاندفع الفرنسيون في جموع مترابطة حتي أصبحوا في وسط الألمان ، فشلوا فعالية سيوفهم الطويلة ، وأصبح التفوق لخناجر الفرنسيين القصيرة النافذة .

---

(١) عن أسلوب كل من الفرنسيين والألمان في القتال راجع :

Cinnamus : Historiurum , ed . Bonn , C. S. H. B. , PP. 84 - 85 .

ورغم ذلك كان لا يزال هناك فرصة لكي يكسب مانفريد المعركة اذا أسرع بدفع الخط الثاني من فرسانه إلي ميدان المعركة ، ولكن هذا الخط الذي كان يتكون من الفرسان اللومبارديين والتوسكانيين بقيادة خاله جلفانو لانسيا ، كان عليه أن يعبر الجسر الضيق المتهالك وهو الجسر الوحيد فوق نهر فولتورنو ، فتأخر وصولهم لذلك وحينما عبروا وصدرت اليهم الاوامر بالقتال جاء ذلك بعد فوات الأوان ، خاصة بعد أن أمر شارل بانزال الخط الثالث من جنوده ليحيطوا بقوات جلفانو لانسيا ، الذي بذل جهدا خارقا للصمود في المعركة دون طائل ، فقد أخذ جنوده في التساقط بين قتيل وجريح وأسير ، كما لاذ البعض منهم بالفرار ، أما مانفريد نفسه فقد كان يقف مع فرسانه من حزب الجبلين بعيد عن أرض المعركة بعض الشئ فلم يستطع التدخل لانقاذ الموقف في الوقت المناسب ، لكنه مع ذلك خلع عباءته الملكية واعطاها لصديقه تيبالدو تمويها للعدو ، وأصدر أوامره لخطه الأخير بالتحرك إلي أرض المعركة ، إلا أن نبلاءه من حزب الجبلين خانوه معتقدين بانه لا أمل في كسب المعركة وتركوه وانسحبوا دون قتال ، وكذلك فعل شقيقا زوجته ، وترك مانفريد وصديقه تيبالدو مع عدد قليل من اتباعه الذين ظلوا علي الولاء له ، وكان بمقدور مانفريد ان ينجو بنفسه ويهرب لكنه رفض الفرار بل اقتحم ميدان المعركة ، وظل يقاتل مع تيبالدو ومن بقي معهما من الجنود حتي سقطا قتيلين وسط الجنود وقتل تيبالدو وهو ما زال مرتديا عباءة مانفريد الملكية ، كما قتل معهما عدد من الأتباع وتمكن الباقون من الفرار . في الوقت الذي كلف فيه شارل نفر من رجاله بمهمة غير انسانية وهي قتل الجرحي من جيش مانفريد ، وهكذا في مساء يوم المعركة وهو الجمعة ٢٦ فبراير ١٢٦٦ ، كان شارل دانجو هو سيد الموقف ، وفتحت امامه أبواب المملكة ، وسار حتي دخل مدينة بنفنتو ، ومن هناك أرسل رسالة إلي البابا كليمنت الرابع يصف له فيها انتصاره ، كما أخبره أن مصير مانفريد غير معلوم ، ولكن بما أنه عثر علي جواده

فالارجح أنه قتل [1] .

وفي يوم الأحد ٢٨ فبراير ١٢٦٦ ، جاء إلي معسكر شارل أحد الجنود يقود دابة فوقها جثة ، وأخذ الجندي يصيح " من يشتري مانفريد " ، فجاؤا به أمام شارل، الذي طلب من بعض اسراه ، مثل ريتشارد كونت كاسرتا وهو شقيق زوجة مانفريد ، وجيوردانو وبارثولوميو لانسيا ، أن يتحققوا من أنها جثة مانفريد بالفعل فتعرفوا عليها ، وتوسل بعض الفرسان الفرنسين ، الذين احترموا شجاعة مانفريد في القتال ، إلي شارل أن يأمر بأن تقام لمانفريد جنازة تليق به كجندي شجاع لقي حتفه في المعركة رغم أنه كان يستطيع الفرار دون قتال ، فأجابهم شارل بانه كان يود ذلك ، لولا ان مانفريد لقي حتفه وهو محروم من رحمة الكنيسة ، لكنه أمر بأن يدفن بصورة لائقه ، دون القيام بأية مراسم دينية ، ودفن جسده في حفرة أسفل جسر نهر فولتورنو ، ومر الجنود الفرنسيون أمامه لتحيته ، وكان كل جندي يمر أمامه يضع حجرا فوقه حتي تكون نصب [2] .

---

(١) عن كل ما يتعلق بمعركة بننتو راجع المصادر التالية :

Villani : Cronica , vol II , PP. 147 - 155 .

Malaspina : Historia Sicula, PP. 825 - 830

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire U. S. A. , vol III , P. 590.

Oman : Op. cit , PP. 500 - 505 .

Wolff : The Latin Empire of Constantinople , ch. v , PP. 65 - 67 , P. 78 .

(٢) لقد أشار دانتي الليجيري (١٢٦٥ – ١٣٢١م) ، في المطهر Purgatorio إلي قبر مانفريد راجع :

Dante Alighieri : Opera , ed . Moore and Toynbeé , Fourth ed. Oxford , 1924 Purgatorio , III , PP. 124 - 132 .

وظل شارل لبعض الوقت في مدينة بنفنتو حتي استعاد جيشه نشاطه وحيويته ، علي الرغم من أن المدينة تعرضت للنهب من جانب الجنود ، ولم يشفع لها أنها كانت ضمن ممتلكات البابوية ، ولا تخضع للتاج الملكي ، واستدعي شارل زوجته الملكة بياتريس من روما فلحقت به ، ودخلا في احتفال مهيب مدينة نابلي التي اتخذها شارل عاصمة لمملكته ، وكان ذلك في السابع من مارس ١٢٦٦ م. وقد امتطي الملك شارل صهوة جواده . أما الملكة بياتريس فكانت تجلس في محفه من القطيفة الزرقاء (١) .

وهكذا سقط مانفريد هوهنستاوفن ضحية للغدر والخيانة من جانب الحزب الملكي ، وهو حزب الجبلين ، وانتهي معه مجد هذا الحزب ، الذي كان الهوهنستاوفن يحكمون ايطاليا عن طريقه ، وأصبح اعضاؤه تحت سلطة وسيطرة شارل دانجو ، ليكفروا عن خيانتهم وتقلبهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا مدي الخطأ الذي وقعوا فيه بخيانتهم لمانفريد بعد أن قاسوا ذل الاحتلال الفرنسي .

وكانت زوجة مانفريد هيلين اوف ابيروس وابنتها منه الطفلة بياتريس ، وثلاثة ابناء ذكور غير شرعيين لمانفريد يقيمون جميعا في لوسيرا Lucera بين المسلمين الذين كان يثق فيهم مانفريد ، فجاءهم نبأ كارثة بنفنتو ومقتل مانفريد هناك، فسارع الجميع بالذهاب إلي قلعة تراني Trani ، بأمل أن يجدوا زورقا يعبرون به البحر الادرياتي إلي والد هيلين في ابيروس ، ولما علم موظفو البابا بذلك طاردوهم ، وتعرضوا لخيانة قائد القلعة الذي سلمهم إلي موظفي البابا فنقلت هي وأطفالها إلي نوسيرا Nocera وسجنت في قلعة باركو Castella dell Parco وتوفيت هناك في عام ١٢٧١م. وهي لم تتعد الثلاثين من عمرها ، وقد تحررت ابنتها بياتريس في

(١) لقد قدم المؤرخ المعاصر فيلاني وصفا لموكب دخول شارل وبياتريس إلي نابولي راجع :
Villani : Cronica , PP. 155 - 156 .

عام ١٢٨٤ وتزوجت مازكيز سالوزو Marquis of Saluzzo . أما أبناء مانفريد الذكور فلم يغادروا سجنهم ابدا ، وظل أحدهم علي قيد الحياة حتي عام ١٣٠٩م. وسلم حاجب مانفريد ويدعي مانفريد ماليطا خزانته وثروته إلي الفاتح المنتصر شارل دانجو [١] .

وقد كان من نتيجة معركة بنفنتو وانتصار شارل ان فتحت له أبواب الصقليتين علي مصراعيها خاصة بعد أن بدأ شارل بداية طيبة واصدر عفوا عاما عن الناس مقتنعا بانه لا حاجة للانتقام من اتباع مانفريد وأصدقائه ، فشجع هذا العفو أولئك الذين تركوا وطنهم فعلا علي العودة إليه ، ومن بين هؤلاء طبيب بارز هو حنا بروسيدا Jhon of Procida ، الذي كان قد لازم الامبراطور فردريك الثاني أثناء مرضه الأخير والذي عرف عنه المهارة في علاج الأمراض الخطيرة والمستعصية فتشفع له البابا كليمنت بنفسه لدي شارل [٢] ، وسيكون لبروسيرا هذا دور بارز في الأحداث السياسية التالية في صقلية كما يتضح فيما بعد .

بدأت المدن الايطالية ترسل لشارل مدينة تلو الأخري تعلن خضوعها ، حتي قبل أن تصل اليها قواته ، ومن بين هذه المدن لوسيرا التي ظل المسلمون بها حتي النهاية مخلصين لمانفريد ، اما عائلة لانسيا ، وهي عائلة والدة مانفريد كما سبق أن ذكرنا ، فقد فكر بعض أفرادها في تنظيم المقاومة ضد شارل في الجنوب في اقليم كالابريا Calabria ولكنهم لم يلبثوا ان فتر حماسهم وتسرب اليأس إلي نفوسهم من امكانية نجاح مقاومتهم فاقسموا في النهاية لشارل يمين الولاء والتبعية، وترك لهم من جانبه معظم أراضيهم بداية لعهد جديد وعلاقة جديدة،ومن ثم عبرت قوات شارل واسطوله الذي كان بحارته من مارسيليا ، تحت قيادة فيليب أوف منتفورت Philip

(1) Del Giudice : La Familia del Re Manfredi , PP. 71 ff.

(2) Martine and Durand : Thesaurus novus Anecdotorum , Paris , 1717 , vol II , P. 319 .

of Montfort إلي صقلية ، فلم يبد سكان الجزيرة أية مقاومة ، كما استسلم أسطول مانفريد الذي كان لا يزال بكامل قوته واستعداداته إذ أنه لم يشترك في أية معارك بحرية ضد شارل (١) .

وفي نهاية مارس ١٢٦٦ ، عقد اجتماع كبير في مدينة ميلان حضره نواب شارل ونواب كل المدن الايطالية الكبيرة في حوض نهر البو Po ، من فيرسلي Vercelli في الغرب ، الي تريفيسو Treviso في الشرق ، ومن ريجيو Reggio وموديتا Modina جنوب نهر البو أيضا ، وأعلن الجميع ولاءهم للبابوية وانتماءهم لحزب الجلف ، وأعلن حاكم كريمونا Cremona ، وبياكنزا Piacenza وهو من حزب الجبلين ، في يونيو ١٢٦٦ م. خضوعه لشارل واضطر للانسحاب إلي ضياعه . وباستثناء مدينتي فيرونا Verona ، وبافايا Pavia ، اللتين ظلتا مستقلتين ، فان باقي اقليم لومبارديا في شمال ايطاليا أصبح في يد شارل وحليفه البابا (٢) .

وقد حدث نفس الشئ في توسكانيا Tuscany ، حيث كانت مدينة فلورنسا Florence مركز لحزب الجبلين وجري في خريف عام ١٢٦٦ ، اعادة تشكيل هذا الحزب بها واتخذ أعضاؤه رئيسا لهم هو جي نوفللو Guy Novello الذي دخل مدينة فلورنسا منتصرا ، لكن الأهالي طردوه بعد شهر واحد ، فاستدعي البابا شارل دانجو لاقرار الأمور في توسكانيا ، وفي ١٨ ابريل ١٢٦٦ دخل شارل فلورنسا ، فبادر أعضاء حزب الجبلين للانسحاب منها دون قتال ، ولم

(1) Jordan : L'Allemagne et l'Italie aux XII e et XIII e Siécles , dans Gloty , Histoire Générale , Histoire du Moyen Age , vol IV , Paris , 1909 , PP> 366 - 367.
Léonard : Les Angevins de Naples , P. 60 .

(2) Léonard : Op. cit , P. 372 .
Jordan : Op. cit , PP. 375 - 377 .
Previté - Orton : Italy , P. 187 .

يعودوا اليها بعد ذلك . وحذت مدينة لوقا Lucca حذو فلورنسا واختارت المدينتان شارل ليكون حاكما لهما لمدة سبع سنوات ، كذلك دانت له بالولاء كل من براتو Prato وبيستويا Pistoia ، إلي الشمال من فلورنسا ، ولم تقاومه سوي مدينتي بيزا Piza ، وسيينا Siena فأخذ شارل يستعد لسحقهما ، لكن البابا استدعاه لمقابلته في فيتربو Viterbo ، وهناك وعد شارل البابا أن يقصر حكمه في توسكانيا علي ثلاث سنوات فقط ، واضطر شارل إلي العودة إلي توسكانيا في نهاية يونيو ١٢٦٧ لمحاصرة الحصن المنيع بوجيبونسي Poggibonci ، الذي يقع إلي الشمال من سيينا ، واستمر الحصار لمدة خمسة شهور أبدت خلالها حامية الحصن مقاومة عنيفة ، واستمرت هذه المقاومة حتي ٣٠ نوفمبر ١٢٦٧ حين أخذه شارل عنوة. والجدير بالذكر أنه أثناء حصار شارل لهذا الحصن توفيت زوجته الملكة بياتريس في نوسيرا Nocera في يوليو ١٢٦٧ ولم تهنأ بلقبها كملكة سوي أقل من عام وحمل جسمانها إلي أكس Aix - احدي مدن بروفانس - حيث دفنت هناك (١) .

وهكذا بدا للوهلة الأولي وكأن أهداف البابوية قد تحققت تماما ، لدرجة أن البابا كليمنت كتب إلي نائبه في انجلترا في ٦ مايو ١٢٦٦ يقول : " إن السلام الذي يسود في جميع أنحاء المملكة إنما يرجع إلي قوة ابننا الحبيب شارل ، الذي يمتلك في قبضته رفات هذا الرجل الفاسق (يعني مانفريد) وزوجته وابنائه وثروته (٢) " .

لكن اثبتت الأحداث التالية ان البابا كان واهما إلي حد كبير ، وذلك يرجع إلي طموحات شارل دانجو التي كانت لا تقف عند حد ، ويؤكد ذلك العبارة التي قالها شارل بعد انتصاره في معركة بنفنتو ، حين جاءه أحد رجاله مهنئا له علي انتصاره

(1) Leonard : Op. cit , PP. 372 - 375 .

(2) Martine and Durand : Thesaurus nvus Anecdotorum , Paris , 1717 , vol II , P. 319 .

فرد عليه شارل قائلا : " علي أي شئ تهنئني ، ان الرجل الشجاع لا يكفيه العالم بأسره " (١) . وقد وضع شارل سياسة بحرية شاملة تشبه سياسة ملوك النورمان التي هدفت إلي غزو بلاد البلقان وامتلاك القسطنطينية ذاتها ، والسيطرة علي تجارة الشرق ، وتسد أيضا احتياجات شارل المالية الملحة ، فقد كان عليه أن يدفع أجور جنده ، ويسدد ديونه ، وأهمها الجزية السنوية الكبيرة التي كان عليه أن يدفعها للبابوية ، ومن ثم انتشر جباة الضرائب Collectae علي عجل لحصر المصادر المالية للبلاد والتاكد من انتظام دفع الضرائب التي كانت في حقيقة الأمر ثقيلة الوطأة علي الأهالي في الوقت الذي سيطر فيه أصحاب البنوك والتجار علي حركة التجارة التي كانت من قبل في ايدي الأهالي ، ولهذه الأسباب شعر الأهالي بالكراهية الشديدة تجاه شارل الذي كان يتصف بالقسوة والصرامة والاحتجاب عن الشعب ، إذ حكم شعبه بواسطة موظفيه الفرنسيين الذين نظر إليهم الأهالي علي أنهم غرباء من جهة ، ظالمون ومغرورون من جهة أخري ، وأخذ الأهالي يقارنون بين شارل وموظفيه ، وبين آل هوهنستاوفن الذين تمتعوا في ظلهم في صقلية وايطاليا ، بكثير من الرعاية ونعموا في عهدهم بكثير من المحبة والعطف واذا كانوا قد غضبوا علي ملوك هذه الأسرة بسبب جدالهم المستمر مع الكنيسة وخاصة فردريك الثاني ومن بعده ابنه مانفريد ، الا انهم عادوا فذكروهم بالخير بعد المقارنة بشارل دانجو الورع الممتلئ بالحيوية والنشاط (٢) .

ولم يمض وقت طويل حتي وصلت الشكاوي العديدة إلي البابا كليمنت الرابع ، الذي كان لديه من الأسباب ما جعله يغضب علي شارل ، فقد كان البابا يتمني أن يحكم مملكة الصقليتين بعد مانفريد عميل للبابوية موال لها يشعر بالامتنان والتبعية

(1) Previté - Orton : Italy , P. 187 .

(2) Trifone R. : La Legislazione Angioina , Naples , 1921 , P. 36 .
Previté - Orton : Italy , PP. 186 - 187 .

للبابا ، إلا أن شارل رغم نصائح البابا المستمرة له لم يمتثل ، وأذهل البابا نهب جند شارل لمدينة بنفنتو التابعة للبابوية كما سبق ان ذكرنا ، وأدرك أن شارل يقسو علي الإيطاليين الذين خضعوا له ، وهو في نفس الوقت غير كريم في مكافآته لحلفائه المخلصين من رجال الكنيسة ، وأثار التعسف في جمع الضرائب بالذات قلق البابا ، رغم أن شارل أعفي رجال الدين من دفعها ، وكان من رأي البابا كليمنت أن يجمع شارل الاساقفة والبارونات والرجال البارزين في المملكة ، ويخبرهم باحتياجاته المالية ، ويتركهم بعد ذلك يقررون ما الذي يجب عليه اتباعه . وفي موجة الغضب التي اجتاحت البابا كليمنت ، راح ينتقد شارل من حيث ادارته لشئون المملكة ، ووصفه بانه متكبر وجاحد للنعم ، ودمية في يد موظفيه ، وأنه محاط بحاشية سيئة تتسم بالميل للفوضي ، وفي النهاية أوضح البابا بأن " لا أحد يري شارل أو يسمعه ، لأنه غير متواضع وغير محبوب من الشعب " (١) .

وهكذا فقد كان لدي البابا من الأسباب ما يبرر غضبه علي شارل ، ولهذا أخذ البابا يلح علي شارل أن يتنازل عن منصب سناتور روما ، استنادا إلي المعاهدة التي ابرمت بين الطرفين في يوليو ١٢٦٣ م. والتي حرمت علي شارل تقلد أي منصب في ايطاليا ، فاستجاب له شارل وفي يونيو ١٢٦٧ تم تعيين سناتور لروما ، هو الدون هنري القشتالي Don Henry of Castile وهو الأخ الأصغر للملك ألفونسو العاشر ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) ، وكا ن مغامرا ثريا ينتمي إلي الطبقة الأرستقراطية ، ومن أشد المؤيدين لشارل (٢) ، وبمجرد أن تولي منصبه ، أظهر عداءه وكراهيته للبابا ولشارل ولحزب الجلف ، وانتهي به الأمر إلي الانضمام لحزب الجبلين المؤيد للهوهنستاوفن ، بل وحارب جنبا إلي جنب مع كونرادين ضد شارل

(1) Böchmer J. : Regesta Imperii , ed . Ficker and winkelmann , innsbruck 1881 - 1901 , vol V , PP. 1484 , 1488 , 1490 , 1493 .
(2) Previté - Orton : Italy , P. 187 .

والبابا علي حد سواء ، كما نري فيما بعد .

وعلي الرغم من غضب البابا علي شارل وانتقاد تصرفاته علنا ، الا أن الاحداث التالية أجبرته علي التمسك بشارل ، كما أجبرته علي أن يغفر له كل تصرف أغضبه منه ، وأصبح البابا يتوق لعودة شارل إلي جنوب ايطاليا . بسبب ظهور خطر جسيم هدد البابا وشارل وايطاليا كلها شمالاً وجنوباً وصقلية في آن واحد ، وتمثل هذا الخطر في شخص كونرادين الوريث الشرعي للهوهنستاوفن ، الذي خرج في حملة عسكرية من ألمانيا متجها إلي ايطاليا لاسترداد حقه المغتصب في عرش الصقليتين .

كان كونرادين في ذلك الوقت في الخامسة عشرة من عمره وكان مقيما في بافاريا حيث أملاك عائلة والدته كما سبق أن ذكرنا ، وكان شقيقا والدته وهما لويس وهنري Henry of Bavaria يعنيان بمصالحه السياسية في أقليم سوابيا Swabia ، الذي ظل ملكا لعائلة الهوهنستاوفن في المانيا ، واتسم كونرادين بالذكاء والنضوج المبكر ، كما كان طموحا جسورا وسيما ، ولديه احساس عميق بجذوره الملكية ، علي أن والدته لم تشجع طموحاته ، خوفا علي حياته من مغامرات غير مضمونة النتائج ، لكن ابن عمه وصديقه المقرب اليه والمتقارب معه في السن وهو فردريك اوف بادن Fredrick of Baden ، الوريث الشرعي لدوقية النمسا (التي آلت اليه عن طريق والدته) . كان مؤيدا ومساندا له في كل خططه (١) .

وقد سبق ان نوقش موضوع حقوق كونرادين في الصقليتين وكان رأي

(1) Hampe K. : Geschicchte Konradins Von Hohenstaufan , innsbruck , 1894 , PP. 21 - 41 .

وعن فردريك اوف بادن راجع نفس المرجع ، ص١٧٦ .

البابوية أن كونرادين رغم أنه ينافس عمه مانفريد إلا أن كلاهما من عائلة الهوهنستاوفن البغيضة التي اختصتها البابوي بالكراهية واللعنات، اما ملك فرنسا لويس التاسع فقد كان من رأيه أن حقوق كونرادين لا يجب أن يتم تجاهلها تماما ، أما انصار الهوهنستاوفن في ايطاليا من حزب الجبلين فقد بدأوا يتجهون بتفكيرهم نحو كونرادين ، بعد معركة بنفنتو وقتل مانفريد وبعد ما عانوه من الحكم الفرنسي ، وقد فر بعضهم كما فر نفر من عائلة لانسيا ، إلي كونرادين في بافاريا ، ، وقاموا بتحريضه علي الانتقام لمقتل عمه مانفريد والمطالبة بحقه في عرش الصقليتين . وفي نفس الوقت عرضوا علي كونرادين خطة قوامها السير إلي توسكانيا ، علي أن يقوم كونراد كابيس Conrad Capece الذي كان نائبا لمانفريد في صقلية – وهو من حزب الجبلين الايطالي – بالهجوم علي صقلية مستخدما مساعدة أمير تونس [١] .

ومن ثم أرسل كونرادين رسائل إلي أنصاره في ايطاليا يستحثهم علي اعداد أنفسهم لمساندته ، وحينما اطمأن إلي وجود الكثير من هؤلاء الانصار ، حضر جلسة المجلس التشريعي في اوجسبرج Augsburg في اكتوبر ١٢٦٦ ، حيث أعلن كونرادين أنه ذاهب في حملة إلي ايطاليا للمطالبة بحقه الشرعي ، وطلب من أصدقائه ورعاياه المبادرة بمساعدته ، فوافق المجلس علي مطالب كونرادين وقرر ارسال الحملة إلي ايطاليا في صيف عام ١٢٦٧ م. من أجل استرداد حق كونرادين في عرش الصقليتين [٢] .

---

(1) Hampe : Op. cit , P. 24 .
Previté - Orton : Italy , P. 187 .
(2) Hampe : Op. cit . , P. 95 - 99 .

علم البابا كليمنت بفرار المعارضين إلي بافاريا وطموحات الأمير الصغير من عائلة الهوهنستاوفن واستعداداته لغزو ايطاليا ، فاصدر في ١٨ سبتمبر ١٢٦٦م قرار الحرمان ضد كل شخص يوافق علي اختيار كونرادين لعرش صقلية أو يعمل من أجل ذلك وعلي كل شخص يصحبه في حملته علي ايطاليا . وفي نوفمبر من نفس العام أصدر البابا مرسوما بقرار الحرمان واباحة الاستيلاء علي ممتلكات من يؤيد سيادة كونرادين علي صقلية أو يستقبل ممثلين عنه (١) .

وبناء علي أوامر كونرادين ، غادر كونراد كابيس تونس مع أنصاره الذين تجمعوا هناك ، بعد أن أمدهم أمير تونس المسلم بالأسلحة والذخائر ، فعادوا إلي صقلية حيث اشعلوا نيران الثورة بها ضد حكم شارل دانجو ، وأصبحت صقلية كلها في يد الثوار فيما عدا مدينتي بالرمو ومسينا اللتين ظلتا تحت سيطرة نائب شارل ، كذلك فان مسلمي لوسيرا اشعلوا الثورة التي اتسعت لتشمل كالابريا ، غير أن شارل كان ما يزال في توسكانيا ، وما لبث حصن Poggibonsi أن سقط في يديه في نهاية نوفمبر ١٢٦٧م كما استولي علي فولتيرا Volterra ليعزل سيينا Siena ، وفي يناير ١٢٦٨م اتجه ضد بيزا Piza واستولي عليها وخرب ميناءها ، كما خرب اسوارها ، وقطع تجارتها البحرية فترة من الزمن . وفي مارس ١٢٦٨ استمع إلي نداءات البابا كليمنت وسار من فلورنسا جنوبا ، ليزور كليمنت في مقره في فيتربو ، وتسلم منه مرسوما أصبح شارل بمقتضاه نائباً امبراطورياً للمبارديا ، وفي طريق عودته إلي مملكته اتخذ اجراءات ضد المسلمين الثائرين في لوسيرا ، وحاول جاهدا اخضاعهم قبل قدوم كونرادين ، ولكن جهوده ذهبت هباء ولم يفلح في اجبارهم

(1) Hampe : Op. cit , P. 99 - 100 .

علي الاستسلام (١) .

وفي منتصف سبتمبر ١٢٦٧ ، غادر كونرادين بافاريا مصطحبا حوالي أربعة الاف فارس ألماني ، إذ لم يكن لديه المال الكافي لاستئجار عدد كبير من المرتزقة ، كما كان بصحبته الكثير من الايطاليين من حزب الجبلين المؤيد للهوهنستاوفن ، وكان بحاشيته الكثير من الصقليين ، وقبل ان يغادر ألمانيا اذاع بيانا رسميا ، أعلن فيه حقه الشرعي في ميراث الهوهنستاوفن ، كما أعلن أن مانفريد كان مغتصبا لحقه الشرعي في حكم الصقليتين (٢) .

تحرك جيش كونرادين ببطء عبر مقاطعة تيرول Tyrol في جنوب المانيا علي امتداد ممرات جبال الالب ، وفي ٢١ أكتوبر ١٢٦٧ وصل إلي فيرونا علي الساحل الشمالي الشرقي لايطاليا ، وأحد المراكز الهامة لتجمع حزب الجبلين ، وقد بقي بها كونرادين لمدة ثلاثة شهور ، ولم توضح المصادر السبب في بقاء كونرادين كل هذه المدة في فيرونا ، وربما أراد أن يعطي فسحة من الوقت لاعضاء حزب الجبلين في ايطاليا للانضمام إليه ، أو أنه كان يأمل أن تدفع ثورة صقلية ومسلمي لوسيرا شارل لكي يترك توسكانيا ويتجه جنوبا ، وبذلك تتاح لكونرادين فرصة الاستيلاء علي ايطاليا مدينة تلو الأخري ، لكن شارل خيب ظنه ولم تفلح ثورة صقلية ولا نداءات البابا في حثه علي ترك توسكانيا (٣) .

وقد أضر هذا التأخير في فيرونا بكونرادين أكثر مما أفاده ، ذلك أن أهالي

(1) Jordan : Op. cit , PP 386 - 390 .
Leonard : Op. cit , PP. 65 - 66 . .
Hampe : Op. cit , PP. 189 - 195 .
(2) Hampe : Op. cit , PP. 346 - 350 .
(3) Malaspina : Op. cit , PP. 834 - 836 .
Jordan : Op. cit , P. 386 - 386

فيرونا لم يتوقعوا أن يستضيفوا جيشا بهذا الحجم لوقت طويل ، ولم يكن لديهم من المؤن والأغذية ما يقدمونه لهذا الجيش الكبير لمدة أخري ، في الوقت الذي بدأت فيه قواته تشعر بالضجر والملل ، كما أن دوق بافاريا رفض أن يصحب كونرادين لأبعد من ذلك وعاد إلي وطنه في المانيا ، وحذا حذوه الكثير من اللوردات الألمان الأقل منه مرتبة ، وبدأ صبر حزب الجبلين في فيرونا ينفذ ، فاضطر كونرادين للتحرك ومغادرة فيرونا في ١٧ يناير ١٢٦٨ ، وبعد ثلاثة أيام وصل إلي المركز الثاني لتجمع الجبليين في ايطاليا وهو مدينة بافايا Pavaia ، في وسط لمبارديا ، ومكث بها عدة أسابيع ، ثم وصل إلي سافونا Savona علي الساحل الشمالي الغربي لايطاليا ، ومن هناك أبحر في زورق إلي بيزا التي وصلها في ٧ أبريل ١٢٦٨ ، وهناك استقبل استقبالا ملكيا حافلا ، أما جيشه فقد واصل السير عبر الطريق البري تحت قيادة فردريك اوف بادن حتي وصلوا إلي بيزا دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وفي بيزا قدم الجبلينيون لكونرادين الكثير من الجنود والكثير من الأموال ، ومن جانبه منح كونرادين بيزا كل الحقوق التي كانت لها فيما سبق في مملكة الصقليتين ، فمنحها مدن ترابانى Trapani في الشمال الغربي لصقلية ، ، مارسالا Marsala وسالرنو Salerno في الجنوب الغربي لايطاليا ، وجزيرة مالطا .

وأثناء ذلك كان شارل دانجو يحاول قمع الثورات المحلية التي قامت ضد حكمه في ايطاليا قبل أن يصل اليها كونرادين فترك اقليم توسكانيا واتجه إلي لوسيرا لاخماد ثورة المسلمين بها ضده ، فأتاح ذلك لكونرادين فرصة ليقوم بفتوحاته في توسكانيا ، فحاول الهجوم علي لوقا Lucca ولكن نائب شارل في توسكانيا تصدي له ، فسار كونرادين علي رأس جيشه إلي حصن بوججيبونسي Poggibonsi وهو الحصن الذي ذاق الأمرين من حصار شارل دانجو مدة خمسة شهور والذي أخذه شارل عنوة ، كما سبقت الاشارة ، فكان من الطبيعي أن يشعر

سكان هذا الحصن بالكراهية الشديدة لشارل ويستقبلوا كونرادين استقبالا حافلا حيث قدموا له مفتاح الحصن ، وفي ٢٥ يونيو ١٢٦٨ وصل كونرادين إلي سيينا Siena وبقي بها لمدة عشرة أيام ، وكافأ المدينة علي ولائها بمنحها الحق في جباية الضرائب واقرار العدالة في كل أنحاء المنطقة ، ومنها اتجه كونرادين بجيشه متخذا الطريق القديم المسمي طريق كاسيا Via Cassia عازما علي التوجه إلي روما ذاتها . وأثناء سيرهم ، مروا تحت أسوار مدينة فيتربو Viterbo ، شمال روما حيث مقر البابا كليمنت ، الذي شاهدهم من نافذة علوية في قصره أثناء عبورهم فراوده الأمل في أن يكون الحمل سائرا إلي المذبحة (١) .

وفي يوليو ١٢٦٨ ، وصل كونرادين إلي روما ، ويسجل كاتب الحوليات المعاصر سابا ملاسبينا Saba Malaspina ، الذي كان يعمل في البلاط البابوي ، وصفا تفصيليا لاستقبال أهالي روما لكونرادين ، هذا الاستقبال الحافل ، الذي لم يسبق لمدينة بابوية أن استقبلت به عدوا للكنيسة ، فقد خرجت الجموع وعلي رأسها سناتور روما هنري القشتالي ، الذي كان قد قلب ظهر المجن للبابا ولحزب الجلف وانضم إلي حزب الجبلين ، خرج الجميع لاستقباله وهم ينشدون تراتيل تمدحه وتمجد عائلته وتلقي بالزهور أمامه في حماس منقطع النظير، وزينت الطرقات بالزينات ، وارتدي الجميع الملابس الزاهية الجميلة وكأنهم في يوم عيد ، وأقيمت الألعاب في ساحة مارتيوس Martius ، وسارت المواكب تتقدمها الأضواء ليلا ، واستمرت هذه الاحتفالات وتوافد أعضاء حزب الجبلين الايطاليين علي روما للاشتراك في هذه الاحتفالات ، كما أخذ السناتور هنري القشتالي ، يؤكد لكونرادين اخلاصه

(١) لقد. أعطي المؤرخ الالماني هامب وصفا تفصيليا لخط سير حملة كونرادين علي ايطاليا ، راجع:

Hampe : Geschichte Konradins Von Hohenstaufan , PP. 21 - 41 .

الذي لن يتغير [١] .

وان دلت هذه الاحتفالات علي شئ فانما تدل علي مدي حب وتقدير الشعب الايطالي لعائلة الهوهنستاوفن ، وتمسكهم بها ، خاصة بعد أن ذاقوا مرارة حكم الفرنسيين وتعاليهم وغطرستهم ، وقد وصلت انباء هذا الاستقبال الحافل لكونرادين بروما ، إلي البابا كليمنت في مقره في فيتربو ، فتألم لذلك أشد الألم ولم يغفر البابا أو خلفاؤه لروما هذا الموقف لسنوات طويلة ، وأنحي باللائمة علي هنري القشتالي ، وأقسم البابا ألا يسمح مرة أخري ، باختيار أجنبي سناتور لروما .

وظل كونرادين بروما مدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادرها وهو مفعم بالأمل في فتح مدن المملكة واسترداد ميراثه من مغتصبيه خاصة بعد هذا الاستقبال الرائع بروما ، الذي أثلج صدره ، وبعد أن انضم إلي جيشه نحو ألفين من الفرسان المدربين ، وبذلك بلغ تعداد جيشه ما يقرب من الستة آلاف مقاتل .

عزم كونرادين علي التوجه إلي اقليم أبوليا ، في الجنوب الشرقي لايطاليا ، حيث كانت أملاك مؤيديه من عائلة لانسيا وحين علم شارل بذلك وهو محاصر لمدينة لوسيرا حيث كانت ثورة المسلمين لا تزال قائمة ، رفع شارل الحصار وصمم علي أن يقطع الطريق علي كونرادين ، فسار بجيشه حتي وصل إلي تل أوفيندولي Ovindoli ، وكان هذا التل هو الطريق الوحيد الموصل إلي أبوليا ، ولم يكن بمقدور كونرادين أن يصل إلي أبوليا دون أن يمر عبر هذا التل ، لذلك غير كونرادين اتجاهه بعض الشئ حتي لا يصطدم بقوات شارل ووصل إلي كارسولي carsoli ثم اتخذ طريق فاليريا Via Valeria إلي الجنوب الشرقي ، وعبر إلي تاجليا كوزو Tagliacozzo وكان كونرادين يعلم أن شارل ليس بعيدا عنه ، لذلك لم يعطه

(1) Malaspina S. : Historia Sicula , PP. 842 - 844 .

الفرصة ليفاجئه في وادي ضيق ، بل تحرك شمالا مارا بالتلال ثم نزل إلي السهول حيث تستطيع قواته أن تخوض معركة حاسمة وهي في وضع مناسب يسمح للخيالة الثقيلة من الألمان ان تناور بسهولة وتتحرك في يسر لتحرز نتائج طيبة ، وأقام كونرادين معسكره عند سكوركولا Scurcola ، علي الجانب الغربي لنهر صغير يسمي سالتو Salto ، علي بعد خمسة أميال من تاجليا كوزو ، وكان ذلك في ٢٢ أغسطس ١٢٦٨م. ، وبعد ساعات قليلة وصل شارل دانجو علي رأس جيشه وعسكروا علي الجانب الشرقي لنهر سالتو وبدأت المعركة التي عرفت في التاريخ باسم معركة تاجلياكوزو Tagliacozzo ، في صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٢٦٨ ، ومثل معركة بنفنتو من قبل ، كان كل جيش ينقسم إلي ثلاثة أقسام ، والفيالق الأولي من جيش كونرادين كانت تقف علي الشاطئ الغربي لنهر سالتو يقودها هنري القشتالي سناتور روما ، وقوامها الفرسان الإسبان، وقوات من حزب الجبلين من روما وكمبانا Campagna ، وخلفهم وقفت الفيالق من حزب الجبلين من لمبارديا وتوسكانيا ومن الفارين من مملكة شارل دانجو، وكان بينهم عدد قليل من الفرسان الالمان ذوي الاسلحة الثقيلة . اما باقي القوات الالمانية فقد وضعت في الفيالق الاحتياطية تحت قيادة كونرادين وابن عمه وصديقه فردريك اوف بادن .

أما جيش شارل دانجو فقد كان أقل عددا حيث وصل تعداده إلي نحو خمسة آلاف فارس ، ولكنه كان يتكون من جنود محنكين حاربوا باستمرار مع شارل خلال العامين الاخيرين ، وكانوا من الرجال الذين يعرفهم شارل ويثق بهم ، وتكون الخط الأول من فيالقه من الايطاليين من حزب الجلف والقوات البروفنساليه ، وانتشر هؤلاء علي الجانب الشرقي لنهر سالتو ، أما الخط الثاني فكان يتكون من العدد الأكبر من قوات شارل الفرنسية تحت قيادة الماريشال هنري اوف كوسانسز Henry of Counsances ولجأ شارل إلي خداع كونرادين وقواته ، فاعطي للماريشال هنري

عباءته ليرتديها وسلمه العلم الملكي ليحمله حامل العلم الذي يقف عادة بالقرب من القائد . ونظرا لأنه جرت العادة علي أن قائد الجيش لابد وأن يكون علي رأس الفيالق الاحتياطية ، فقد اعتقد كونرادين أن تلك هي الفيالق الاحتياطية وقائدها شارل نفسه . في الوقت الذي كان فيه الاحتياطي الحقيقي بقيادة شارل ويبلغ تعداده حوالي الألف من أفضل الفرسان علي بعد حوالي الميل خلف جيشهم يختبئون من العدو وراء أحد التلال ، وكان يصحب شارل جندي مخضرم عاد لتوه من حملة صليبية في الشرق ، ويشغل منصب الحاجب الملكي في فرنسا ، وهو ايرار اوف سانت فاليري Erar of Saint - Valéry .

وهكذا كان يفصل بين الجيشين نهر سالتو الصغير الذي كان ضحلا في فصل الصيف ، وفوقه جسر يصل بين شاطئيه . وفي صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٢٦٨ تحركت فيالق هنري القشتالي نحو الجسر بينما كانت فيالق شارل قد عبرت الجسر ووقفت في انتظارهم هناك وبدأت المعركة واشتعل القتال بين الطرفين ، وبدا التفوق في جانب جيش كونرادين وتساقطت الفيالق الانجوية وتعرضوا لمذابح رهيبه ، واعتقد الألمان أن هنري اوف كونسانز هو الملك شارل فهاجموه وذبحوه واستولوا علي العلم الملكي ، وحين رأي الفرسان الانجويين ذلك لاذوا بالفرار ، فاقتفي أثرهم هنري القشتالي ومعه جلفانو لانسيا ، وحين جاء كونرادين وفرسانه من الاحتياطي لتوجيه الضربة القاضية للجيس الأنجوي ، بدا ذلك غير ضروري ، نظرا لعدم وجود جنود تابعين لجيش شارل في ساحة المعركة ، إذ كان شارل دانجو مروعا في مخبئه خلف التلال ، وهو يري هذه الكارثة التي حلت برجاله .

علي أن الخطأ الذي ارتكبه جنود كونرادين وتسبب في هزيمته بعد ذلك ، هو انشغالهم في نهب المعسكر الانجوي واشترك في ذلك الجنود الايطاليون والألمان علي

السواء معتقدين ان جيش شارل قد هزم ولاذ بالفرار وخلا الجو لهم للاستيلاء علي ما يحويه المعسكر من المؤن والذخائر ، ولم يدر بخلدهم ان شارل ما زال مختبئا خلف التلال بفيالقة الاحتياطية التي لم تخض المعركة بعد ، وقد أخذ ايرار اوف سانت فاليري يحث شارل ويشجعه علي النزول إلي أرض المعركة للاشتباك مع كونرادين والفرسان القليلين الملتفين حوله بعد أن شغل باقي الجيش في مطاردة فيالق شارل الهاربة من ناحية وفي نهب معسكره من ناحية أخري فما لبث كونرادين وفردريك اوف بادن أن فوجئا بهجوم فيالق شارل ، وبعد صراع عنيف وقتال مرير ، اضطر كونرادين إلي ترك أرض المعركة والفرار استجابة لنصيحة قادته ، ففر هو وفردريك أوف بادن وحارسه الخاص واتخذوا طريقهم إلي روما ، اما باقي الفرسان من جيش كونرادين الذين ظلوا يقاتلون شارل وجنوده ، فقد ذبحوا واستولي شارل علي راية الهوهنستاوفن التي يزينها النسر ، ولما رأي الجنود الالمان والايطاليون الذين ينهبون المعسكر ذلك لاذوا بالفرار ، اما هنري القشتالي وجلفانو لانسيا فقد ظلا يطاردان جنود شارل الهاربين حتي أصبحوا خارج الوادي ووصلوا إلي طريق ابوليا ، فجاءتهما الانباء هناك بما حدث لجيش كونرادين ، فعادا إلي أرض المعركة علي رأس فيالقهما وكانت لا تزال أكثر عددا من فيالق شارل ، غير أنها كانت تعاني من الاجهاد بعد يوم طويل من القتال والمطاردة ، وهم يرتدون الدروع الثقيلة ويقاسون من حرارة الصيف ، علي عكس فيالق شارل التي ادخرت قوتها طوال اليوم ولم تنزل إلي أرض المعركة الا مؤخرا فضلا عن أنها كانت ترتدي دروعا مرنه وخفيفة فتقاتل الفريقان يدا بيد وانتهي القتال بفوز شارل فوزا تاما [1] .

(١) عن كل ما يتعلق بتفاصيل معركة تاجليا كوزو راجع ما يلي :

Villani : Cronica , vol II , PP. 181 - 189 .
Malaspina : Historia Sicula , vol III , PP. 845 - 848 .
Hampe : OP. cit , PP. 288 - 295 .
Miller : The Latins in the levant , PP. 128 - 129 .
Oman : Op. cit , vol I , PP. 505 - 515 .

وكعادة شارل دانجو بعد كل معركة ، كتب إلي البابا كليمنت ووصف له المعركة ومدي الجهد الكبير الذي بذله هو ورجاله في هذ المعركة ، واختتم رسالته إليه قائلا : " لقد قتلنا من الاعداء في هذه المعركة أكثر مما قتلنا منهم في معركة بنفنتو ، ونحن نكتب لك هذه الرسالة بعد المعركة مباشرة ، ولا نستطيع ان نؤكد الآن ما اذا كان كونرادين والسناتور هنري قد قتلا أم انهما لاذا بالفرار ، لكن المؤكد ان فرس السناتور هنري قد جري أخذه فلابد وأن هنري نفسه قد فر علي قدميه " (١) .

والواقع ان معظم قادة جيش كونرادين كانوا لا يزالون علي قيد الحياة ، بينما قبض علي السناتور هنري القشتالي أثناء فراره ، وظل بالأسر لسنوات طويلة، ثم أفرج عنه في ١٢٩٣ ، في عهد شارل الثاني اوف انجو ، فعاد إلي وطنه في أسبانيا (٢) .

أما كونرادين وابن عمه وصديقه الوفي فردريك اوف بادن فقد اتخذا طريقهما إلي روما ، وكان بعض الفرسان قد انضموا اليهما فوصل عددهم إلي نحو خمسين فارساً ، وفي ٢٨ أغسطس وصلوا إلي روما ، وفيها نائب السناتور هنري ويدعي جي مونتفلترو Guy of Montefelro وهو لورد اربينو Lord Urbino وينتمي إلي حزب الجبلين وكان قد سمع بتفاصيل المعركة وما انتهت اليه من هزيمة كونرادين ، لذلك انقلب علي كونرادين ، وحزب الجبلين بكامله ، وانضم إلي الحزب المنافس والموالي للبابوية وهو حزب الجلف وسمح لرجاله بدخول روما ، في الوقت الذي رفض دخول كونرادين ورجاله وأغلق بوابات الكابيتول في وجههم ، فرأي

(1) Villani : Op. cit , vol II , PP. 190 .
Malaspina : Op. cit , vol III , P. 849 .

(2) Wolff : Mortgage and Redemption of an Emperor , Son : Castile and the Latin Empire of Constantinaple , in Studies in the Latin Empire of Constantinaple , London 1976 , Ch. V, P. 78 .

كونرادين انه من الأفضل عدم دخول روما ، فاتخذ ورجاله طريق فاليريا Via Valeria ، سائرين خلال الجبال ، وعند ساراسينيسكو Saracinesco التقوا بجلفانو لانسيا الذي انضم اليهم ، فعزم الجميع علي التوجه إلي ابوليا والانضمام للثوار هناك وعائلة لانسيا ، ويبدوان شارل توقع منهم ذلك ، فوضع عددا من رجاله يراقبون الطريق إلي الشرق ، وحين ادرك كونرادين وصحبه ذلك غيروا خططهم واتجهوا جنوباً ، مارين بكمبانا Campagna فوصلوا إلي ميناء صغير في استيوار Astura في مستنقعات بونتين Pontine marshes بأمل أن يجدوا زورقا ينقلهم إلي جنوا ، لكن الحاكم المحلي للمنطقة وهو اللورد حنا فرانجيبان Jhon Frangipan ما أن علم أن ثمة غرباء غير معروفين قد نزلوا بالمنطقة حتي أرسل من قبض عليهم واحضرهم ، فاكتشف شخصياتهم فقام بسجنهم في قلعة من قلاعه ، وبعد أيام قليلة علم شارل بذلك فأرسل أمير البحر روبرت اوف لافينا Robert of Lavena ومعه الكاردينال جوردان اوف تراسينا Jordan of Terracina فطلبا من حنا فرانجيبان باسم الملك شارل والبابا كليمنت ان يسلمهما السجناء ، فاستجاب لهما ، ونقل السجناء أولا إلي بالسترينا Palestrina ، وهناك تم العفو عن جلفانو لانسيا وأحد ابنائه وعدد من النبلاء الايطاليين من حزب الجبلين ، والارجح ان شارل عفي عنهم حتي يكسب ود عائلة لانسيا في ابوليا لتكف عن اثارة المتاعب في وجهه والتحريض علي الثورة ضده ، ونفس الشئ بالنسبة لحزب الجبلين ، اما كونرادين وفردريك اوف بادن وعدد من اتباعهما فقد نقلوا إلي نابلي ومنها إلي قلعة في جزيرة اوفو Castello dell'Uovo [١] .

(1) Malaspina : Historia Sicula , vol III , PP. 848 - 850 .

وكان شارل دانجو مقتنعا تماما بان كونرادين يجب أن يقتل ، لانه لا يمكن ان يشعر بالأمان علي عرشه ، طالما ان هناك أمير من الهوهنستاوفن علي قيد الحياة لكن شارل كان يريد أن يكون حكمه علي كونرادين قانونيا ، فالتقاليد كانت تحرم قتل أسير الحرب ، وخاصة من الشخصيات البارزة والأمراء ، فاذا خالف شارل هذه التقاليد فيجب أن يكون لديه المبرر القانوني لذلك ، فأمر المحامين باعداد عريضة الاتهام ضد كونرادين ، وأيقن قضاة شارل المطلوب منهم ، وبعد محاكمة صورية هزلية في نابولي صدر حكمهم بان كونرادين مذنب بتهمتي التمرد والخيانة ، وكذلك فردريك اوف بادن وريث عرش النمسا ، الذي كانت كل جريمته أنه ظل مخلصا لكونرادين حتي النهاية ، ولابد ان شارل اعتقد أنه اذا ظل فردريك اوف بادن علي قيد الحياة وقتل كونرادين فقط ، فمن المحتمل ان يطالب فردريك بعد ذلك بحقه الشرعي في عرش الصقليتين حيث أنه ابن عم كونرادين أي من نفس عائلة الهوهنستاوفن .

ونصبت مقصلة في معسكر ماريسينو Campo Maricino في نابولي في الموقع الذي يعرف حاليا باسم بيازا دل ماركاتو Piazza del Marcato ، وفي ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م. جري قطع رأس كل من كونرادين وفردريك اوف بادن مع عدد من اتباعهما ، وهي المرة الأولي التي رأي فيها أهالي نابولي هذا الصبي الوسيم ذي الستة عشر ربيعا ، والذي كان من الممكن أن يكون ملكا عليهم ويقال أنهم لم ينسوه ابدا ولمدة طويلة (٢) .

ولكن ما هو موقف البابا كليمنت الرابع من هذه المحاكمة ، ومن قتل كونرادين علي هذا النحو؟

(1) Malaspina : Op. cit , PP. 848 - 850 .
(2) Hampe : Op. cit , PP. 305 - 306 , P. 314 .

يقول بعض المؤرخين ، ان البابا التزم الصمت ازاء هذه الحوادث ، وان صمته هذا كان اعترافا ضمنيا بالموافقة [١] . غير أن المؤرخ المعاصر جيوفاني فيلاني حاول جاهدا ان يبعد عن البابا تهمة الاشتراك في قتل كونرادين ،وأوضح ان البابا شعر بالأسي العميق لمقتله [٢] . لكن يجب أن ندخل في اعتبارنا ان المؤرخ فيلاني كان ينتمي إلي حزب الجلف الموالي للبابوية ، ومن الطبيعي أن يحاول نفي هذه التهمة البشعة عن البابا ، الأب الروحي للمسيحيين في كل أنحاء العالم المسيحي. علي أنه هناك مقولة شهيرة قالها البابا كليمنت ، تنفي رأي فيلاني وتؤكد أنه كان للبابا كليمنت دور في حث شارل علي التخلص من كونرادين-بالقتل ، وهذه المقولة هي:

" Vita Conradini , mors Caroli : Vita Caroli , mors Conradini"[3] .

أي أن حياة كونرادين تعني موت شارل ، وحياة شارل تعني موت كونرادين .

ولاشك في ان البابا اختار حياة شارل ، التي تعني موت كونرادين ، وكان قتل كونرادين وفردريك اوف بادن من الأمور التي يحبذها البابا حتي يتخلص وبصفة نهائية من خطر تدخل الهوهنستاوفن في ايطاليا وهم الأعداء الالداء للبابوية.

وقد أصيب الرأي العام في اوروبا بالصدمة لمقتل كونرادين وفردريك اوف بادن علي هذا النحو ، وتعددت الآراء في ذلك خاصة الاطراف الثلاثة الذين شغلهم هذا الأمر : الايطاليون والفرنسيون والالمان ، اما عن الايطاليين فقد كتب العالم الانساني الكبير المعاصر دانتي الليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١م) ان كونرادين يعتبر

(1) Previté - Orton : Italy , P. 189 .
(2) Villani : Op. cit , vol II , PP. 848 - 850 .
(3) Malaspina : Op. cit , PP. 848 - 850 .

ضحية بريئة [١] ، أما عن المؤرخين الفرنسيين فانهم اعتبروا شارل دانجو مذنبا ، وتمنوا أن يجدوا عذرا واحدا لتبرئته من هذه الجريمة التي تتنافي مع الانسانية والتقاليد المعروفة أنذاك [٢] .

أما بالنسبة للمؤرخين الالمان ، فقد اعتبروا قتل كونرادين من أبشع الجرائم التي عرفها التاريخ [٣] . وكتب الشاعر الالماني هنريخ هين [٤] Heinrich Heine (١٧٩٧ - ١٨٥٦ م.) عن هذه الحادثة ، واتصفت كتابته عنها بالحزن والمرارة . كذلك فان الغالبية من المؤرخين المحدثين من الجنسيات المختلفة قد أدانوا شارل دانجو

(1) Dante Alighieri : Opera , Purgatorio III , P. 150 .

(2) Jordan : L'Allemagne et L'Italy , P. 392 .
Leonard : Les Angevins de Naples , P. 380 .

(3) Hampe : Geschichte Konradins Von Hohenstawfen , PP. 312 - 327 , 358 - 365 .

(٤) يعتبر هين من أعظم الكتاب والشعراء الالمان في القرن التاسع عشر ، ولد في ١٣ ديسمبر ١٧٩٧ وتوفي في ١٧ فبراير ١٨٥٦ وهو يهودي الأصل ، ولما كان والده لم يصادف نجاحا في اعماله ، لذلك فقد امده خاله الذي كان يمتلك ثروة ضخمة ويعيش في هامبورج Hamburg، بحاجته من الاموال ، فدرس هين القانون في بون Bonn لكنه لم يمارس المحاماة أو يعمل في أي مجال من مجالات القانون . لان الشعر والأدب استحوذا علي إهتمامه وأخذ يتنقل بين صالونات الشعر ، وعن طريق خاله تعرف علي البارون الشهير روتشيلد Baron Rothschild وكان هين يعشق الثقافة الفرنسية ، كما كان يؤيد سياسة نابليون بونابرت حتي انتقل للاقامة في باريس منذ سنة ١٨٣١ . ولهين أعمال عديدة منها ديوان شعر عرف باسم (كتاب الأغاني) Book of Songs الذي ظهر في عام ١٨٢٧ وترجم إلي اللغة الانجليزية عام ١٨٤٦ ، ورحلة هارز Harzreise ، وصدر سنة ١٨٢٦ ، وحمامات لوقا Bader Von Lucca ، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء ، عن هين وأعماله راجع :

Vntermeyer L. : Heinrich Heine , Paradox and Poet the life , 1937 .
Rose w. : Heinrich Heine : two Studies of his thought and Feeling , 1956 .
Prawer S. : Heine , The Tragic Stirist , A study of Later Poetry 1827 - 1856, (1961) .

وتعاطفوا بشدة مع كونرادين [١] ويصف المؤرخ روبرت لي وولف Robert Lee Wolff قتل كونرادين بانه " واحدة من أكثر الاحداث خطورة ومأساوية للمرحلة الاخيرة من الصراع علي الممتلكات الايطالية للامبراطورية الرومانية المقدسة [٢] " .

ولاشك في ان قتل شارل دانجو لكونرادين علي هذا النحو ، كان جريمة بشعة بكل المقاييس ، لكن شارل دانجو اعتقد ان الغاية تبرر الوسيلة ، وانه بموت كونرادين وفردريك اوف بادن ، يصبح بمقدوره ان يحكم وهو مطمئن تماما إلي انتهاء سلالة الهوهنستاوفن إلي الأبد ، اذ لم يبق منهم من ينازعه علي عرش الصقليتين ، لكنه كان واهما إلي أبعد الحدود ، لان الضربة القاضية التي أصابته في مقتل ، وقضت علي آماله وطموحاته العريضة في الغزو والفتح وتكوين امبراطورية شاسعة انما اتت اليه من أحد فروع الهوهنستاوفن .

وكان من نتيجة الانتصار الذي احرزه شارل دانجو علي الهوهنستاوفن ان الثوار الذين رفعوا راية العصيان ضد شارل وتمردوا عليه ووجدوا في كونرادين الأمل والخلاص من الاحتلال الفرنسي قد بدأوا في التراجع " خوفا علي رؤوسهم وممتلكاتهم " علي حد تعبير المؤرخ الانجليزي الكبير ادوار جيبون [٣] . فاستسلمت

---

(١) راجع علي سبيل المثال المراجع التالية :

- Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire , Vol III , New York , P. 591 .
- Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 , in C. Med . H. vol VI , ed. Tanner , P. 189 .
- Austine . Lane Poole : The Interrengnum in Germany , in C. Med . H. viol VI, ed. Tanner , P. 124 .
- Hoyt and Chodorow : Europe in The Middle Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 , P. 487 .

(2) Wolff : Op. cit , ch. V , P. 79 .

(3) Gibbon : Op. cit , vol III , P. 591 .

مدينة لوسيرا Lucera في ٢٧ أغسطس ١٢٦٩م. ، وأجبر بيزا علي الاستسلام في سنة ١٢٧٠م كما اعلنت سيينا Siena خضوعها واصبحت من حزب الجلف وطردت الجبلينيين منها ، ومد حدوده في لومبارديا باخضاع تورين Turin والساندريا Alessandria في ١٢٧٠ ، وانتهت ثورة صقلية بالقبض علي كونراد كابيس واعدامه في يوليو ١٢٧٠م. [1] ورغم ذلك فقد استمرت الثورات ضد حكم شارل علي فترات متقطعة في كل عام ، وان كان يسارع باخمادها الا انها كانت مؤشرا لسوء حكمه للصقليتين بعد ان أغرق البلاد في الدماء وصادر ممتلكات الثوار وخاصة النبلاء ، وأخذ في توزيعها علي نبلائه الفرنسيين ، وتوقف شارل عن الاجتماع مع مجلس النواب Parlement ، ولم يستجب لطلبات انعقاده ، كما أخذ في فرض الضرائب الباهظة علي الاهالي حتي فاقت حدود احتمالهم [2] . فكان لكل ذلك نتائج خطيرة ، إذ عبأت الشعور الوطني لشعب الصقليتين ضد شارل والفرنسيين علي وجه العموم، وتسببت في الانفجار الثوري الرهيب في صقلية في ٢٩ مارس ١٢٨٢ ، الذي اطاح بحكم شارل دانجو فيها ، وقضي علي آماله وخططه من أجل تكوين امبراطورية تشمل بلاد الغرب والشرق علي حد سواء .

(1) Previté - Oton : Italy , PP. 189 - 190 .
(2) Previté - Oton : Italy , P. 189 .

شارل دانجو والثورة الصقلية

تعرف الثورة الصقلية التي قامت ضد شارل دانجو في يوم الاثنين ٢٩ مارس ١٢٨٢م . في مدينة بالرمو ، وانتقلت منها إلي باقي أنحاء الجزيرة باسم (صلاة المساء الصقلية) [١] The Sicilian Vespers وقد اختلفت آراء المؤرخين حول الأسباب التي أدت إلي هذه الثورة ، فالمؤرخ الايطالي المعاصر جيوفاني فيلاني أرجع أسباب هذه الثورة إلي الدور الذي قام به حنا بروسيدا [٢] ، في تحريض شعب صقلية علي الثورة ، وقد أضفي علي بروسيدا هالة كبيرة جعلته أشبه بالاسطورة [٣] . والغالب ان العالم الانساني الكبير فرانسيسكو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤م.) قد تأثر برأي فيلاني عن اسباب هذه الثورة ، وأسندإلي بروسيدا الدور الرئيسي والهام فيها واعتبره المحرك الأول لهذه الثورة [٤] .

وقد أخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين منهم جيبون [٥] Gibbon وليروزو-Lum

(١) إتخذ اسم Vespers من التعبير اللاتيني للساعات الأخيرة من ضوء النهار (evening) وقد بدأ المسيحيون يؤدون هذه الصلاة منذ القرن الثالث الميلادي ، وكانت عبارة عن صلاة وترتيل لتمجيد المسيح واحياء ذكري العشاء الأخير ، ثم تطورت حتي أخذت شكلها النهائي في القرن السادس الميلادي ، وأصبحت تتضمن : مقدمة موجزة ، خمس ترنيمات ، قراءة قصيرة من الانجيل ، ترتيل ، تمجيد الرب ، صلاة الأغراض المختلفة ، عظة دينية ، وأخيرا أبيات ختامية ، راجع :

The illustrated Encyclopedia of Medieval civilization U. S. A. 1980 , P. 695 .

(٢) يوجد بحث قيم للمؤرخ رانسيمان عن حنا بروسيدا ، نشأته ، دراسته ، ودوره في الحياة السياسية في عصره ، راجع :

Runciman : John of Procida and the Vespers , in his Book : The Sicilian Vespers, Cambridge , 1988 , PP. 288 - 293 .

(3) Villani : Cronica , vol I , P. 390 .

(4) Petrarca F : Itinerarium Syriacum , in Opera omnia , Basil , 1554 , P. 559 .

(5) Gibbon E. : The Decline and Fall of the Roman Empire , U. S. A. vol I , PP. 236 - 237 .

brozo [1] ، واستروجورسكي Ostrogorsky [2] .

علي ان المؤرخ الايطالي الشهير ميشيل أماري Michel Amari قام بعمل دراسة رائعة لهذه الثورة في كتابه عن (حرب صلاة المساء الصقلية) La Guerra del Vespro Siciliano الذي نشره باللغة الإيطالية عند بداية العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي في عام ١٨٤٢م. ، وظهر في ثلاثة أجزاء ، واعتمد أماري في هذه الدراسة علي مجموعة من المصادر التي كانت موجودة في عصره ويصعب الحصول عليها الآن . ثم قام أماري بعمل تغيير وتصويب في الطبعات الأخيره من هذا الكتاب ، وقد اعتمدنا علي الطبعة التاسعة التي نشرت في ميلان في عام ١٨٨٦م.

وفيما يتعلق بثورة صقلية هذه ، فقد أوضح أماري ان هناك أسبابا عديدة لهذه الثورة ، وأن دور حنا بروسيدا كان دورا ثانويا محدودا ، وان الأسباب الحقيقية للثورة تتعلق بشعب صقلية وما عاناه من ظلم وجبروت المحتلين الفرنسيين [3] . وأخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين من بينهم فيروزوسكي [4] Wieruszouski ، وفازيلييف [5] Vasiliev ، وجياناكوبولس [6] Geanakoplos ، وسيرستيفن رانسيمان [7] Runciman في كتابه القيّم عن

(1) Lumbrozo G. : Memorie Italiane del byon lempo antico , turin , 1889 , P. 34.

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , P. 464 .

(3) Amari : La Guerra del Vespro Siciliano , 9 th ed. Milan , 1886 , vol I , PP. 193 - 301 .

(4) Wieruszouski H. : " Conjuraciones yabanzas Politics del rey pedro de Arag'on Contra Carlos de Anjou antes de la Lisperas Sicilianas " in Boletin de la A Cademia de la Historia , 107 , Madrid , 1935 , PP> 560 - 563 .

(5) Vasiliev : Op. cit , vol II , P. 598 .

(6) Geanakoplos : Op. cit ; P. 355 .

(7) Runciman : The Sicilian Vespers , Cambridge , 1988 , PP. 210 - 213 .

(صلاة المساء الصقلية) ، The Sicilian Vespers ، الذي نشر في كمبردج لأول مرة في عام ١٩٥٨ ، ثم اعيد نشره في أعوام ١٩٨٢ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ ، وهي الطبعة الاخيرة التي اعتمدنا عليها .

ولا شك في أن رأي أماري هو الأرجح ، لأنه لا يمكن لشخص ما ، مهما كانت قوة تأثيره علي الرأي العام ، ان يحرك شعبا باكمله للقيام بالثورة ، ما لم يكن لدي هذا الشعب من الاسباب ما يدفعه للثورة . والغالب ان فيلاني نسب لحنا بروسيدا هذا الدور الاسطوري كمحرك أساسي ورئيسي للثورة نظرا لان فيلاني ، كما سبق ان ذكرنا ، كان ينتمي إلي حزب الجلف الموالي للبابوية وشارل ، وليس من المنطق في شئ ان يلقي باللوم علي شارل وسياسته في صقلية ، تلك السياسة التي أثارت شعور الكراهية لدي شعب هذه الجزيرة ضد شارل والمحتلين الفرنسيين ، وأشعلت نيران هذه الثورة .

وقد كانت ثورة شعب صقلية ضد شارل أثناء حربه مع كرنرادين قد دفعته لعدم الثقة فيهم ، ومن ثم اتخذ نابولي عاصمة له وعزف عن بالرمو التي اتخذها الهوهنستاوفن ومن قبلهم النورمان عاصمة ، وهكذا فقدت الجزيرة مركزها كمحور اهتمام الحاكم ولم تلق الا الاهمال من جانب شارل ، فلم يبذل جهوداً للنهوض باقتصادها ، بل انه لم يقم بزيارة الجزيرة الا مرة واحدة فقط وهو في طريقه للحاق بشقيقه الملك لويس التاسع في تونس [(١)] ، كما أنه لم يتول الاشراف بنفسه علي جهازها الاداري ، وانما ترك ذلك لنائبه بها ويدعي هربرت اوف اورليان Herbert of Orléans الذي اعتمد علي مجموعة من الموظفين الفرنسيين عاثوا فيها فساداً وعرف عنهم الجشع والرشوة وابتزاز الاهالي ومعاملتهم بمنتهي القسوة والعجرفة والتعالي ، ولم يحترموا تقاليدهم أو لغتهم ، حتي القضاء كان في يد قضاة

(1) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 211 .

فرنسيين علي رأسهم حنا اوف سان ريمي John of Saint - Rémy ، كذلك عاني أهالي الجزيرة من كثرة الضرائب التي فرضها عليهم شارل من أجل تمويل مشروعاته الخاصة بالغزو والفتح ، فادركوا في النهاية أنهم خضعوا لطاغية أجنبي يبتزهم من أجل تحقيق أهداف لن يستفيدوا هم منها شيئا ، وأشار إلي ذلك كله المؤرخ الصقلي المعاصر بارثولوميو اوف نيوكاسترو Bartholomew of Neocastro (١) .

يضاف لهذه الأسباب ، تحريض كل من ميخائيل باليولوجوس وبطرس الثالث لأهالي صقلية . أما عن ميخائيل باليولوجوس فهو امبراطور الامبراطورية البيزنطية (١٢٦١ - ١٢٨٢م) ، الذي قام شارل دانجو بتجميع قوي الغرب الأوروبي ضده من أجل القضاء عليه واسترداد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، فكان من الطبيعي أن يحاول ميخائيل إثارة المتاعب في وجه شارل حتي لا يحقق أهدافه الخاصة بغزو القسطنطينية لانتزاعها منه . لذلك أخذ في تحريض شعب صقلية ضد حكم شارل واغدق الأموال علي المناهضين له وتم تهريب الأسلحة اليهم . واما بطرس الثالث ملك أرغونة (١٢٧٦ - ١٢٨٥ م) فهو زوج كونستانس هوهنستاوفن ابنة مانفريد والوريثة الشرعية للملك والدها في صقلية ، وكانت هي وزوجها يعتبران شارل دانجو مغتصبا لحقها في ملك أبيها .كما فر إلي بلاط بطرس لاجئون سياسيون من صقلية يدينون بالولاء للهوهنستاوفن لعل

(١) يعرف أيضا باسم بارثولوميو اوف مسينا Messina ، حيث أنه ولد بها ، اما كلمة نيوكاسترو فالمقصود بها صقلية ، وقد درس القانون وعمل قاضيا في مسينا ، وفي عام ١٢٨٢م ، وبعد القضاء علي حكم شارل دانجو في صقلية عن طريق الثورة التي قام بها أهاليها ، اختير بواسطة الأهالي لحكمها ، وقد كتب مذكرات تاريخية دوّن فيها تاريخ صقلية في الماضي وحتي عصره واطلق عليها اسم (التاريخ الصقلي) Historia Sicula ، وقد نشره ميوراتوري Muratori في الجزء الثالث عشر من موسوعته ، راجع :
Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , ed Muratori in (Rerum Italiacarum Scriptores) , vol XIII , P. 10 .

أشهرهم حنا بروسيدا John of Procida ، الذي سبقت الاشارة اليه ، فحاز ثقة بطرس واتخذه مستشارا وسكرتيرا له . لذلك أخذ بطرس يقوم باستعدادات عسكرية وبدأ في انشاء اسطول قوي ، ودأب علي تغذية المكائد والفتن ضد شارل . وهكذا عاد الهوهنستاوفن يطلون من جديد علي صقلية ، وينازعون شارل علي حكمها ويطالبون بحقهم الشرعي في عرشها .

وكان أن التقي اعداء شارل دانجو ، إذ عقد تحالف بين بطرس الثالث وميخائيل باليولوجوس أواخر عام ١٢٨١م. من أجل انتزاع صقلية من شارل وتعهد ميخائيل بدفع مبلغ من المال لبطرس حتي نهاية الحرب ضد شارل [١] .

وأدي ذلك كله إلي غليان الموقف في صقلية وأنذر بانفجار الموقف حتي كان يوم عيد الفصح الموافق الاثنين ٢٩ مارس ١٢٨٢م. حين حدث الانفجار بالقرب من كنيسة الروح المقدسة Santo Spirito ، التي تبعد حوالي نصف ميل فقط شمال شرق الأسوار القديمة لمدينة بالرمو .

وهذه الكنيسة كان قد بناها في عام ١١٧٧م. والتر اوفاميل Walter Ophamil ، وهو انجليزي المولد وكان يشغل منصب رئيس اساقفة بالرمو ، وكان من عادة رجال الدين في هذه الكنيسة ان يقيموا مهرجانا في يوم عيد الفصح من كل عام ، ولهذا فقد تدفقت جموع المواطنين الصقليين من بالرمو والقري المجاورة ، إلي هذه الكنيسة وتجمعوا حولها انتظارا لموعد صلاة المساء [٢] Vespers .
وبينما الأهالي يغنون ويرقصون احتفالا بهذا العيد ، ظهرت فجأة مجموعة من الموظفين الفرنسيين والفرسان المدججين بالسلاح وكانوا جميعا في حالة سكر بيّن

(1) Ptolemy of Lucca : Historia Ecclesiastica , vol XI , 1727 , Cols 1186 - 1187.
Sanudo : Istoria , P. 133 .
(2) Runciman : Op. cit , PP. 211 - 212 .

فاستقبلهم الأهالي بفتور ونظرات الاستنكار والكراهية ، ولكنهم أصروا علي المشاركة في الاحتفال ، وكان من بينهم ضابط فرنسي يدعي دروّيه Drouet اعجبته سيدة متزوجة شابة من أهالي صقلية ، أخذ في مضايقتها بتصرفات وكلمات غير لائقة ، بأكثر مما يحتمل زوجها ، فاستل هذا سكينا وطعن به الضابط الفرنسي فأرداه قتيلا ، فاندفع الفرنسيون يهاجمون الأهالي انتقاما لزميلهم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين تماما بحشد غاضب من الصقليين المسلحين بالخناجر والسيوف الذين ما لبثوا أن أجهزوا عليهم ولم يتركوا فرنسيا واحدا منهم علي قيد الحياة ، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها أجراس كنيسة الروح المقدسة، وباقي الكنائس تدق معلنة حلول وقت صلاة المساء Vespers فأسرع بعض الأهالي يذرعون شوارع بالرمو يحرضون الرجال لقتل الفرنسيين الظالمين ، وانطلقت صيحات الغضب تهز أنحاء المدينة تنادي (الموت للفرنسيين) moranu li Franchiski وأخذوا في مهاجمة بيوت الفرنسيين الموجودين في بالرمو حتي اجهزوا عليهم جميعا سواء كانوا رجالا أم نساء أم أطفالاً وحتي السيدات الصقليات اللاتي تزوجن من فرنسيين قتلن جميعا في هذه الأحداث وانتقلت الثورة إلي أديرة الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان وخرج الجميع يشاركون في هذه الثورة ضد المحتلين الفرنسيين [1] .

وفي اليوم التالي لهذه الثورة كان عدد القتلي من الفرنسيين في بالرمو وحدها حوالي الألفين [2] . وأصبح الثوار يسيطرون تماما علي بالرمو ، واجتمع

(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المذبحة في المصادر التالية :

Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 11 - 12 .

Villani : Cronica , vol II , PP. 242 - 243 .

Amari : La Guerra , vol I , PP. 193 - 200 .

(٢) ذكر المؤرخ برفيته اورتون ان المحصلة النهائية لعدد القتلي لهذه الثورة في انحاء الجزيرة =

نخبة من الأهالي واعلنوا مدينة بالرمو قومونا مستقلا [١] ، واختاروا قائدا لهم فارسا يدعي روجر ماسترانجيلو Roger Mastrangelo ، وعين له ثلاثة من النواب هم هنري بافريو Henry Baverio ، نيقولا اوف اورتوليفا Nicolas of Ortoleva ، ونيقولا اوف ابدمونيا Nicolas of Ebdemonia ، كما عين خمسة مستشارين لمساعدتهم . وجري تنكيس العلم الانجوي الذي يحمل شارة زهرة السوسن ، واستبدل في كل مكان في المدينة بعلم الهوهنستاوفن الذي يحمل شارة النسر الامبراطوري . وكان فردريك الثاني قد اختاره ليكون شارة مميزة لمدينة بالرمو التي قضي بها طفولته ثم اتخذها عاصمة له ، ثم ارسلوا رسالة إلي البابا مارتن الرابع يسألونه فيها أن يصبغ حمايته علي هذا القومون الجديد ، ولم يكن البابا مارتن الرابع الحليف الوفي لشارل دانجو ليقبل ذلك فرفض رفضا باتا [٢] .

وسرعان ما انتشرت أنباء ثورة بالرمو هذه في أنحاء الجزيرة ، وخرجت الرسل

= كانت تتراوح ما بين ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ قتيل فرنسي ، راجع :

Previté - Orton : Italy , P. 198 .

(١) القومون هو المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها في حلف وحصلوا علي استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة ، وقد درج المؤرخون علي اطلاق هذا الاصطلاح علي المدن التي تمتعت بنفوذ سياسي مستقل ، بمعني أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم بانفسهم دون ان يفرض عليهم ذلك من قبل سيدا أو حاكماً من خارج المدينة اما التزامات القومون نحو السلطة العليا في الدولة ، كالامبراطور أو الملك أو البابا ، فكانت تحدد بمبلغ معين من المال يدفع سنويا وقسط معلوم من الخدمة العسكرية . وللمزيد عن القومونات ونشأتها راجع :

سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطي ، الجزء الثاني ، النظم والحضارة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، القاهرة ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧ .

Petit - Dutaillis : Les Communes Françaises au Moyen Ages , Paris , 1948 .

(2) Bartholomew : Op. cit , PP. 12 - 15 .

Villani : Cronica , vol II , PP. 245 - 246 .

Amari : La Guerra , vol I , PP. 228 - 231 .

من بالرمو إلي جميع مدن وقري صقلية لتحرضهم علي الثورة وكانت أول مدينة استجابت هي كورليون Corleone ، علي بعد عشرين ميلا جنوب بالرمو ، وبعد أن أجهزت علي الفرنسيين بها أعلنت نفسها أيضا قومونا مستقلا ، وفي ٣ أبريل ١٢٨٢م. ارسل قائدها ويدعي بونيفيس Bomiface ثلاثة رسل إلي بالرمو لاتخاذ خطوات مشتركة بين القومونين ، فأتفق القومونان علي ان يرسلا قواتهما في ثلاثة اتجاهات للتحريض علي الثورة ، غربا إلي تراباني Trapani ، وجنوبا إلي كالتانيسيتا Caltanissetta ، وشرقا نحو مسينا Messina ، وحينما كانت قوات الثوار تقترب كان الفرنسيون يفرون ، ومن لم يستطع الفرار كان نصيبه الذبح ، ونجحت قوات الثوار في تطهير المدينتين الأولتين من الفرنسيين ، أما مسينا فقد كان الموقف فيها مختلفا ، حيث كان الأسطول الانجوي يرابط في مينائها ، كما كان بها أيضا نائب شارل وهو هربرت اوف اورليان ، الذي كانت تحميه حامية فرنسية قوية ، علي أن هربرت ارتكب خطأ كان له أكبر الأثر في انضمام مسينا إلي الثوار وذلك انه ارسل جيشا من قوات مسينا الصقلية بقيادة فارس صقلي هو وليم شيريولو William Chiriolo جنوبا إلي مدينة تورمينا Tormina لحمايتها من الثوار ، وفي نفس الوقت أرسل جزء من الأسطول ببحارته الصقليين وتحت قيادة أحد نبلاء مسينا ويدعي ريتشارد ريزو Richard Riso إلي بالرمو لمهاجمتها بحرا ، وكان المتوقع ان يرسل فرنسيين لقمع الثورة وليس الصقليين ولكنه لم ينتبه إلي هذا الخطأ ، فكانت النتيجة المتوقعة هي رفض البحارة ان يهاجموا اخوانهم أهالي بالرمو ، واستقر هذا الاسطول ببحارته وقائده في ميناء بالرمو وانضم للثوار بها . وحينما علم هربرت بذلك أرسل قوات فرنسية إلي تورمينا لتحل محل قوات مسينا بها ، ولكن وليم شيريولو قبض عليهم جميعا . وهكذا أصبحت مسينا بغير قوات كافية ، فانتهزها الاهالي فرصة وأعلنوا الثورة علي شارل دانجو في يوم ٢٨ أبريل ١٢٨٢م. وجرت بها مذبحة للفرنسيين مماثلة

لمذبحة بالرمو ، كما أشعل الاهالي النار في باقي سفن الاسطول الانجوي المرابط أمامها ، وأعلنت نفسها قومونا كذلك ، واختارت قائدا لها هو بارثولوميو مانيسكالكو Bartholomew Maniscalco الذي لعب دورا هاما ورئيسيا لتنظيم الثورة بها [(١)] .

ورغم رفض البابا مارتن الاستجابة لرسل بالرمو والاعتراف بها قومونا وفرض حمايته عليها ، الا ان الاهالي لم ييأسوا خاصة بعد أن انضمت مسينا إلي بالرمو وباقي مدن صقلية وارسلوا في أول مايو ١٢٨٢م. ثلاثة رسل إلي بلاط البابا في اورفييتو Orvieto يسألونه الاعتراف بهم قومونات ، لكن البابا مارتن الرابع رفض ذلك بل أصدر في ٧ مايو ١٢٨٢م. مرسوما بتوقيع قرار الحرمان علي الثوار في صقلية كلها ، وعلي كل من يقدم لهم العون ، كما أصدر مرسوما ثانيا بتوقيع قرار الحرمان علي ميخائيل باليولوجوس (الذي يسمي نفسه امبراطور اليونان) ، ومرسوما ثالثا بتوقيع قرار الحرمان علي حزب الجبلين في شمال ايطاليا [(٢)] .

وهكذا أثبت البابا مارتن الرابع مدي اخلاصه ووفائه لشارل دانجو ، كما أثبت أيضا تأكده التام من الدور الذي لعبه ميخائيل باليولوجوس في العمل علي اشعال نيران هذه الثورة للاطاحة بحكم شارل دانجو في صقلية ، والجدير بالذكر ، ان انباء هذه الثورة وصلت إلي ميخائيل باليولوجوس في القسطنطينية عن طريق أحد التجار الجنويه ويدعي الافرانكو كاسّانو Alafranco Cassano ، وسعد الامبراطور ميخائيل بهذه الانباء كثيرا بعد ان نزلت بشارل هذه النكبة ، ، وأرسل

(1) Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 12 - 15 .

(2) Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 15 .
Villani : Cronica , vol II , PP. 245 - 246 .
Amari : La Guerra , vol I , PP. 228 - 231 .
Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 220 - 221 .

للثوار في صقلية مزيدا من الذهب والأموال للاستعانة بها علي حرب شارل . وأشار ميخائيل باليولوجوس في سيرته الذاتية التي كتبها إلي ابنه وولي عهده اندرونيقوس ، إلي دوره في العمل علي تحرير أهالي صقلية من حكم شارل فقال :

" لقد احتقر الصقليون قوات شارل كقوات تستحق الاحتقار وتجرأوا واستخدموا الأسلحة واطلقوا أنفسهم من عبوديته فاذا قلت ان الله الذي وهبهم الحرية، قد وهبهم إياها عن طريقنا ، فانني بذلك أقرر الحقيقة " (١) .

لكن ما هو موقف شارل دانجو من كل هذه الحوادث في صقلية ، وأين كان مقره حينما قامت الثورة الصقلية ؟

كان شارل في عاصمته (نابولي) حينذاك ، حين أرسل اليه رئيس اساقفة مونريال Monreale ، بالقرب من بالرمو ، يخبره بمذبحة بالرمو ، وغضب شارل لسماعه ذلك غير أنه لم يأخذ الأمر علي محمل الجد ولم يعطه ما يستحقه من الاهتمام ، معتقدا أن تلك الثورة مجرد تمرد كالذي كان يحدث في كل عام تقريبا وينجح شارل في القضاء عليه ، لذلك أعطي أوامره في ٨ أبريل ١٢٨٢م. ، لنائب الأدميرال ماثيو اوف سالرنو Matthew of Salerno ليأخذ أربع غاليات محملة بالمقاتلين ويذهب بها لقمع الثورة في بالرمو ، ففشل ماثيو في هذه المهمة بل نجح ثوار مسينا في الاستيلاء علي غاليتين من غالياته الأربع عند عودته من بالرمو وعاد بالغاليتين الباقيتين إلي نابولي (٢) .

وحين علم شارل باندلاع الثورة في مسينا أيضا بدأ يأخذ الأمر بجدية أكثر فجمع اساطيله من الموانئ الايطالية ، وطلب المساعدة من فيليب الثالث ملك فرنسا

(1) Michael Palaeologus : De Vita Sua Opusculum , ed. Troitsky , vol II , PP. 537 - 538 .

(2) Bartholomew of Neocastro : Op. cit ,P. 11 - 12 .

(١٢٧٠ - ١٢٨٥م.) وابن شقيقه . علي أن فيليب كان يري ان الخطر الأعظم علي شارل لا يكمن في صقلية وانما في أرغونة حيث كان ملكها بطرس الثالث قد اعد اسطولا عظيما أمام ميناء فانجوس Fanggos عند منبع نهر ابرو Ebro فأرسل اليه فيليب رسالة في ٢٠ مايو ١٢٨٢ م. طلب فيها ان يعده بطرس ان هذا الاسطول لن يهاجم عمه شارل دانجو فإذا لم يفعل فليأذن بعداء بينهما وسيضطر فيليب لارسال جيش لمحاربة أرغونة [١] .

ولما كان بطرس الثالث لا يرغب في فتح جبهة قتال مع ملك فرنسا قد تعوقه عن تنفيذ اهدافه في صقلية ، فقد أكد علي أن هذا الأسطول أعد خصيصا لمهاجمة شمال أفريقية ، في نفس الوقت طلب من البابا مارتن منح بعض الامتيازات الروحية للمشتركين في هذه الحملة واعتبارها حملة صليبية ، ولكن البابا رفض رفضا باتا[٢] . فخرج الملك بطرس باسطوله من ميناء فانجوس في ٣ يونيو ١٢٨٢م. ونزل علي الساحل الجزائري ، وقاتل البربر بعض الوقت ، وكان ذلك كله تمويها علي فيليب ملك فرنسا وشارل دانجو ، واستقر بطرس في ميناء كولو Collo ، انتظار لما يسفر عنه الوضع في صقلية [٣] .

أخذ الصقليون يعدون أنفسهم للهجوم المنتظر من جانب شارل ، وما لبث أن قام شارل بالهجوم علي مسينا فعلا في ٨ أغسطس ١٢٨٢م. ، ولكن هجومه فشل، فعاود هجومه المرة تلو الأخري ولكن الاهالي قاوموه بشجاعة وتصميم علي

(1) Champollion - Figlac : Letters des Rois , Reines et autres Personnages des cours de France et d'Angleterre . Collection de Documents inedits , Paris , 1884 - 1897 , vol I P. 285 .

(2) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 222 .

(3) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 222 .

النصر أو الموت في سبيل قضيتهم [١] .

ومع تربص شارل دانجو بأهالي صقلية ومدنها ، ومع رفض البابا مارتن الرابع إعلان حمايته علي هذه القومونات الجديدة ، كان لابد للاهالي أن يبحثوا عن قوة تتولي حمايتهم ومساندتهم ، وتمثلت هذه القوة في بطرس الثالث ملك أرغونة الذي كان ينتظر هذه الفرصة ، إذ لم يكن الاهالي راغبين في ان يتولي حكمهم غريب حتي لا تتكرر مأساتهم مع شارل دانجو الفرنسي ، وقد كانت زوجة بطرس الثالث هي كونستانس هوهنستاوفن وهي قبل كل شئ ممثلة لعائلة الهوهنستاوفن ووريثة هذه الأسرة ، لذلك تم الاتفاق فيما بين الاهالي علي ان تكون هي ملكتهم ، فأرسلوا ثلاثة رسل من بالرمو إلي بطرس الثالث للقائه وكان لا يزال معسكرا في ميناء كولو الجزائري فقدموا له فروض الطاعة والولاء واخبروه بأنهم اختاروا الملكة كونستانس كملكة شرعية لهم ، وانهم يقدمون لها تاج صقلية ومن بعدها يكون التاج من نصيب أبنائها ، ودعوه للمجئ إلي صقلية ، فاستجاب لهم بطرس ، وأعلن أنه ذاهب إلي صقلية بناء علي دعوة أهلها ، وأبحر إلي تراباني Trapani ، حيث نزل هناك علي رأس جيشه الذي تكون من ٦٠٠٠ من رجاله المسلحين ، و ٨٠٠٠ من الالميوجافيري Almugaveri ، وهم من المشاة المدربين علي حرب العصابات ويمتازون بالشجاعة وشدة المراس في القتال ، وقد طبقت شهرتهم الآفاق [٢] ، واتخذ طريقه إلي بالرمو ، حيث توج ملكا علي صقلية في ٤ سبتمبر ١٢٨٢م. ومنح أهلها الحقوق والحرية التي كانت لهم زمن الملك وليم

(١) عن تفاصيل هجوم شارل علي مسينا ومقاومة الاهالي له راجع :

Batholomew of Neocastro , Hist. Sic. , PP. 23 - 36 .

Amari : La Guerra , vol I , P. 232 ff .

Leonardo : les Angevins des Naples , P. 147 .

(2) Previté - Orton : Italy , P. 199 .

الثاني النورماني. وقد انضم إلي جيشه محاربون من بالرمو وغرب صقلية واتخذوا طريقهم إلي مسينا حيث كان شارل يرابط باسطوله أمامها ، وما أن علم شارل بوصول بطرس الثالث حتي انسحب باسطوله عائدا إلي كالابريا في جنوب ايطاليا (١) .

وراح يتباحث مع ابن شقيقه ملك فرنسا فيليب الثالث للبحث عن مخرج لهذه الازمة. وسارع البابا مارتن الرابع بالانضمام إلي شارل في هذا الصراع ، واصدر قرار الحرمان علي بطرس الثالث في نوفمبر ١٢٨٢م. كما أعلن البابا في ١٣ يناير ١٢٨٣م. ، ان الحرب ضد بطرس الثالث وثوار صقلية وكل من يساعدهم تعتبر حربا صليبية ، ومنح كل من يحارب ضد هؤلاء الثوار نفس الامتيازات الروحية التي منحت من قبل لمن يحارب المسلمين في الاراضي المقدسة في فلسطين . ويبدو أن ذلك لم يكن كافيا في نظر شارل ، إذ قام بزيارة البابا في مقره في فيتربو Vitrbo ليحثه علي مضاعفة العقاب لبطرس الثالث وفي ٢١ مارس ١٢٨٣ غادر شارل فيتربو وبعد أيام قليلة ، أصدر البابا مارتن الرابع قرارا بعزل بطرس الثالث عن ملكه في اسبانيا معلنا ان هذا الملك يجب أن يمنح لكاثوليكي تقي ، ومن ثم جري منحه لشارل اوف فالوا Charles of Valois وهو الابن الاصغر لفيليب الثالث ملك فرنسا (٢) .

وقد اشترك البابا مارتن مع شارل دانجو وفيليب الثالث ملك فرنسا في التخطيط لفتح مملكة أرغونة ، وعلم بطرس الثالث باستعداداتهم لنقل الصراع إلي الأرض الاسبانية أي إلي أملاكه هناك ، لذلك كان عليه ان يغادر صقلية ليعود

(1) Batholomew : Op. cit , PP. 30 - 32 .
Runciman : Op. cit , P. 227 - 233 .

(2) Runciman : Op. cit , P. 242 - 243 .
Previté - Orton : Italy , P. 199 .

إلي وطنه لحماية ملكه هناك [١] . فارسل في ربيع عام ١٢٨٣م. إلي زوجته الملكة كونستانس للحضور إلي مسينا ، فوصلت اليها في ١٦ أبريل ١٢٨٣م. وبصحبتها أبنائها الأطفال جيمس James ، وفردريك Frederik ، وفيولنت Violante ، ومستشارها الوفي حنا بروسيدا ، وجري عقد البرلمان في مسينا في ١٩ أبريل ١٢٨٣ م. حيث أعلن بطرس أنه في حالة وفاته فان ابنه جيمس سوف يخلفه علي عرش صقلية ، وتكون الملكة كونستانس وصية علي ابنها في حكم صقلية مع مجلس وصاية يتكون من القاضي اليمو اوف لينتيني Alaimo of Lentini ، والمستشار حنا بروسيدا ، والادميرال روجر اوف لوريا Roger of Lauria . وفي اليوم التالي ترك بطرس الثالث زوجته كونستانس تحكم صقلية ، وغادر مسينا ليقوم بجولة في أنحاء صقلية ثم إلي ميناء تراباني وأخيرا أبحر في ٦ مايو ١٢٨٣ م. إلي فلنسية [٢]. واضطر بطرس الثالث لخوض حرب شرسه عنيفة ضد فيليب الثالث ملك فرنسا وشارل دانجو ، اللذان حملاه نتيجة ما قام به في صقلية ضد شارل [٣] .

وهكذا عادت كونستانس هوهنستاوفن ملكة في إرثها من أجدادها في صقلية ، وأثبتت الحوادث ان قتل شارل دانجو لمانفريد ثم كونرادين ، وحتي فردريك اوف بادن ، للخلاص من عائلة الهوهنستاوفن ووضع حد لمزاحمتهم إياه في صقلية، لم يحقق هدفه ، فما لبث أن برز خطر آخر من اسبانيا ومن نسل الهوهنستاوفن أيضا يتطلع لاسترداد ملك آبائه وأجداده .

(1) Runciman : Op. cit , P. 228 - 279 .

(2) Batholomew of Neocastro : Op. cit , PP. 47 - 51 .

(٣) عن الصراع الذي قام في اسبانيا بين القوي الثلاثة بطرس الثالث وفيليب الثالث وشارل دانجو راجع :

Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 228 - 293 .

وقد استأنف شارل دانجو الصراع في صقلية ، ولكن روجر لوريا قائد الاسطول الصقلي أثبت مقدرة وكفاءة عظيمة في هذه الظروف الصعبة ، إذ استطاع ان يحرز الانتصار في كل معاركه البحرية ضد قوات شارل ونجح في إنزال ضربة رائعة بشارل وحطم الجزء الأكبر من أسطوله عند مالطة في يوليو ١٢٨٣ م. ، بينما استمر البابا مارتن الرابع في مساندته لشارل ، وقدم الاموال والذهب الكثير في يديه من أجل الانفاق علي استعدادات الحرب واستخدم الاسلحة الروحية بقسوة في الحرب ضد أهل صقلية ، كما أعلن قرار الحرمان علي البندقية لرفضها تأجير سفنها لشارل[1] وشرع شارل في تعويض الخسارة التي لحقت به في السفن والتي انزلها به لوريا عند مالطة ، فقام باعداد نحو ثلاثين سفينة عند نابولي ، وعدداً آخراً عند برنديزي ، وتجمعت هذه السفن عند اوستيكا Ustica ، حيث خرج شارل بنفسه علي رأس هذا الأسطول ، لكن الحوادث جرت في اتجاه آخر وجاءت علي غير ما يهوي ، ذلك ان شارل كان قد ترك ابنه وولي عهده ويدعي شارل الاعرج (أمير سالرنو) نائبا عنه في نابولي وامره بالاستعداد لجولة جديدة ، وعلي الرغم من أنه نفذ خطة الاستعداد بهمة ونشاط الا أنه ظل في مكانه في نابولي انتظارا لوصول والده علي رأس الاسطول ، وفي ٥ يونيو ١٢٨٤م. ، ظهر روجر لوريا بالاسطول الصقلي في خليج نابولي واستدرج شارل الاعرج للقتال فتسرع هذا واشتبك معه في قتال ، فانتهت المعركة بانتصار لوريا انتصارا حاسما وسقط العديد من نبلاء شارل قتلي وفر كثير منهم من ميدان القتال ، وعندما وصل شارل إلي قرب نابولي أدرك أن أي هجوم مباشر علي لوريا يعتبر أمرا مستحيلا ، خاصة وقد تفشت الفوضي وانتشر الشغب في نابولي . فاشتد حنقه علي ابنه ونعته بالقسيس "الجبان، الغبي ، الذي يختار دائما الخيار الأسوأ " ، ولكنه لم يستطع ان يغير النتيجة خصوصا بعد ان فر معظم رجاله إلي ابوليا . أخذ شارل يجمع الرجال من

(1) Previté - Orton : Italy, P. 199 .

جديد ويعد الاسطول ويغير ويبدل في خططه لعله يستطيع أن ينقذ ما يمكن انقاذه ويحتفظ علي الاقل بمملكة نابولي . ونتيجة لما بذله شارل من جهد ارهق كثيرا واصابته الحمي وظهر واضحا ان أيامه أصبحت معدودة ، وتوفي في النهاية في فوجيا Foggia في اقليم ابوليا في ٧ يناير ١٢٨٥ م. ، ونقل جثمانه إلي نابولي حيث دفن هناك [(١)] .

وهكذا سقط شارل دانجو ضحية لطموحه المفرط وغروره واعتزازه بعنصره الفرنسي ، ورغم أنه كان فارسا جريئا ، إلا انه فشل في تحقيق أحلامه العريضة في الغزو والفتح ، وفشل في حكم وقيادة ايطاليا كبطل من أبطال البابوية ، وكان فشله الاكبر في حكم صقلية .

واذا كانت البابوية قد اختارته ليكون بطلها والمدافع عنها ، إلا ان مشاريعها لم تتحقق وخططها لم تنجح تماما ، لان طموح شارل جعله يعمل لتحقيق مصالحه السياسية أولا ، ولم تكن صفاته الشخصية بالتي تسمح باستغلاله كدمية في يد البابوية تحركها كيفما ارادت ، بل ان الذي حدث هو ان البابوية هي التي أصبحت دميه في يده يحركها كيف يشاء وذلك علي عهد البابا مارتن الرابع . وهكذا فان كانت البابوية قد لجأت لشارل دانجو لكي يخلصها من خطر الهوهنستاوفن ، فان خطره هو عليها كان لا يقل بأي حال عن خطر الهوهنستاوفن .

والواقع ان سياسة شارل دانجو في صقلية كانت سياسة فاشلة تماما ، لانه لم يتجاوب مع الشعب الذي كان عليه أن يتعامل معه بل أن اعتداده بأصله الفرنسي ومكانة فرنسا في ذلك الوقت ، دفعه إلي اتخاذ سياستين مختلفتين ، واحدة تجاه العنصر الفرنسي ، والاخري تجاه العناصر غير الفرنسية ، التي نظر اليها باحتقار

(1) Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 254 - 255 .

Previté - Orton : Italy , P. 200 .

وتعالي ، وهكذا أساء إلي صقلية وشعبها أبلغ إساءة ، وشهدت الجزيرة أثناء حكمه من ٦ يناير ١٢٦٦ م. إلي ٢٩ مارس ١٢٨٢م. تدهورا واضمحلالا سياسيا واقتصاديا لم تشهده من قبل ، ولم يكن الصقليون يقبلون ذلك بعد أن وصلوا إلي قمة الازدهار في عهودهم السابقة خاصة علي عهد الملك النورماني روجر الثاني (١١٠٣ - ١١٥٤ م) الذي جعل من صقلية مركز ازدهار ورخاء وتمتعت في ظله بالرخاء الاقتصادي وشهدت عاصمته بالرمو تطورا هائلا في كل الميادين وأصبحت مركزا لصناعة الحرير ، وأطراها المعاصرون كثيرا وتحدثوا عن ثروتها التي بلغت ايراداتها في عام ١١٥٥م. أكثر مما بلغته ايرادات جميع مملكة انجلترا . وازدهرت أيضا الناحية الثقافية ، وغدت صقلية ملتقي الشرق والغرب ، حيث تم فيها ترجمة أعمال اليونان والمسلمين إلي اللغة اللاتينية واستحوذت الفنون أيضا علي اهتمام روجر الثاني وأصبحت علي درجة كبيرة من الرقي والازدهار ، اذ حوي قصره في بالرمو كنيسة صغيرة Chapel كانت آية في الفن والجمال لأنها بنيت بمزيج من الفنون المعمارية البيزنطية والاسلامية ، كما حازت نفس الشهرة الكاتدرائية التي بناها في مونريال Monreale بالقرب من بالرمو ، فضلا عما قام به روجر الثاني من تنظيمات سياسية وادارية عظيمة في الجزيرة حتي غدت من أقوي الدول في غرب أوروبا ، وبقيت صقلية علي نفس المستوي من النمو والازدهار حتي نهاية حكم الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٧ - ١٢٥٠م.) ، الذي ولد وتربي في بالرمو ، وكان يعتبر نفسه ايطالياً أكثر منه ألمانياً ، والذي أحب صقلية أكثر من أي مكان آخر ، وكان يردد دائما وحتي آخر أيامه أنها المكان الوحيد الذي يشعر فيه أنه في بيته ، وفي عهده شهدت الجزيرة ازدهارا عظيما ، حتي عد عهده (العصر الذهبي) لصقلية ، وأصبح بلاطه في بالرمو ملتقي العلماء المسلمين والمسيحيين ، واليهود ، والأكثر شهرة بين مراكز السياسة والثقافة في غرب أوروبا. وقد شجع فردريك التجارة والصناعة وأسس بالجزيرة مدناً جديدة ، كما أقر العدالة

بين رعاياه ، وكفل لهم السلام والرخاء [1] .

وحين آل حكم صقلية إلي شارل دانجو ، اختلفت الصورة تماما اذ لم يتخذ شارل بالرمو أو أية مدينة أخري من مدن صقلية عاصمة له ، بل اتخذ نابولي عاصمة له ، كما أنه لم يزر صقلية ، باستثناء مرة واحدة حين مر بها وهو في طريقه إلي شقيقه الملك لويس التاسع في تونس ، كما ذكرنا ، وترك حكم صقلية لنائب فرنسي يحكمها باسمه واعتمد علي موظفين فرنسيين اتصفوا بالفساد فتعسفوا مع الأهالي وأساءوا معاملتهم وتعالوا عليهم وأظهروا كثيرا من الغطرسة ، هذا بالاضافة للضرائب الباهظة التي فرضها عليهم من أجل تمويل خططه ومشاريعه الرامية إلي الفتح والغزو ، وهكذا تعددت أخطاء شارل التي لم يفطن اليها وسط مشاريعه الكثيرة وانشغاله بالغزو وثقته الزائدة في نفسه وأصله وقدراته ، ولكن فطن اليها أعداؤه واستغلوها أحسن استغلال ، وأخذوا في تحريض الشعب الصقلي للتخلص من هذا الحكم الجائر ، وأمدوهم بالسلاح والاموال ، وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا هو الانفجار الثوري الهائل الذي أطاح بشارل دانجو وقضي علي حكمه في صقلية إلي الأبد . كما كان لهذه الثورة الصقلية تأثير علي البابوية ، فبالرغم من انحياز روما لصف شارل في حكمه لصقلية وتأييده وخاصة من قبل البابا مارتن الرابع تأييدا تاما وبمختلف الوسائل ، إلا ان الصقليين ضربوا بهذا التأييد عرض الحائط ، وسمت همتهم للخلاص من هذا الحكم ونصبوا ملكا اختاروه بانفسهم لا ملكا فرضته عليهم البابوية .

---

(١) عن صقلية ومكانتها أثناء حكم النورمان والهوهنستاوفن راجع :

Norwich J : The Normans in the South , 1967 .

Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 1 - 15 .

The Ilustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , U. S. A. , 1980 , PP. 646 - 647 .

وربما لم يكن فشل شارل في سياسته تجاه صقلية خطأه وحده ، لأنه لم يكن بمقدور حاكم باستثناء فردريك الثاني ، ان يوحد صقلية وايطاليا خاصة في القرن الثالث عشر ، لان الشعور القومي الوطني كان قد نمي وأخذ يسير في اتجاه آخر غير الذي اراده شارل دانجو ، ولم يكن الشعب الصقلي ليتقبل ان يكون تحت حكم رجل غريب . في الوقت الذي لم يدرك شارل ذلك ، بل لم يبذل أي جهد في سبيل محاولة فهم شعب صقلية لتحقيق مطالبه واحتياجاته .

لقد افتتح شارل دانجو عصر الغزوات الفرنسية في ايطاليا ، وبدلا من ان يوجه اهتمامه لجيران فرنسا القريبين منها ، ذهب ليغزو ايطاليا ويغرق في مشاكلها. وعندما توفي شارل في ١٢٨٥م. لم يترك وراءه في صقلية وايطاليا إلا الدمار ، وأسرة جديدة سيئة ، وحكومة أسوأ في نابولي ، وبابوية ضعيفة .

هذا ما خلفه نابليون القرن الثالث عشر شارل دانجو .



المصادر والمراجع



1 - Austine - Lane Poole : : The interrengnum in Germany , in c. Med. H. vol VI , ed. Tanner , Cambridge , 1968 .

2 - Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , ed. Paladino , in Muratori , R I S S , vol XIII , Part 3 , 1921 .

3 - Barrachough G. : The Origines of Modern Germany , 1951 .

: The Medieval Papacy , London , 1975 .

4 - Berger E. : Histoire de Blanche de Castile régne de France , Paris, 1895 .

5 - Böehmer J. : Regesta Imperii , ed. ; Ficker and wink elmann , innsbiruck , 1881 - 1901 .

6 - Buchon (y.) : Recherches historiques sur la princiauté française de Morée , et ces hautes baronnies , I , Paris , 1845 .

7 - Carabellese : Carlo D'Angio nei rapporti Politici e commerciali Venezia e l'oriente , Bari , 1911 .

8 - Dante Alighieri : Opera , III Purgatorio , ed. E. Moore and P. Toynbeé , fourth Edition , Oxford , 1924 .

9 - Del Guidice : La Famiglia del Re Manfredi , Naples , 1863 .

10 - Du Cange : Histoire de l'empire de Constantinople sous les empereurs français , ed. Buchon Paris , 1826 .

11 - Fliche and Martin : Histoire de l'eglise , vol X , Paris , 1950 .

12 - Gibbon E. : The Decline and Fall of the Roman Empire , 6 vols,

New York , 1976 .

13 - Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen , innsbruck , 1894 .

14 - Harvey J. : The Plantagenets , Six teenth impression , 1979 .

15 - Hefelé - Leclercq : Histoire des Conciles , Paris , 1914 .

16 - Hoyt and Chodorow : Europe in The Middele Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 .

17 - The illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , U. S. A. 1980 .

18 - Jordan E. : Les registres de Clement IV , Paris , 1893 .

19 - " : L'Allemagne et l'Italie aux XII e Siécles , dans Glotz : Histoire Générale , Histoire du Moyen Ages , vol IV , Paris , 1909 .

20 - " : Les Origines de la Domination Angevine en Italy , Paris , 1909 .

21 - Kern F. : Acta Imperii et Franciae 1267 - 1313 , Tubinger , 1911 .

22 - Labis : Histoire de France , Paris , 1976 .

23 - Leonard E. : Les Angevins de Naples , Paris , 1954 .

24 - Lexicon universal Encyclopedia , Lexicon Publication , New York , 1983 .

25 - Longnon J : Le rattachment de la principauté de Moreé au royaume de Sicile en 1267 , Paris , 1942 .

26 - Malaspina , Saba : Historia Sicula , in Muratori , RISS , vol VIII .

27 - Martène and Durand : Thesaurus novus Anedotorum , vol II , Paris , 1717 .

28 - Miller (w.) : The Latins in The Levant , A History of Frankish Greece (1204 - 1566) , London , 1908 .

29 - Oliver - Martin : les registres de Martin IV , Paris , 1901 .

30 - Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages , 2 vols, London , 1924 .

31 - Ostrogosky (G.) : A History of the Byzantine State , English trans. by Hussey , Oxford , 1969 .

32 - Painter (S.) : A History of the Middle Ages , New York , 1954 .

33 - Powicke (F.) King Henry III and Lord Edward , Oxford , 1957 .

34 - Prawer (S.) Heine , The Tragic Stirist , A Study of later Poetry (1827 - 1856) , 1961 .

35 - Previté - Orton : Italy 1250 - 1290 . in C. Med . H. vol IV , ed Hssey , Cambridge , 1975 .

36 - Rose (w.) Heinrich Heine , two studies of thought and Feeling, 1956 .

Runciman (S.) : The Byzantine Civilization , Cambridge , 1975 .

" : the Sicilian Vespers , cambridge , 1988 .

38 - Sanudo (m.) Istoria del Regno di Romani , in Hapf . Chroniques Greco - Romanes , Berlin , 1873 .

39 - Setton K. : The Latins in Greece and The Aegean From The Fourth Crusade to the End of the Middle Ages , in C. Med. H. vol IV , ed Hussey , Cambridge , 1975 .

40 - Strenfeeld : Karl V on Anjou als craf der Provence . Berlin , 1888 .

41 - Tafel and Thomas : Vrk under Zuralteren Handels Und staats geschichte der Republik Venedig , Vienna , 1857 .

42 - Trifone (R.) La Legislazione Angioina , Naples , 1921 .

43 - Ullmann (W.) : A History of the papacy in the Middle Ages , 1972 .

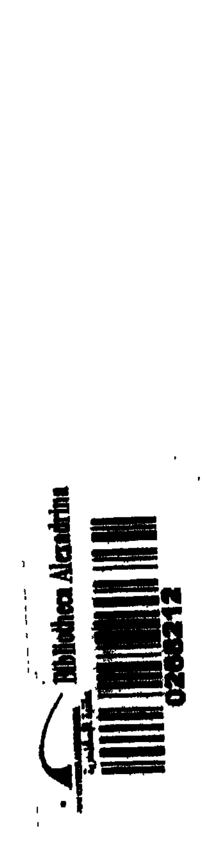
44 - Vasiliev : The History of the Byzantine Empire (1324 - 1453) , 2 vols , U. S. A. , 1971 .

45 - Villani (G.) : Cronica , 8 vols , Florence , 1823 .

46 - Vntermeyer L. : Heinrich Heine , Paradox and Poet the life , 1937 .

47 - Zukythinos (P.) : Le Despotat Grec de Morée , Paris .




Bibliotheca Alexandrina
0268212